موسوعة
شرح الأحاديث القدسية

لإمام الدعاة
الشيخ/ محمد متولي الشعراوي

أعده للنشر وحققه
عادل أبو المعاطي

المجلد الثالث
دار الروضة

تصحيح
سمير رباب

بسم الله الرحمن الرحيم

قال إبليس لربه

قال رسول اللَّه ﷺ:

[قَالَ إِبْلِيسُ لِرَبِّهِ: يَا رَبِّ أَهْبَطْتَ آدَمَ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَكُونُ كِتَابٌ وَرُسُلٌ، فَمَا كِتَابُهُمْ وَرُسُلُهُمْ؟

قَالَ رَبُّ العِزَّةِ: رُسُلُهُمْ الملَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ مِنْهُمْ وَكُتُبُهُمُ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ.

قَالَ: فَمَا كِتَابِي؟

قَالَ: كِتَابُكَ الوَشْمُ، وَقُرْآنُكَ الشِّعْرُ، وَرُسُلُكَ الكَهَنَةُ، وَطَعَامُكَ مَا لَا يُذْكَرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَشَرَابُكَ كُلُّ مُسْكِرٍ، وَصِدْقُكَ الكَذِبُ، وَبَيْتُكَ الحَمَّامُ، وَمَصَايِدُكَ النِّسَاءُ، وَمُؤَذِّنُكَ المزْمَارُ، وَمَسْجِدُكَ الأَسْوَاقُ][1].

مَنْ هو الشيطان؟

سؤالٌ طالما دار في عقولنا، دون أن نجد له جواباً، إن الشيطان غَيْبٌ عنا، يرانا ولا نراه، يهمس في آذاننا ويُوسوس لنا دون أن نعرفَ أين هو؟ ولا ماذا يفعل؟ ولذلك يبقى السؤال.. مَنْ هو الشيطان؟

اللَّه سبحانه وتعالى ـ رحمةً منه بعقولنا ـ أعلمنا مَنْ هو الشيطان.. وما هي قصة عداوته للإنسان.. وكيف نشأتْ.. وكيف نواجهه ونتغلب عليه، وعلى كل القوى الخفية والظاهرة في الكون.

اللَّه تبارك وتعالى يأمرنا أن نستعيذَ به.. ذلك لأن اللَّه جلَّ جلاله قاهر فوق كل خَلْقه.. المؤمن منهم والكافر، والطائع منهم والعاصي، والذي له

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والإتحافات السنية في الأحاديث القدسية ١٥٣ وفي كنز العمال للمتقي الهندي ج ١٦/ ٤٤٠٥٦.

اختيار، والمقهور على الطاعة.. كل هؤلاء مقهورون للَّه سبحانه وتعالى فلا شيءَ في الكون يخرج عن مشيئته.. ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

اللَّه سبحانه وتعالى لا يخرج في كونه عن مراده الفعلي، ولكن يخرج الذين أعطاهم الحقُّ جلَّ جلاله الاختيارَ عن مراده الشرعي.. أو منهجه في «افعل ولا تفعل».

وهم يخرجون عن هذا المنهج باختيار اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأنه جَلَّ جلاله هو الذي خلقهم قادرين على الطاعة.. وقادرين على المعصية.. ولو أنه تبارك وتعالى أراد أنْ يخلقهم مقهورين على الطاعة لَفعلَ.

وهذا المعنى تجده في قول الحق تبارك وتعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣، ٤].

وهذه الآية خطابٌ لرسول اللَّه ﷺ الذي كان يحزّ في نفسه أن هناك من يرفضون الإيمان، وكان هذا الحزن والأسى لأنه كان يعرف ما ينتظرهم في الآخرة من عذاب مهين خالد باقٍ.

لذلك كان ـ لأنه رحمةٌ للعالمين ـ يريد أن ينقذهم من المصير الذي ينتظرهم.

الحق سبحانه يخبره هنا بأن هؤلاء وإنْ خرجوا عن مراد اللَّه الشرعي الذي أراده لهم بالإيمان به واتباع منهجه، فإنهم لم يخرجوا عن مراد اللَّه الفعلي؛ لأن اللَّه سبحانه أراد لهم أنْ يكونوا مختارين في أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا، يطيعوا أو يعصوا، فأعطاهم الاختيار في أنْ يفعلوا أو لا يفعلوا.

هذا الاختيار نابع عن إرادة اللَّه سبحانه وتعالى.. ولولا تلك الإرادة ما كان هؤلاء مختارين في أنْ يطيعوا أو يعصوا.. إذن: فلا شيءَ في الكون يخرج عن إرادة اللَّه سبحانه وتعالى.

وصف الشيطان:

إننا قبل أن نمضي.. لا بد أن نُبيِّن الفرق بين وصف الشيطان.. وبين

الشيطان نفسه.. فالشيطان كوصف عام معناه كل مَنْ يُبعد الناس عن طاعة اللَّه وعن منطق الحق، وكل مَنْ يُغري بالمعصية، ويحاول أن يدفع الإنسان إلى الشر.. كل واحد من هؤلاء هو شيطان.

ويجب أن نعلم أن هناك شياطين من الجن.. وشياطين من الإنس.. يجمعهم وصف واحد، كما يجمعهم الاتحاد في المتعة التي هي نشر المعصية والإفساد في الأرض.. شياطين الجن هم العصاة من الجن الذين يصدون عن الحق ويدعون الى الكفر، وشياطين الإنس يقومون بنفس المهمة.

إذن: فاللفظ هنا وصف لمهمة معينة.. وليس إشارة إلى شخص باسمه، فكل مَنْ دعا إلى الكفر والشرك والعصيان هو شيطان.

أما إبليس فهو شيطان من الجن وكانت له منزلة عالية حتى قيل إنه كان يعيش مع الملائكة.. إبليس هذا هو خَلْق من خَلْق اللَّه، ولكنه يختلف عن الملائكة في أنه خُلِقَ مختاراً، وهو لا يستطيع أن يتمرد على أمر اللَّه وإنْ أُعْطي حقَّ الاختيار، وإنما يستطيع بما له من اختيار أن يتمرد على الطاعة.

لهذا كان خروج إبليس عن طاعة اللَّه.. ليس تمرداً على أمر اللَّه.. لكنه عدم طاعة اللَّه بمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى التي شاءتْ أنْ يخلقه مختاراً.. قادراً على الطاعة.. وقادراً على المعصية.

هذه المشيئة هي التي نفذ منها إبليس.. وينفذ منها كل عاصٍ بعدم طاعة اللَّه.. وهذه نقطة لا بدَّ أن نفهمها.. قبل أن نمضي في الحديث عن الإنس والشيطان.. فلا شيءَ في كَوْن اللَّه سبحانه وتعالى يتمرد على أمر اللَّه.

لكن اللَّه خلق خَلْقاً مقهورين على الطاعة (هم الملائكة)، وخَلْقاً مختارين في أن يطيعوا أو يعصوا هم (الإنس والجن) ومن خلال هذه الإرادة ـ إرادة اللَّه سبحانه وتعالى ـ في أن يخلق خَلْقاً قادرين على الطاعة وعلى المعصية.. جاءت المعصية على الأرض.

على أن هناك حديثاً طويلاً عن معصية إبليس.. بعضهم يقول: كيف يُحاسَبُ إبليس لأنه رفض أنْ يسجدَ لغير اللَّه؟.. واللَّه أمر إبليس أن يسجد لآدم.. وإبليس رفض أن يسجد لغير اللَّه!!

الذين يُشيعون هذا الكلام، من الملحدين وغيرهم. نقول لهم: إنكم لم تفهموا معنى العبادة.. فالعبادة هي إطاعةُ المخلوق لأوامر خالقه.. ومن هنا فإننا عندما يقول اللَّه سبحانه وتعالى لنا أن نصلي خمس مرات في اليوم.. فالصلاة هنا تكون عبادة وطاعة للَّه.. وكذلك كل ما أمر اللَّه به.. عبادة اللَّه هي طاعته.. وعصيان أمر اللَّه هو معصيته.

ونحن لا نناقش الأمر مع اللَّه سبحانه، وإنما نطيعه. فلا نقول مثلاً: لماذا نصلي خمس ركعات ولا نصلي أربعاً أو ثلاثاً أو اثنتين؟ لا نردّ أبداً الأمر على اللَّه، لكننا نطيع حتى ولو لم نعرف الحكمة، حتى ولو لم ندرك السبب، لأن العلةَ في العبادة هي أنها من الآمر. أي: من اللَّه سبحانه.

مهمتنا أن نستوثق أن الأمر من اللَّه، وما دام الأمر من اللَّه فالعلة في تنفيذ الأمر أو السبب في تنفيذه أن اللَّه هو الذي قال، أما غير ذلك فليس للمناقشة.

ومهمة العقل البشري هي الاستدلال على أن لهذا الكون إلهاً خلقه وأوجده.. وأن هذا الإله هو الذي خلقنا.. وخلق نظاماً غاية في الدقة والإبداع.. وكوناً غاية في الإعجاز لا يمكن أنْ يُوجد إلا بخالق عظيم.

فإذا وصلنا إلى هذه النقطة يكون هذا بداية الإيمان.. ولكن عقولنا القاصرة.. وقد وصلت إلى هذا الحد.. لا يمكن أن تتجاوزه، وهي لا يمكن أن تعلم مثلاً: مَنْ هو هذا الخالق العظيم؟ وما اسمه؟ وماذا يريد منا؟ ولماذا خلقنا؟

وهنا يأتي دور الرسل ليكتمل كل شيء.. يرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسولاً.. مُؤيَّداً بمعجزة من السماء.. تخرق قوانين الكون التي تفوق قدرات الإنسان ملايين المرات.. كالشمس مثلاً والبحار والنجوم وغير ذلك.. كل هذه القوى مُسخَّرة لخدمة الإنسان.

الشمس تشرق كل صباح لا تستطيع أن تعصي.. ولا أنْ تقول: لن أشرق اليوم.. والبحار يتبخر منها الماء الذي ينزل منه المطر.. فلا هي عصتْ يوماً.. وقالت إن مياهي لن تتبخر.. ولا هي تستطيع أن تمنع تبخُّر مياهها ليمتنع المطر عن الأرض.

إذن: مهمة الرسل هي إخبارنا بأن اللَّه خلق كلَّ هذا الوجود وسخَّره لنا وأنه يريد منا أنْ نعبده.. ونفعل كذا وكذا.

أي: أنهم يحملون إلينا منهجَ عبادة اللَّه.. واللَّه سبحانه وتعالى يؤيدهم بمعجزات.. نعلم جميعاً أنها فوق قدرات البشر.. كل البشر.. حتى نتأكد من أنهم فعلاً رسل اللَّه، وحتى لا يأتي مُدَّعٍ أو شيطان أن يدَّعي الرسالة ليُضلَّ الناس.

فإذا عرفنا ما يريده الحق جلَّ جلاله منا، فإن علينا السمع والطاعة.. والسمع والطاعة سببهما أن الأمر صادرٌ من اللَّه جل جلاله.. فهو بعلمه يعلم ونحن لا نعلم.. وبحكمته يعرف صلاح كونه، ونحن بحُمْقنا قد نفعل الشر ونظن أنه خير.

اللَّه سبحانه بكل صفات كماله.. واجب العبادة.. والإنسان إذا ناقش فإن من البديهي أن يناقش مُساوياً له في علمه.. فالطبيب يناقش طبيباً.. والمهندس يناقش مهندساً.. ولكن الطبيب لا يناقش في الطب نجاراً مثلا أو سبّاكاً.. فإذا كان النقاش ـ لكي يكون مُجدياً ـ يجب أن يتم بين متساويين، فمَنْ منا يساوي اللَّه جل جلاله في: علمه أو في قدرته، أو في أي علم من العلوم حتى نناقشه فيما أمر أو نهى؟!

واقرأ قول اللَّه عز وجل في كتابه الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

واقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

بداية المعصية:

إذن: فعبادة اللَّه هي طاعة أوامره.. ومخالفة أوامر اللَّه تعالى هي: المعصية، وهي الفسوق، وهي الطريق الى الكفر والعياذ باللَّه.. ومن هنا فإن

العبادة هي إطاعةُ المخلوق لأوامر خالقه. وإبليس عصى أمر اللَّه.. فلا تكون تلك عبادة.. ولكنها معصية وكفر.

يروي لنا اللَّه سبحانه في القرآن الكريم بدايةَ معصية إبليس فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

كانت هذه هي بداية المعصية، بداية كفر إبليس، إنه رفض إطاعة أوامر اللَّه ولم يسجد لآدم فهو لم يرفض السجود لغير اللَّه، ولكنه رفض السجود لأمر اللَّه، وهذا هو الفرق لأن رفض إطاعة أمر اللَّه معصيةٌ وكفر.

إن البعض يثير.. أن الأمر هنا صدر للملائكة.. ولم يصدر لإبليس.. فكيف يحاسب اللَّهُ تبارك وتعالى إبليس على أمر لم يصدر إليه؟

نقول: إنه وإنْ كان إبليس من الجن.. إلا أنه رفض الأمر.. وفي ذلك يخبرنا الحق سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ...﴾.. [الكهف: ٥٠].

وفي قوله ـ تبارك وتعالى ـ مُوجِّهاً حديثه إلى إبليس:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله سبحانه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥].

هكذا نرى بنصِّ القرآن أن الأمر قد صدر إلى إبليس بالسجود وأن الأمر قد شمله، وذلك حتى لا يُقال: كيف يُحاسب اللَّه إبليس على أمر لم يشمله؟!

حقيقة إبليس:

إن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة، لأن الملائكة لا يعصون اللَّه، ولأن الجن لهم اختيار كالإنسان تماماً.

إن بعض العلماء يقسمون الأجناس المختارة إلى ثلاثة أقسام: الشياطين،

والجن والإنس.. ونقول لهم: إن هذا التقسيم غير صحيح، لأن الجنسين المختارين من خلق اللَّه.. هما الإنس والجن.

وفي ذلك يقول اللَّه سبحانه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

وفي سورة الجن، نقرأ قول الحق سبحانه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

هكذا نرى أن الجن منهم مَن هو صالح ومَن هو فاسق.. وأن فسقة الجن هم الشياطين، أما ما يُقال عن أن هناك جنساً ثالثاً أو رابعاً مما أخبرنا اللَّه عنه فنقول لهم: لا ليس هناك إلا الإنس والجن مختارين، وكما أخبرنا اللَّه.

إذن: إبليس من الجن.. عصى اللَّه سبحانه وتعالى في أمر السجود لآدم.. وفي ذلك نقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ..﴾.. [الكهف: ٥٠].

وهكذا كانت معصية إبليس.. برفضه أمر اللَّه سبحانه وتعالى في السجود لآدم. ولكن هذا الرفضَ من إبليس مجرد سَهْو أو خطأ ندم عليه؟ أم كان رفضه استكباراً بالغرور الذي دخل نفسه؟ والكبر الذي ملأ صدره؟

لقد كانت معصيةُ إبليس غروراً وكِبْراً وإصراراً على المعصية، فهو لكِبْره وغروره ردّ الأمر على الآمر وهو اللَّه سبحانه، فيروي لنا القرآن الكريم عنه أنه قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فكأن إبليسَ ردَّ الأمر على اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: كيف تريدني أن أسجدَ لإنسان مخلوق من طين وأنا مخلوق من نار؟

إنه يريد أنْ يُبرّر معصيته وفسوقه بأن النارَ عنصرٌ أرقى من الطين.. لأن فيها شفافية.. والمخلوق من نار يمتاز عن المخلوق من الطين بأشياء كثيرة.. إنه يمتاز عليه بسرعة الحركة وخفَّتها، ويمتاز عليه أيضاً بأنه يستطيع أنْ يصعدَ إلى مسافات عالية.. وأنه يخترق الجدران.. ويدخل الأماكن المغلقة.. التي لا يستطيع أن يدخلها الإنسان.

لا فضلَ لعنصر على آخر:

إبليس أخذ من هذه العناصر ـ بكفره وغروره ـ حجة أنه هو الأعلى.. هكذا صوَّر له غروره.. فاعتقد أنه هو الأفضل، ونسي أن هذه الميزات كلها لم يحصل عليها بذاته ولا بنفسه، بل اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي وضع هذه الميزات في المادة التي خلق منها الجن، ولولا أن الحق سبحانه وتعالى أوجد هذه الميزات في المخلوق من النار.. ما كانت قد وُجدت.

إذن: فالفضل في ذلك ليس للعنصر الذي خُلق منه إبليس، ولكن الفضل للذي أوجد هذه المواصفات في عنصر النار.. وأن اللَّه تبارك وتعالى إنْ شاء سلب النارَ كلَّ هذه العناصر.. فيصبح إبليسُ أحطَّ خَلْق اللَّه.

وكانت هذه أولى درجات الكفر والغرور والكبرياء من إبليس.. إنه نسب الفضل لذاته.. بأنه مخلوقٌ من عنصر أعلى من الطين.. وهو النار.. تماماً كما فعل قارون حين قال كما يروي القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.. [القصص: ٧٨].

فكان جزاؤه أنْ خسف اللَّهُ به وبداره الأرضَ.

وتمادى إبليسُ في معصيته، كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

وهنا لنا وقفة ثانية في قول إبليس كما روى لنا القرآن الكريم: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾، فكأن الغوايةَ حدثتْ من اللَّه سبحانه وتعالى.. فكيف يُحاسب إبليسَ، مع أن اللَّه جلَّ جلاله هو الذي أغواه؟

نقول: إن إبليسَ استحقَّ الغواية لما كسبت يداه، ولقد دخل الكبْر إلى نفسه.. واعتقد أنه قد أخذ كل ما أخذه.. سواء من عناصر تكوينية أو على علم من ذاته، فتركه اللَّه سبحانه وتعالى لغروره.. فغوى. فكأن البداية كانت من الشيطان.. فاستحق أنْ يتركه اللَّهُ لنفسه ولغروره.. فوقع في الكفر.

ذلك أن الحقَّ جلَّ جلاله يقول لنا في القرآن الكريم:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وإبليس فسق وكفر.. فسق بأنه عصى أمر اللَّه في السجود، والفسوق معناه البُعْد عن المنهج.. يُقال: فسقتْ الرطبة عندما يصبح البلح رُطَباً.. البلح وهو أحمر تلتصق قشرته بالثمرة.. فلا تستطيع أن تنزعها.. فإذا أصبح رُطباً ابتعدتْ القشرة عن الثمرة.. وأصبح من السهل نزعها.. وهنا يُقال: فسقتْ الرطبة. أي: انقطعتْ قشرتُها عن قمرتها.. والفسوق ابتعاد عن المنهج.

واللَّه سبحانه وتعالى أبلغنا أن إبليسَ فسق وكفر.. في قوله جل جلاله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.. [الكهف: ٥٠].

واللَّه تبارك وتعالى ترك إبليس لنفسه، فغوى وسقط في المعصية والكفر ذلك أن اللَّهَ لا يظلم أحداً.. ولكن الظلم يأتي من النفس. وعندما يظلم المخلوقُ نفسه.. ويتخذ طريق الكفر.. فإن اللَّه يتركه للطريق الذي اختاره.. فما دام قد اختار الكفر.. فاللَّه غنيٌّ عنه، لأن اللَّه غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً.

ما بعد الغواية:

عندما سقط إبليسُ في الغواية.. وعرف أنه بكفره قد طُردَ من رحمة اللَّه.. وأصبح محكوماً عليه بالعذاب الأبدي.. طلب من اللَّه أنْ يُمهله إلى يوم القيامة.. وألّا يقبض روحه إلا ساعة أنْ يُنفخ في الصور. وقال كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].

ويُلاحظ هنا أن إبليسَ استخدم كلمة ﴿رَبِّ﴾ ولم يَقُل: إلهي. لأنه خاطب اللَّه بأنه ربُّ العالمين. أي: رب كل مَنْ خلق، المؤمن منهم والكافر.

إن اللَّه سبحانه وتعالى له عطاءان: **عطاء ربوبية** في أنه ربٌّ للجميع.. هو الذي خلقهم واستدعاهم للوجود.. ولذلك فإنه يعطي عطاء ربوبيته للمؤمن به والكافر والعياذ باللَّه.. وهذا عطاءٌ في الدنيا فقط.. يرزق المؤمن ويرزق الكافر.. ويَدُ اللَّه الممدودة بالأسباب أعطتْه الأسبابَ.

فالذي يُحسن زراعة الأرض بأحسن الوسائل، تعطيه محصولاً وفيراً، سواء كان مؤمناً أو كافراً.. والذي يأخذ بأسباب التقدم ويدرس ويبحث.. تعطيه الأسباب في التقدُّم الذي عمل من أجله.. هذا في الدنيا فقط.

أما عطاء الألوهية . . فهو لمَنْ آمن باللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ هو واحدٌ أحدٌ، لا شريكَ له . . هذا هو عطاء الألوهية الذي يعطيه اللَّه تبارك وتعالى للمؤمنين به في الآخرة . . حيث تنتهي دنيا الأسباب . . ويصبح كل شيء من المُسبب مباشرة . . من اللَّه لعباده المؤمنين . . بمجرد أنْ يخطرَ الشيءُ على بالهم يجدونه أمامهم . . بلا أسباب وبلا عمل .

إن الشيطان . . هو كل مَنْ يدعو إلى البُعْد عن عبادة اللَّه . . والبعد عن منطق الحق . . ويَحضّ على المعصية مهما كان جنسه . . إن إبليسَ خَلْقٌ من خَلْق اللَّه . . تمرّد على منهج اللَّه . . بما أعطاه اللَّه من حرية الاختيار في أن يطيع أو يعصي، وفي أنه ردّ الأمر على الآمر، وهو اللَّه سبحانه وتعالى، فكفر بذلك العصيان، ثم تمادى في الكفر . . وطلب من اللَّه سبحانه وتعالى أنْ يُبقيه حتى تقوم الساعة .

ولكن . . لماذا طلب إبليسُ هذا الطلبَ؟ وما الذي كان يدور في عقله بالنسبة للإنسان؟

معصية الشيطان :

قبل أنْ أذكرَ قصة عداء إبليس لآدم وذريته . . وكيف يُوسوس لهم ويُغريهم بالسوء . . لا بُدَّ لنا من وقفة عند معصية إبليس . . تلك المعصية التي استحقَّ عليها لعنة اللَّه إلى يوم القيامة .

إبليس عندما رفض طاعةَ أمر اللَّه بالسجود لآدم لم يحاول التوبة أو الرجوع إلى الحق، لم يقل : يا رب إن قولك حق . . وأمرك حق . . ولكني يا ربّ لم أقدر على نفسي فسامحني، لم يُفِقْ لنفسه ويخرّ ساجداً، بل إن الكبرَ كان قد ملأه، فمضى في المعصية .

يقول الحق سبحانه كما يروي لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

وهكذا ردَّ الأمر على اللَّه سبحانه وتعالى، وكأن اللَّه جلَّ جلاله قد غاب عنه أنه خلق الجانَّ من نار، وخلق الإنسان من طين . . وكان هذا كافياً لطرْد

إبليس من رحمة اللَّه، وطرده من المكان الذي كان يعيش فيه مع الملائكة.. وهنا قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وقوْل الحق سبحانه: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ معناها أن إبليس كان في مكان عَالٍ قبل المعصية.. فلا يكون الهبوط إلا من مكان عَالٍ إلى مكان منخفض، بعض الناس يأخذون الهبوط على أساس أنه يعني المسافة.. ولكن الهبوطَ قد يكون معنوياً.. فالإنسان مثلاً.. إذا كان رئيساً أو حاكماً.. ثم أُقْصي عن مكانه.. فقد هبطت منزلته.. رغم أنه ما زال يعيش في البيت الذي عاش فيه.. أي: أنه لم يهبط من أعلى إلى أسفل من ناحية المسافة، ولكن مكانه هبط.. وبعد أنْ كان مقامه عالياً.. أصبح لا يساوي شيئاً ولا قيمةَ له.

ويمكن أن يكون الهبوطُ من ناحية القيمة. أي: أنك تؤمن أن إنساناً ما ذو قيمة عالية.. تراه يحترم نفسه.. لا يقول إلا الحقَّ.. مُهابَ الجانب.. وفجأة يرتكب عملاً شائناً يجعله يسقط في نظرك.. فلا تحترمه ولا تقيم له وزناً.

إذن: الهبوط ليس بالضرورة.. هبوطاً مادياً في المسافة.. ولكنه قد يكون هبوطاً في القيمة، وفي المكانة، ولذلك فإن إبليس ليس من الضروري أنه كان يعيش في الجنة، وهبط منها كما يقول بعض المفسرين.

أو أنه كان يعيش في مكان عَالٍ من السماء.. بل من الممكن أن يكون نزولاً معنوياً.. بحيث أصبح لا يساوي شيئاً.

الكبرياء للَّه وحده:

اللَّه سبحانه وتعالى حين قال له: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أعطانا سببَ هذا الهبوط في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، أي: أن السبب هو أن إبليس قد ملأه الكبر والغرور.. واللَّه سبحانه وتعالى لا يحب المتكبرين.. وكل مَنْ أخذه الكبرُ.. ويعتقد أنه بذاته ونفسه يستطيع أنْ يُحقِّق شيئاً بعيداً عن قدرة اللَّه سبحانه وتعالى. يناله غضبٌ شديدٌ من اللَّه.. لماذا؟

لأن الفعل في هذا الكون كله للَّه جلَّ جلاله.. فلا أحدَ يملك قدرات

الفعل إلا اللَّه.. فلكلِّ فعل ظرف زمان، وظرف مكان لا بُدَّ أنْ يقع فيهما.. وأنت لا تملك الزمان ولا المكان، فلا أحدَ يملك القدرة ليُبقي حياته ولو دقيقة واحدة.. ولا أحدَ يملك القوة ليتحرك من مكان إلى آخر.. إلا بإذن اللَّه وأمره، وقد يأتيه الأجل قبل أنْ يتحرَّك.. وقد يأتيه المرض ليشلَّ قدرته عن الحركة.

فكيف يتكبر الإنسان.. أو أيّ مخلوق من مخلوقات اللَّه، وهو لا حولَ له ولا قوةَ إلا بأمر اللَّه؟!

اللَّه سبحانه وتعالى طرد إبليسَ من المكان أو المقام الذي كان فيه، لأنه تكبَّر واغترَّ، واعتقد أنه يملك القوة الذاتية والقدرة الذاتية.

ولذلك يقول الحق تعالى: ﴿ فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾.

أي: أنه إذا كان لك كبر أو قوة أو ذاتية فابْقَ في مكانك.. ولكنك ستخرج وأنت صاغر.. ستخرج رَغْماً عن أنفك ولا تستطيع المكابرة.. ولا يمكنك أنْ تدَّعي أن لك قوةً تحميك.. أو تجعلك تستطيع أنْ تخالف أمرَ اللَّه، بل ستخرج ذليلاً صاغراً مهيناً.

عندما أدرك إبليسُ أن الكبرَ الذي ملأ نفسه هو كبرٌ زائفٌ، وأنه في الحقيقة لا يساوي شيئاً في ذاته.. امتلأ قلبُه بالحقد على آدم، لأنه اعتقد أنه السببُ في كل ما حدث له في طرده وفي هبوطه إلى أسفل السافلين.. وفي غضب اللَّه سبحانه وتعالى عليه.

والحقد الذي ملأ قلبَ إبليس دفعه إلى محاولة الانتقام من آدم وذريته.. فكما قاده عدمُ إطاعة أمر اللَّه بالسجود لآدم إلى النار.. ثأراً منهم لمَا حدث له.. وكما طرد إبليس من رحمة اللَّه.. إنه يريد الانتقامَ من آدم.. لأنه كان السببَ في كل ما حدث.. من لعن وطرد لإبليس وكل مَنْ تبعه، إنه لا يريد أنْ يدخلَ إلى النار وحده! وإنما يريد أنْ يحشدَ فيها مَنْ يستطيع إغواءه من الناس.

ولذلك عندما خرج إبليس صاغراً ذليلاً من المقام الذي كان فيه.. توجه إلى الحق ـ سبحانه وتعالى ـ كما يروي لنا القرآنُ الكريم:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

هكذا عاد إبليس إلى المذلَّة.. يطلب من اللَّه سبحانه وتعالى أنْ يُبقيَه حياً إلى يوم القيامة.. وقد كان يملؤه الكبرُ، ولو أن كبره كان حقيقياً وليس زَيْفاً.. ولو أنه كانت له أيُّ قوة ذاتية.. لَمَا طلب إلى اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ يُبقيه إلى يوم القيامة ولأبقى نفسه.. ولكن لأنه لا حَوْلَ له ولا قوةَ إلا ما شاء له اللَّه.. فإنه اتجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى ليبقيه حيّاً إلى يوم القيامة.

ولكن، لماذا استجاب اللَّه تبارك وتعالى لدعاء إبليس.. وكان من الممكن أنْ يُهلكه في التوِّ واللحظة؟

لماذا قال اللَّه جل جلاله: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٧، ٢٨].

لقد استجاب اللَّهُ دعاءه ـ وهو المطرود من رحمته ـ لأن حكمة خَلْق الدنيا لا تكتمل إلا بهذا.. فاللَّه سبحانه وتعالى خلق الدنيا كدار اختيار، وجعل الآخرة دار الجزاء.. واللَّه جلَّ جلاله يريد أنْ يمرّ عبده باختبار في الحياة الدنيا.. أنْ يمتحن قبل أن يجازى.. أن يكون شهيداً على نفسه يوم القيامة فيما فعل.. واقرأ قوْلَ الحق تبارك وتعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقوله جل جلاله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولو أراد اللَّه سبحانه وتعالى خلقاً مقهورين على الطاعة كالملائكة.. لاستطاع أن يخلقهم.. ولو أراد الحق سبحانه وتعالى.. أنْ يطيعَ أهل الأرض جميعاً منهج اللَّه.. وأنْ يكونوا جميعهم مُسبِّحين وعابدين لاستطاع أنْ يفعلَ ذلك.

ولكن اللَّه جلَّ جلاله اختار أجناساً تأتيه عن قَهْر كالملائكة وغيرها من خَلْق اللَّه.. واختار الإنس والجن دون غيرهم من الأجناس ليأتوه عن حب ورغبة.. يكونون قادرين على المعصية.

ولكنهم لا يفعلونها حباً للَّه، ويكونون قادرين على عدم الطاعة.. ولكنهم يطيعون قرباً للَّه.. إنه سبحانه وتعالى يريد خَلْقاً يأتيه عن حب.. في فترة اختبار محدودة بعُمْر كل إنسان.

إننا بعد حلول الأجل سنكون مقهورين لإرادة اللَّه سبحانه وتعالى.. ذلك أن الإنسان وهو يحتضر تنتهي إرادته البشرية تماماً.. ولا تصبح له إرادة حتى على جسده.. لأن الإرادة كانت في الدنيا.. أما ساعة الموت.. وفي حياة البرزخ.. بين الموت والبعث ويوم القيامة، فلا توجد إرادةٌ لأحد.. فالكافر يُقَاد الى النار.. ويحاول أنْ يُوقف قدمه عن السير فلا تقف، ويحاول أن يدفعَ النار بيديه فلا تندفع، ويحاول أن يهرب من الوقوف أمام اللَّه، ومن العذاب.. فلا يستطيع.. كل ما كان في الدنيا من حول وقوة قد انتهى.

الدنيا دار اختبار:

والحياة الدنيا ـ لكي يكون فيها اختبار ـ لا بدَّ أن يكون فيها إغواءٌ وغواية.. ومن هنا كان إبقاء الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لحياة الشيطان جزءًا من الإغواء.. الذي سيتعرَّض له الإنسان في حياته الدنيا.. اختبار من اللَّه لحبه في قلوب عباده.. فمَنْ أحبَّ اللَّه.. وَقَاهُ الحق سبحانه وتعالى من إغواء الشيطان، ومَنْ أحبَّ المعصية والكفر والعياذ باللَّه.. سلط اللَّه تبارك وتعالى عليه الشياطين.. لتزيده معصية وكفراً.

واقرأ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وهكذا فإن اللَّه سبحانه وتعالى.. يجعل الإنسان مع مَنْ أحبَّ.. فإن أحب اللَّه تبارك وتعالى كان مع اللَّه، فوقاه السوء وأبعد عنه الشياطين وحفظه من الشر، وفتح أمامه أبواب الخير.. وإنْ كان يحب الشيطان تركه للشياطين التي هي عدو له.. تقوده إلى المعصية.. وتجعل حياته شقاءً مستديماً ويزداد إثماً على آثامه، ثم لا يأخذ معه شيئاً إلا ذنوبه.

وحتى تكتمل تجربة الحياة على الأرض كان وجود الإغراء من الشيطان ضرورياً.. وحتى يختبر اللَّهُ عباده اختباراً إيمانياً حقيقياً، ويُمحِّص ما في قلوبهم، كان لا بدَّ من تجربة واقعية يمرُّ بها الإنسان في حياته.. وليست

تجربة نظرية لأن الكلام النظري شيء، والواقع شيء آخر.. فقد تقول سأفعل كذا وكذا.. وعندما يأتي وقت الفعل قد لا تفعل.

والإنسان حين حمل الأمانة.. وعد أنه سيؤديها حقَّ أدائها.. وعندما جاء وقت الأداء.. أخذتْهُ الدنيا بإغوائها وإغرائها.. فاتبع الشيطانَ.. ونسي عهده للَّه، ونسي منهج اللَّه.

فلا يظن أحد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد أجاب دعوةً للشيطان.. ولكنه جل جلاله.. بما أعدَّ للدنيا من منهج.. وبما أعدَّه لحياة الإنسان من ابتلاءات واختبارات.. أراد أن تتم الصورة كلها.

إذن: فالإجابة كانت لمراد اللَّه سبحانه وتعالى.. وليست استجابةً لدعاء الشيطان أنْ يبقى إلى يوم البعث ولا يقبضه إليه قبل ذلك اليوم.. ليظلَّ الإغواء في الدنيا حتى آخر لحظة.. والابتلاء للإنسان مستمر إلى يوم القيامة.

عندما قضى اللَّه سبحانه وتعالى لإبليس أن يبقى إلى يوم القيامة.. عاد الغرور إلى نفسه مرة أخرى، وأحس أن هذه هي فرصته.. لينتقمَ من آدم وذريته.. وقال الحق ـ جل جلاله ـ كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

كيف دخل الشيطان إلى باب غواية الإنسان؟ وبماذا دخل؟ إذا قرأت الآية الكريمة التي تحكي مقالة الشيطان للَّه عز وجل:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

تعرف كيف دخل الشيطان إلى غواية الإنسان؟ دخل من باب عزة اللَّه سبحانه وتعالى.. وبأن الحق جلَّ جلاله عزيز لا يحتاج لأحد من خَلْقه. أي: أن إبليس قال: يا رب لو إنك أردتهم طائعين، ما استطعتُ أنْ أُغويَ واحداً منهم، ولكنك لأنك عزيزٌ على خَلْقك لا ترى طاعتهم في مُلْكك شيئاً، ولا تنقص معصيتهم في مُلكك شيئاً، فإنني بعزتك سأقوم بغوايتهم.. سأُزيِّن لهم المعصية.. سأقعد لهم على كل صراط مستقيم.

أما الطرق غير المستقيمة فلا حاجةَ للشيطان أنْ يقعدَ عليها.. إنه لا يجلس مثلاً على أبواب تناول الخمر، ولا على أبواب الأماكن التي تتم فيها

الفاحشة، فإن هؤلاء الناس الذين يرتادون هذه الأماكن التي تتم فيها الفاحشة قد أصبحوا جنوداً للشيطان، ليسوا محتاجين إلى إغواء.. ولا إلى وسوسة.

على أبواب المساجد:

إن الشيطان يجلس على أبواب المساجد وأماكن العبادة والذكر يحاول أن يُغريَ الناس على عدم الصلاة، فإذا أُذِّنَ للصلاة فإنه يحاول أنْ يُغريَ الإنسان بأيِّ شيء حتى لا يذهب إليها، فيُذكِّره بما نسي من أشياء دنيوية، ويُوسوس له ويُخوّفه بأنه إذا ذهب إلى الصلاة ربما فاته بيعٌ أو شراء أو مال أو مصلحة وأن العمل عبادة، وأنه.. إلى أن يصرفه عن الذكر والصلاة.

هناك قصة تُروى عن الإمام أبي حنيفة رضي اللَّه عنه وكان مشهوراً بالفتوى في أمور الدين.. فجاءه رجل وقال: ضاعتْ مني نقودي.. فقد دفنتُها في مكان من الأرض ونزل السيلُ فأخفى مكان النقود.. وأزال الحجر الذي وضعته علامة على المكان، ولا أدري ماذا أفعل؟

فقال الإمام أبو حنيفة: وبماذا أفتيك في هذا الأمر؟ ولكن الرجل ألحَّ فقال له الإمام: اذهب الليلة بعد صلاة العشاء، وقِفْ أمام ربك متهجداً إلى أن يطلع الفجر.. وقل لي: ماذا سوف يحدث.

وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل مُتهللاً، وقال: لقد وجدتُ مالي، فسأله أبو حنيفة: كيف؟ قال الرجل: ما كدتُ أقف للصلاة حتى تذكَّرت أين مكان النقود.. ومتى نزل السيل.. وكيف سار.. وهكذا قِسْتُ المسافة وقدرتها.. فعرفتُ موقع النقود.. فضحك الإمام أبو حنيفة رضي اللَّه عنه وقال: واللَّه لقد علمتُ أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك.

وهكذا عندما عرف الشيطان أن هذا الرجل سيقوم ليلته مع اللَّه.. أسرع إليه ليرشده عن مكان المال.. حتى يمنعه من الاستمرار في ذكر اللَّه، وهذا هو أحد معاني ما جاء في القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

ثم نمضي فيما يرويه القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

إننا إذا تدبَّرنا هذه الآية الكريمة نجد أن الشيطان.. قد حدد أربع جهات يأتي منها إلى الإنسان: اليمين واليسار والأمام والخلف.. والمعروف أن الجهات هي ست: اليمين، واليسار، والأمام، والخلف، وأعلى، وأسفل.. فلمَ يأتي الشيطانُ للإنسان من كل الجهات، وترك الأعلى والأسفل؟!

ونجيب على ذلك بأن الأعلى هو مكان صعود الدعاء.. وصعود الأعمال الصالحة للَّه سبحانه وتعالى.. والأسفل هو مكان السجود للَّه جل جلاله.. وكلاهما لا يستطيع الشيطانُ الاقترابَ منه، فمكان السجود للَّه والخضوع له لا يقربه الشيطان.. وكذلك مكان صعود الدعاء والعمل الصالح.. فهذان المكانان مباركان لكل مؤمن، تحفُّهما الملائكة ولا تقربهما الشياطين.

لكن لا بدَّ لنا أن نقف عند قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

من الذي أنبأ الشيطان وأعلمه أن أكثرَ الناس لن يكونوا شاكرين للَّه على نعمه وفضله.. واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

هل أُوتِيَ الشيطانُ من علم الغيب.. ما جعله يعرف أن أكثر الناس لن يكونوا شاكرين.. أم أنه كان واثقاً من نفسه وُثوقاً جعله يقول هذا الكلام؟!

فالشيطان لا يعرف الغيب.. ولم يُؤْتَ هذا العلم حتى يقول: إن أكثر عبادك لن يكونوا شاكرين.. كما إنه لم يكُنْ لديه من العلم ما يجعله جازماً وواثقاً من أن ذلك سيحدث نتيجة إغوائه للإنسان.

إن القرآن الكريم يكشف لنا كيف قال الشيطان هذا الكلام، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

إذن: فقد كان ما قاله إبليسُ ظناً فقط.. فلم يكُنْ يعلم غيباً.. ولا يدري ما سيحدث في المستقبل.. وجاء حكم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على إبليس ومَنْ تبعوه، كما يقول ربُّ العزة في كتابه الكريم:

﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨].

وهكذا طُرِدَ إبليس.. من رحمة اللَّه ومن الجنة.. ومن أيِّ مكان فيه قرب من اللَّه.. وأصبح مذموماً ملعوناً.. ليس هو فقط.. ولكن هو وكل مَنْ تبعه من الجن والإنس.. مصيرهم جميعاً هو الخلود في النار.

فاللَّه عز وجل أعدَّ لكل عبد من عباده ـ من الإنس والجن ـ مكاناً في الجنة ومكاناً في النار.. حتى إذا عصى الخلقُ جميعاً وَسعَتْهم النارُ.. وإنْ أطاع الخَلْق جميعاً وَسعتهم الجنة.. ويوم القيامة فإن أصحاب الجنة يرثون ـ فوق ما أعده اللَّه لهم من الجنة ـ الأماكنَ المُخصَّصة لمن قضى اللَّه سبحانه وتعالى عليه بالعذاب في جهنم يوم القيامة، والعياذ باللَّه بعد ذلك.

لقد أراد اللَّه سبحانه وتعالى بعد أنْ أنظر إبليسَ إلى يوم القيامة أن يُحصِّن آدم، ويُعرِّفه التجربة التي هو مُقدمٌ عليها.. ويُبيِّن له كيف أن الشيطان عدو له.. وكيف أنه سيُغريه على المعصية.. وكيف أنه سيعده كذباً.. ولن يُحقِّق وعده.

وأراد الحق تبارك وتعالى أنْ يُتمَّ ذلك تجربة يمر بها آدم وحواء، حتى إذا نزلا إلى الأرض كانت هذه التجربة وقايةً لهما من إغواء الشيطان، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

وهكذا أعدّ اللَّه تبارك وتعالى مكان التجربة لآدم وحواء، في جنة فيها كل أسباب الحياة.. بلا تعب ولا جهد.. وفَّر لهما الطعام من ثمار مختلفة.. ووفَّر لهما الشراب.. وفتح لهما من النعيم كلَّ ما يشتهيانه.. وأباح لهما كل ثمر الجنة، ما عدا شجرة واحدة.. طلب منهما ألَّا يقتربا منها.

إنها حياةٌ مريحة مليئة بالنعم المباح فيها كثير، والممنوع منها أقل القليل، شجرة واحدة هي الممنوعة.. وحذرهما اللَّه سبحانه وتعالى من أن الشيطان عدوٌّ لهما، وطلب منهما ألَّا يستمعا إلى ما يقوله لهما، لأنه يريد بهما السوء، ولا يريد لهما الخير.. فما الذي حدث؟

إنه رغم كل هذا التحذير.. ورغم أن المباح كثير والممنوع هو شجرة واحدة.. فإن الشيطان استطاع بإغوائه أنْ يُوقِعَ آدم وحواء في المعصية.

بعض المفسرين يقولون: إن حواء هي التي وقعتْ في المعصية أولاً.. ثم أوقعتْ آدم.. وأنها هي السبب في خروج آدم من الجنة.. فهل هذا صحيح؟ وهل حواء هي التي تحمل المعصية الأولى في خروج آدم من الجنة.. أم أن هذا غير صحيح.. وما هي الحقيقة؟وماذا حدث؟

وقبل أن نُجيب على هذه الأسئلة.. نُجمل ما قلناه من أن الكِبْرَ قد ملأ إبليس.. فجعله يغترّ بنفسه.. ويردُّ الأمر على اللَّه سبحانه وتعالى، ويقول: خلقتني من نار وخلقته من طين.. يريد أنْ يُبدِّل أمر اللَّه، فلعنه اللَّهُ وطرده من رحمته، وجعله من أهل النار هو وكل من اتبعه، ولكن إبليس اتخذ مدخلاً ليُغوي آدم وذريته.. وهذا المدخل هو أن اللَّه تبارك وتعالى عزيزٌ غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً: لا يضره مَنْ ضلَّ.. ولا ينفعه مَنْ آمن.

من هذا المدخل دخل إبليسُ إلى غواية بني آدم.. واللَّه سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار اختبار، ولذلك كان لا بدَّ من الغواية، ليعلم اللَّه الصادقين في إيمانهم (علمَ شهادةٍ) ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة.

لقد شاءتْ إرادة اللَّه أن يدخل آدم في تجربة عملية في إغواء الشيطان.. ليحذره ويعلمه مما سيُلاقيه في الحياة الدنيا.. فكيف تمت هذه التجربة؟

آدم والشيطان:

طرد اللَّه سبحانه وتعالى الشيطان، وأخرجه مما كان فيه.. والخروج هو مجاوزة المكان أو مغادرته.. والشيطان خرج مطروداً وملعوناً ومذموماً.. واللَّه سبحانه وتعالى وعد كلَّ مَنِ اتبع الشيطان بالعذاب في النار.

إن اللَّه جل جلاله قد أعدَّ في الجنة ـ كما قلنا ـ أماكنَ لكل خَلْقه.. من خَلْق آدم إلى قيام الساعة.. وأعدَّ في النار أماكن لكل خَلْقه.. من خَلْق آدم إلى قيام الساعة.. فلو أطاع كلُّ الخَلْق لوسعهم نعيمُ اللَّه في الجنة، ولو عصى كلُّ الخلق لنالهم عذابُ اللَّه في النار.

ولو شاء اللَّهُ أن يقومَ آدمُ وحواء بتجربة عملية على كيفية مواجهتهما وذريتهما وسوسة الشيطان.. وذلك حتى يكونوا مُحصَّنين منها.. ويعرفوا أن الشيطانَ كاذبٌ فيما يَعِدُ.. وأن الشيطانَ لا يأتي منه إلا الشرُّ والضرر وزوال النعمة.

اللَّه سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

ومن هذه الآية الكريمة نعرف أن آدمَ وحواء سَكَنا الجنة.. وكثيرٌ من العلماء قالوا: إن المقصود بالجنة في الآية الكريمة هي جنة الخلد في الآخرة.. مما دفع المستشرقين وغيرهم أن يتساءلوا: كيف يمكن أنْ يدخلَ إبليسُ جنةَ الطائعين للَّه ليوسوس لآدم وحواء ويُغريهما بالمعصية؟!

كيف يمكن لإبليس وهو عَاصٍ مطرودٌ من رحمة اللَّه.. ومحكومٌ عليه بالعذاب في النار.. أن يدخلَ جنة الخلد؟

ثم كيف يمكن لآدم وحواء.. أنْ يدخلا جنة الخُلد ثم يخرجا منها؟ مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قد كتب أن كلَّ مَنْ يدخل الجنة يبقى خالداً فيها؟

نقول لهؤلاء جميعاً: إنكم لم تفهموا مدلول كلمة (جنة) في القرآن الكريم.. إن هناك شيئاً في اللغة العربية يسمى غلبة الاستعمال، ذلك أن اللفظ يكون له مَعَانٍ متعددة.. ولكنه يُؤخذ عادة على معنىً واحد.. إذا قاله الإنسانُ انصرف الذِّهْن إلى هذا المعنى بالذات.. من هنا فإننا عندما نسمع كلمة (جنة) ينصرف ذِهْنُنا إلى جنة الآخرة، لأنها هي الجنة الحقيقية.

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى استخدم كلمة جنة في القرآن الكريم في معانٍ متعددة.. الجنة في اللغة معناها الستر.. ولذلك فهي تُطلق على المكان الذي فيه أشجارٌ غزيرة ومتنوعة.. بحيث إذا مشى الإنسان فيه سترتْهُ هذه الأشجارُ بأغصانها المتشابكة عمَّنْ هم خارج هذه الجنة فلا يروْنَهم.. وفي نفس الوقت فهو يجد فيها أسبابَ معيشته كاملة، ولذلك فهو لا يحتاج إلى الخروج منها.. هذا هو المعنى اللغوي لـ [الجنة].

ليست جنة الخلد:

فإذا بحثنا في القرآن الكريم وجدنا أن القرآنَ استخدم كلمة «الجنة» في أكثر من معنىً.. استخدمها بمعناها اللغوي (بمعنى الستر) وفي معناها الديني (جنة الآخرة).

وفي ذلك نجد آيات كثيرة بهذين المعنيين كقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ [الكهف: ٣٢].

وقوله جل جلاله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥].

كل هذه الآيات الكريمة.. استخدم فيها الحق سبحانه وتعالى كلمة «جنة» وهو يعني جنة الدنيا.

ولقد قال بعض العلماء: إن اللَّه تعالى قد فرَّق بين جنات الدنيا وجنات الآخرة، فلفظ (الجنة) يُطلق على جنة الآخرة وحدها، ولفظ (جنة) من غير الألف واللام يُطلَق على جنات الدنيا.

ولكن هذا الكلام غير صحيح، بدليل اقتران الألف واللام بجنة الدنيا، كما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

والحديث هنا في هاتين الآيتين عن جنة أو حديقة من حدائق الدنيا. إذن: فالألف واللام لا يُميِّزان لفظ جنة.. بحيث يصبح المعنى هو جنة الآخرة.. ولا بُدَّ أنْ نقفَ هنا قليلاً عند بعض الأقوال التي تدَّعي أن آدم وحواء كانا يعيشان في جنة الخُلْد.. وعندما عَصَيا اللَّهَ طردهما من الجنة.. وأنزلهما ليعيشا في شقاء على الأرض.

نقول: إن هذا الكلام غير صحيح في إطلاقه، ذلك أن اللَّه سبحانه قبل أنْ يخلقَ آدمَ حدَّد مهمته في هذه الحياة.

واقرأ قوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. [البقرة: ٣٠].

إذن: قبل أن يتمّ خَلْق آدم.. كانت الغاية من خَلْقه أنه سيعيش في الأرض ويعمرها.

والنقطة الثانية هي أنه لو أن آدمَ قد طُردَ من الجنة لأنه عصى.. فما ذنبنا نحن حتى نرثَ المعصية ونرثَ الشقاء.. إن هذا يتنافى مع عدل اللَّه تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.. [فاطر: ١٨].

إن كلَّ إنسان يُحَاسَبُ عما فعله فقط.. ولا يُحَاسب عما فعله أبواه أو جداه أو أولاده، لأن الإنسان لا يحمل إلا حسناته أو معاصيه.. ومن هنا كان يمكن أن يكونَ آدمُ قد عاش في جنة الخلد.. ثم طُرِدَ منها، لأنه قد عصى وتحمَّلنا نحن نتيجة المعصية.. وورثناها وعُذِّبنا بها بأنْ طُرِدْنا من الجنة، لأنه لو لم يَعصِ آدمُ لَعشْنَا نحن في الجنة.. نقول لهؤلاء: إن هذا يتنافى مع عدل اللَّه الذي يأبى أنْ تورث المعصية.

ولكن.. لماذا جعل اللَّه سبحانه إقامةَ آدم وحواء بعد خلقهما في جنة؟

نقول: إن لذلك حكمة.. فآدم خُلِقَ ليتلقَّى المنهج من اللَّه.. افعل لا تفعل، وهذا المنهج فيه صلاح الحياة على الأرض.. فما قال عنه اللَّه سبحانه وتعالى: افعل.. إنْ لم تفعله فسدتْ الأرض، وما قال عنه: لا تفعل.. إن فعلتَه فسدتْ الأرض.

إن اللَّه تبارك وتعالى وضع آدم وحواء في هذه الجنة ليأخذا تجربة عملية عن تطبيق منهج اللَّه، وليأخذا تحذيراً عملياً عن مهمة الشيطان في إفساد منهج اللَّه، لأن مهمة الشيطان أن يدفعَ آدم وذريته ليفعلا ما نهاهما اللَّه ألَّا يفعلاه، وألا يفعلا ما أمرهما اللَّه جل جلاله بفعله.

فإنْ قال اللَّه لهما: لا تشربا الخمر.. سيُزيِّن لهما شرب الخمر، وإنْ قال اللَّه لهما: أقيما الصلاة.. زيَّن الشيطانُ لهما ترك الصلاة.. وهكذا.

لقد كانت التجربة بسيطةً في أدائها، عظيمةً في مدلولها.. كانت تدريباً

عملياً لآدم عليه السلام على ما سيحدث له إذا أطاع اللَّه.. وعلى ما سيحدث له إذا أطاع الشيطان.

وهكذا جاء اللَّه سبحانه وتعالى بآدم، ووفَّر له كل مُقوِّمات الحياة في مكان أسماه الجنة.. فقال جلَّ جلاله لآدم:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩].

أول مناهج السماء:

الحق سبحانه وتعالى بيّن لآدم الميزات التي سيحصل عليها في هذا المكان الذي سيقيم فيه.. فقال جل جلاله: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

أي: في هذه الجنة طعامٌ يكفيك، وكساءٌ يسترك، وماء تجده دائماً فلا يصيبك الظمأ، وليس فيها تعب.. ثمارُ هذه الجنة مباحٌ لك، بل كل ما فيها مُباح لك، ما عدا شجرة واحدة لا تقترب منها، ولا تأكل من ثمارها.

إن هذا هو منهج اللَّه في الأرض.. إنه جل جلاله يبيح لنا الكثير جداً، ويُحرِّم علينا أقلَّ القليل.. وحذَّر اللَّه سبحانه وتعالى آدم وحواء من عدوهما إبليس، فقال تعالى: ﴿ فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧].

وكان هذا التحذير كافياً لينتبه إلى عداوة إبليس، فلا يستمع إلى وسوسته ولا يصدق أكاذيبه.

لقد وفَّر الحقُّ جلَّ جلاله لآدم كل مُقوِّمات الحياة من غذاء، يعطيه ما يحتاجه جسده بدون فضلات، فاللَّه سبحانه وتعالى يغذي الجنين في بطن أمه بالقدر الذي ينميه، ولا تخرج منه فضلات، لأن الغذاء على قدر النمو، وكان غذاء آدم في الجنة على قَدْر نموه.

ويجب أن ننتبه إلى أن الجنة التي عاش فيها آدم ليست هي جنة الخلد، لأن الحياة في جنة الخلد لا تأتي إلا بعد الحياة الدنيا، فهي جزاء لاتباع منهج

اللَّه في الدنيا، وأنها ليست سابقةً للحياة الدنيا، ولكنها لاحقةٌ لها وتأتي بعدها.

إذن: فالجنة التي عاش فيها آدم.. وهي مكان فيه كلّ ما تحتاجه وما تتطلبه، ولا بدَّ أن نلاحظ أن اللَّه سبحانه وتعالى قال لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولم يقل لهما: «ولا تأكلا من هذه الشجرة».. لماذا؟

لأن اللَّه يريد أنْ يحميَ آدم وذريته من إغراء المعصية، فلو أن اللَّه جلَّ جلاله قال: لا تأكلا.. لَكانَ أباح لآدم وحواء أنْ يقتربا من الشجرة، ويجلسا إلى جوارها، ويتأملا ثمارها، وحينئذ كان يُغريهما شكلُ الثمار.. أو لونها أو رائحتها فيأكلان منها.

لكن الحق تبارك وتعالى أراد أنْ يحميَ آدم من نفسه.. ومن الإغراء الذي يمكن أنْ يتعرَّض له.. وقد لا تقوى نفسه عليه.. هذه الحماية التي أراد اللَّه أنْ يُوفرها لآدم وذريته من بعده هي الحماية الحقيقية من الوقوع في المعصية، لأنك إذا اقتربت من شيء حرّمه اللَّه تقبل نفسك إليه، وربما دفعك هذا القرب إلى اقترافه.

ونلاحظ أن الحق سبحانه يطلب منا ألَّا نقتربَ من قمم المعاصي، فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الحج: ٣٠].

ولم يقُلْ تبارك وتعالى: لا تعبدوا الأوثان.. فلو قالها لكان مُباحاً لنا أن نذهب إلى الأماكن التي تُعبد فيها الأصنام وأنْ نجلسَ فيها.. فإذا فعلنا ذلك ربما أوقعنا هذا الجلوس والعياذ باللَّه في عبادة الأصنام.

وكذلك اقرأ قول الحق جل جلاله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.. [المائدة: ٩٠].

أي: لا تقربوا أماكنه.. والغريب أنك تجد بعض الناس يحاول أن يجادلك في أن اللَّه سبحانه وتعالى لم يحرم الخمر. ويقول لك: ائتني بآية من

القرآن الكريم يقول فيها تبارك وتعالى: حُرِّمتْ عليكم الخمر.

ونقول لأمثال هؤلاء المشككين: إن الأمر الذي ورد بالاجتناب أقوى من التحريم.. فلو أن اللَّه جل جلاله قال: حُرِّمتْ عليكم الخمر.. لَكَان المحرم فقط هو شرب الخمر، وكنا في هذه الحالة نصنعها ونتاجر فيها، ونعد الأماكن التي يتم فيها تناولها.. ونخدم شاربيها ونجلس معهم، فما دُمْنا لا نشرب الخمر.

وما دام قد نزل فيها أمر تحريم فقط فلنا أن نفعل كل هذا.. ولكن الاجتناب حرم أن نقترب أساساً من الأماكن التي يتناولون فيها الخمر أو نصنعها أو نتاجر فيها أو نجالس الذين يشربونها، فالاجتناب أقوى من التحريم، ولذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى طلب من آدم وزوجته ألَّا يقتربا من الشجرة المحرمة، وإلَّا يكونا قد ظلما نفسيهما.

بداية المعصية:

ماذا فعل الشيطان؟ إنه يريد أنْ يُوقعَ آدم وحواء في المعصية.. فماذا فعل؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾.. [الأعراف: ٢٠].

قول الحق سبحانه وتعالى: «وسوس» يدل على أن الحديث دار هَمْساً بصوت خافت، والوسوسة هي إغواء الشيطان، وهي إغراء بارتكاب الشر، والذي يتحدَّث ويأمر بالخير لا يهمه أنْ يكونَ حديثه بصوت عَالٍ.. ولكن الحديث في الشر والغواية لا يتم إلا هَمْساً بصوت خافت.

والوسوسة باللغة العربية هي صوت رنين الذهب والحلي، وهو صوت يجذب الناسَ ويغريهم ويلفت نظرهم، والوسوسة لا بدَّ أن يكون فيها إغراء لأنك إذا أردتَ أن تُخرج الناس عن منهج اللَّه لا بُدَّ أنْ تُغريهم بمتعة دنيوية سيفوزون بها.

إننا لا بدَّ أن نتوقف عند قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.. [الأعراف: ٢٠]، لأن الشائع أن الشيطان أغوى حواء، وأن حواء هي التي أغوتْ آدم، وزيَّنتْ له المعصية حتى أكل من الشجرة، وأنه لولا حواء لبقي آدم في الجنة.

نقول: إن اللَّه سبحانه برَّأ حواء من هذه الفِرْية، فقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.. [الأعراف: ٢٠]، دليلٌ على أن الشيطان هو الذي زيّن المعصية لآدم كما زيَّنها لحواء. أي: أن الشيطان هو الذي قام بإغواء آدم وحواء، ولم تَقُمْ حواء بإغواء آدم على المعصية، والغواية جاءتْ من الشيطان للاثنين معاً.

ولكن ما الهدف من هذه الوسوسة؟ هدفه أنْ يعصي آدمُ وحواء ربهما، فيعاقبا كما عُوقبَ الشيطان بالطرد من رحمة اللَّه، والعقوبة هنا هي أن تظهر سوءات آدم وحواء، والسوأة هي ما يسوؤك النظر إليه، أو هي العورة، لأن الفطرةَ تجعل الإنسان يخجل من أنْ يُظهرَ عورته على الناس.

وقبل أن يأكل آدم وحواء من الشجرة لم يَرَ أحدُهما عورةَ الآخر، ولا عورة نفسه، فلا آدم رأى عورته ولا عورة حواء، وكذلك حواء لم ترَ عورتها ولا عورة آدم.. كلاهما ستره اللَّه عن الآخر.

لقد أتعب العلماءُ أنفسهم في كيف كانت عورتا آدم وحواء مستورتين عنهما؟ قال بعضهم: كان عليهما اللباس. وقال آخرون: إن أظافر آدم وحواء كانت طويلة، حتى كانت تصل إلى قدميهما، وكانت هي التي تستر العورة، ثم زالتْ هذه الأظافر بالمعصية.

ولكن ذلك لا يجب أنْ يشغلنا، فاللَّه سبحانه وتعالى كان يستر عورتَيْ آدم وحواء بما شاء من أنواع الستر بنور قوي من عنده.. فالنور إذا كان قوياً فلا تستطيع أنْ ترى الأشياء من خلاله، فإن النور في ضعفه نميز به الأشياء.. وفي قوته يخفيها عنا.

وسواء ستر اللَّه سبحانه وتعالى عورتَيْ آدم وحواء بثوب أو بأظافر أو بنور من عنده، فالمهم أن هذه العورات كانت مستورة من أعينهما.

وظهرت عورة الإنسان:

والسؤال: لماذا نستاء عندما تظهر عوراتنا؟ إن العورات هي مكان خروج فضلات الطعام والشراب.. إننا نحرص على كشف أماكن دخول الطعام والشراب كالفم مثلاً.. ونحرص حرصاً شديداً في نفس الوقت على عدم إظهار أماكن خروج فضلات الطعام والشراب.

يقول بعض العلماء في تعليل ذلك: إن العورة تُذكِّرنا بمعصية اللَّه، فعندما حدثتْ المعصية ظهرتْ العورة، ولذلك فنحن نريد أن نسترها، لأنها رمزٌ للمعصية، والمعصية عورة يحاول الإنسان دائماً أن يُخفيها ويخجل منها ويحرص ألَّا يراها الناس، والرجل مع زوجته يحرص على أن لا يراه أحد، ويحتاط لذلك أشد الاحتياط.

الإنسان عندما يكون معه مال حلال يُخرجه أمام كل الناس، ولا يخشى شيئاً.. والإنسان ومعه مال مسروق يحاول أنْ يُخفيه عن الدنيا كلها، فالمعصية في كل أحوالها عورةٌ يحرص الناسُ على إخفائها وسترها.

ولكن كيف تمَّ إغواء الشيطان لآدم وحواء؟ كيف أوقعهما في المعصية؟ اقرأ قول الحق جلَّ جلاله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

جاء الشيطان لهما من جهة ما تريده النفس البشرية وتتمناه، وهو حياة خالدة لا تنتهي ولا تزول، ومُلْكٌ دائمٌ لا ينفد، ولذلك فإن الشيطان حين أراد أنْ يُغري آدم وحواء بأنْ يأكلا من الشجرة قال لآدم كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

والشيطان كاذب فيما يقول، فلو كانت هذه شجرة الخلد فعلاً لأكلَ منها الشيطان نفسه وأصبح خالداً لا يموت.. ولكنه طلب من اللَّه أنْ يُبقيه إلى يوم القيامة، لأنه يعلم يقيناً أن اللَّه هو خالق الحياة، وأنه وحده الذي يُبقيها أو يُذهبها.

ولا بدَّ أن ننتبه إلى طريقة إغواء الشيطان.. إنه يحاول إغواء الإنسان بأن منهج اللَّه سبحانه وتعالى يضره ولا ينفعه، وأن النفع الحقيقي هو في المعصية، لهذا قال لآدم وحواء: إن اللَّه منعهما من الأكل من هذه الشجرة حتى لا يكون لهما المُلْك والخلود.

والإنسان يكره الفقر ويكره الموت، ويريد أنْ يبقى خالداً، ولذلك جاء لهما الشيطان ليقول لهما: إذا أردتما الخُلْدَ والمُلْكَ فأمامكما هذه الشجرة، وحلف لهما كما يروي القرآن الكريم:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١].

أي: أقسم لهما أنه يريد لهما النصح، وصدّقا القَسَم، صدَّقا الشيطان في أنه يريد لهما الخير، ولذلك عاتب اللَّهُ سبحانه وتعالى آدمَ وحواء بأنهما صدَّقا قَسَم إبليس، مع أنه جلَّ جلاله قد بيّن لهما أن إبليس عدو لهما لا يريد لهما الخير.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ولكن آدم وحواء هما اللذان أحسَّا بالندم الشديد.. ما كانا يعتقدان أن خلقاً من خَلْق اللَّه يقسم باللَّه على باطل.. ولذلك قال قتادة رضي اللَّه عنه: المؤمن باللَّه يُخدع. أي: إذا دخلتَ على مؤمن باللَّه سَهُلَ لك خداعه.

وكان سيدنا عبد اللَّه بن عمر عندما يُحسن أحدُ عبيده الصلاةَ يعتقه، فكان العبيد إذا رأوْهُ بدأوا يصلون بخشوع، فقال له الناس: إن العبيد يخدعوك لتعتقهم. فقال لهم عبداللَّه بن عمر: مَنْ خدعنا باللَّه انخدعنا له.

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾.. [الأعراف: ٢٢].

لفظ «دلى» مأخوذ من دلى حبل الدلو في البئر ليبحث عن الماء، والغرور هو الإغراء الذي يُوقِعَ الإنسان في المخالفة.

وهنا لنا وقفة.. لا يظن أحدٌ أن إبليس أوقع آدم وحواء في المعصية على مرحلة واحدة، بل سبق ذلك مراحل، فإبليس خدعهما أولاً ليقتربا من الشجرة، ثم زيّن لهما ثمارها وحلاوتها ولونها ورائحتها، ثم بعد ذلك أغراهما بالأكل! أي: أن المعصية تمتْ على مراحل ولم تتم دفعة واحدة.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «تُعرَضُ الفتنُ على القلوب عوداً عوداً.. كالحصير»، لذلك لا بدَّ لنا أن ننتبه أن الاقتراب من المعصية يُوقعنا فيها.

ماذا حدث؟ هل كرَّر آدمُ وحواء المعصية، وأكلا مرات ومرات من الشجرة؟ الحق تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾.. [الأعراف: ٢٢]، أي: بمجرد التذوق، ولم يكُنْ هناك إصرارٌ على تكرار المعصية.. إنه بمجرّد التذوق ظهرتْ لهما عوراتهما فقاما بإخفائها أو مداراتها بورق أشجار الجنة.. ومعنى ذلك أنهما احتاجا إلى أكثر من ورقة ليداريا العورة.

وهنا نرى عدل اللَّه سبحانه وتعالى في أنه حذرهما أولاً من المخالفة، وأبلغهما بالجزاء أو العقاب حتى يكون العقاب عدلاً وحقاً، ولذلك فإن التشريع الإلهي لا يوجد فيه ما يُسمَّى بالقوانين بأثر رجعي، فلا تجريمَ في العدل الإلهي إلا بنص، والنصُّ هو نَهْيٌ لآدم وحواء أن يقربا هذه الشجرة، وأن الشيطانَ عدو لهما.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾.. [الأعراف: ٢٢]، بصيغة الاستفهام.. معناه أنه لا يوجد إلا جواب واحد: نعم يا رب نهيتنا.

لقد كان الهدف من هذه التجربة العملية من اللَّه سبحانه وتعالى أن يُحصِّنَ آدم وحواء وذريتهما من الشيطان، فيعرفا أنه كاذبٌ في كل ما يَعدْ به.. وأنه يريد بهما السوء، ولو تظاهر بأنه يريد لهما الخير، وأن مهمة الشيطان أنْ يستخدمَ كل الحيل لإغراء آدم وذريته على المعصية، وأن يستخدم كل الحيل لإيقاع آدم وذريته فيما نهى اللَّه عنه.

ولكن هل انتهت المعركة؟ إنها لم تَنْته.. ولكنها استمرت وستستمر إلى أن تقوم الساعة.

خطيئة آدم.. ومعصية إبليس:

فإبليس قد دخل إلى غواية آدم من جهة أن اللَّهَ عزيزٌ غني مُسْتغنٍ بذاته عن كل خلقه.. إن اللَّه سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

(يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقصَ ذلك من مُلْكي شيئاً.. ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخِلَ البحر) [أخرجه مسلم ٦٦٦٤].

إذن: فمن باب عزة اللَّه دخل الشيطان إلى غواية آدم، واستطاع إبليس أنْ يقنعَ آدم أن اللَّه قد منعه من الأكل من الشجرة لأنه لا يريد له الخير.. وذلك حتى نفطنَ إلى طريق إبليس في الغواية، فلا خيرَ في خير يؤدي إلى

النار والمعصية، ولا شرَّ في شر يؤدي إلى الجنة وطاعة اللَّه.

إن الشيطان يحاول أن يُصوِّر الشر للإنسان بأنه خير، ولذلك صوّر لآدم أن المعصيةَ خيرٌ، فلما أكل آدم من الشجرة وارتكب المعصية هرب إبليس!

والسؤال الذي يدور هنا.. لماذا غفر اللَّه سبحانه وتعالى لآدم خطيئته، ولم يغفر لإبليس معصيته؟ لقد عصى آدمُ وعصى إبليس.. الأول: تاب اللَّه عليه وتقبَّل توبته.. والثاني: لعنه اللَّه وجعله خالداً في النار.. ما هو الفرق بين المعصيتين؟

نقول: إن آدم وحواء حين عَصَيا اللَّه سبحانه وتعالى.. لم يُصرَّا على المعصية.. ولم يُحاولا ردَّ الأمر على الآمر.. إنهما لم يقولا: يا رب إن حكمك ليس حقاً، كما فعل الشيطان حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، لم يفعلا ذلك، ولكنهما اعترفا بذنبهما، وطلبا المغفرة والرحمة من اللَّه.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

تلك هي الكلمات التي قالها آدم وحواء بعد المعصية. قالا: يا رب.. إن قولك حقٌّ وحكمك حقٌّ.. ولكننا لم نستطع أن نحمل نفسينا الضعيفتين على اتباع المنهج، فظلمنا أنفسنا. أي: أننا مشينا بها في طريق الهلاك، ونحن نطلب منك المغفرة والرحمة، فإنْ لم تُعطهما لنا نَكُنْ من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة.

وهكذا طلب آدم وحواء من اللَّه أن يتوب عليهما.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتوبة تمَّتْ على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أنه تعالى شرع التوبةَ لعباده.

المرحلة الثانية: أنهم عندما تابوا قبلها منهم.

والمرحلة الثالثة: من التوبة تكون بعدم عودتهم إلى المعصية.

بعض الناس لا يستوعب قَوْلَ الحق تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وبعض الناس يتساءلون: إذا كان اللَّه قد تاب عليهم.. فلماذا وجبت عليهم التوبة؟

نقول: إن تشريع اللَّه سبحانه وتعالى للتوبة لا بُدَّ أن يحدثَ قبل التوبة، فقوله: ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾.. أي: شرع لهم التوبة؟ قال لهم: إذا فعلتم ذنباً أو معصية فتوبوا.. وما دام اللَّهُ جلَّ جلاله قد طلب منهم أنْ يتوبوا فإنهم يتوجهون إليه بالتوبة فيقبلها اللَّهُ منهم.

وتشريعُ التوبة ليس رحمةً بالعاصي وحده، ولكن بالمجتمع كله، لأن اللَّه سبحانه وتعالى لو لم يفتح باب التوبة لازداد كلُّ مَنْ يرتكب معصية من معاصيه.. فما دامت لا توجد توبة، وما دامت المعصية تؤدي إلى الخلود في جهنم.. فكل مَنْ ارتكب معصية واحدة يملأ حياته بالمعاصي، فما دام لا أملَ له في الجنة فليأخذ نصيبه من الدنيا.. وبهذا يشقى المجتمع كله، لأن كلَّ عاصٍ سيزداد معصيةً.

وانتشار المعصية لا يعاني منها فردٌ.. بل يعاني منها المجتمع.. ولكن اللَّه تبارك وتعالى ـ بتشريعه التوبةَ ـ قد رحم المجتمعَ من انتشار المعاصي، فالمعصية الأولى لا تؤدي إلى الخلود في النار إذا تاب الإنسان عنها ورجع إلى اللَّه، ولذلك فإن الإنسان لا يتمادى في المعصية، بل يذهب إلى جانب الخير فيتوب إلى اللَّه، ويُكثر من عمل الخير فيغفر له ذنبه، وبذلك يبقى الأملُ في جنة اللَّه، وتبقى الرغبةُ في الخير، فينصلح المجتمع ويملؤه الخير، فالتوبة رحمةٌ للمجتمع.

إبليس تأبّى على أوامر اللَّه.. وزاد ذلك بأنه سيُغوي الإنسان على المعصية، فقال كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إن إبليسَ لم يعترف بمعصيته، بل أصرّ عليها، وقال: سأفعل كذا وكذا

وكذا في إصرار على المعصية.. أما آدم وحواء فقد اعترفا بذنبيهما، وهذه نقطة هامة لا بدّ أنْ نلتفتَ إليها، لينتبه الناسُ الذين يُقدِمُون على المعصية ألا يبرروها بردِّ الأمر على اللَّه، كأنْ يقولوا: تغيَّرتْ الظروف أو الوقت قد تغيّر.

مثلاً الذين يتعاملون بالفائدة الثابتة مع البنوك، وهذه فيها شبهة ربا، نقول لهم: لا تقولوا إن الربا ليس حراماً، وأن الفائدة الثابتة نظام عالمي.. وأن الدنيا كلها تتعامل بها.. وأن الزمن قد تغيّر.. إلى آخر ما نسمعه في هذه الأيام.. إنكم بقولكم هذا تُخرجون أنفسكم من نطاق رحمة اللَّه إلى نطاق الطرد من رحمته سبحانه وتعالى.

ولكن قولوا: يا رب، لم نقدر على أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا، وفي هذه الحالة تكون قد اتهمتَ نفسك بالضعف والغفلة والظلم.. وأبقيتَ نفسك في نطاق الإيمان، ولكن أنْ تردَّ الحكم على اللَّه.. وتقول: إن الربا ليس حراماً.. تكون قد خرجتَ من الإيمان إلى الكفر والعياذ باللَّه.

فإذا ارتكبَ إنسانٌ معصيةً فلا يحاول أنْ يبررَ ارتكابها أو يدافع عنها.. ويدّعي أنها حلالٌ.. ولا يقول: إن الظروف قد تغيَّرتْ.. وكان الواجب أنْ يتغيَّر الحكم فإن ذلك فيه ردٌّ لأمر اللَّه يخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر.. ومن الرحمة إلى اللعنة.. وهذا هو الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس.

إبليس عصى وتكبَّر.. أما آدم فعصى ولكنه اعترف بذنبه.

وحينما اعترف آدم وحواء بذنبيهما علَّمهما طريق التوبة.. ولولا أن اللَّه جلَّ جلاله علَّمهما لَمَا عرفا كيف يتوبان.. فالتوبة تمت بإيحاء من اللَّه سبحانه وتعالى.

وإذا تدبَّرنا قولَ الحقِّ جلَّ وعلا.. نرى أن الحق تبارك وتعالى قال:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.. [الأعراف: ٢٣]، نلاحظ هنا أنهما تحدَّثا بصيغة الجمع.. إنهما لم يقولا: ربنا ظلمنا نفسينا، لأن الخطابَ لا يشمل آدم وحواء بل يشمل ذرية آدم المطمورة في ظهره.. حينئذ قال الحق جل جلاله لهما: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤].

يجب أن ننتبه إلى الآيات التي تروي لنا عملية الهبوط، فمرة يقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.. [طه: ١٢٣].

ومرَّة يقول جل جلاله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.. [البقرة: ٣٨].

المُخَاطبون هم آدم وحواء وإبليس، والعداوة هنا مُسبقة بين الإنسان والشيطان، ولكن قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.. [طه: ١٢٣]، تُبيِّن لنا أن العداوة بين طرفين: آدم وحواء طرف، وإبليس طرف آخر، فكأنهما فريقا آدم وحواء وذريتهما، وإبليس وذريته.. فلا تعارض.

ويجب علينا أن نفهم أن استخدامَ الحق لعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾أنه سيكون هناك صراعٌ وعداءٌ بين ذرية آدم وذرية إبليس، وأن هذا الصراع مستمر بعمر الدنيا فقط، ولا يمتد إلى الآخرة، ولكنه بالنسبة للشيطان والإنسان.. صراع مستمر بعمر كل منهما في الدنيا.. وليس بعمر الدنيا كلها، فإذا مات الشيطان أو مات الإنسان انتهى الصراع بالنسبة لهما، وعمر الجن أكبر كثيراً من عمر الإنسان.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في حق الجن: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

فكأن هؤلاء الجن عاشوا عصر موسى عليه السلام، وظلوا أحياء حتى نزل القرآن الكريم. أي: ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، ولا يوجد من البشر مَنْ عاصر موسى، وعاصر رسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

صراع في الدنيا:

إن الصراع بين الشيطان والانسان فترته محدودة بحياة الاثنين، ولا يمتد بعد الموت، ولا يكون في الآخرة.

الحق سبحانه وتعالى يتوجه بعد ذلك بالنصح إلى أولاد آدم ليُحصِّنهم من الشيطان، فيقول جلَّ جلاله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والخطاب هنا مُوجَّهٌ إلى كل نفس من أولاد آدم، لأن كلَّ نفس من أولاد آدم، لها معركة وعداوة مع ذرية إبليس.

اللَّه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أنه أنزل لنا من السماء منهجاً يستر عوراتنا ويُداريها، والإنزال يقتضي أن يهبطَ الشيء من علو، وكل خير في الأرض هبط من السماء، واللباس يُصنع مما تنتجه الأرض، وما تنتجه الأرض لا يكون إلا بالمطر الذي ينزل من السماء.

ويجب أن نعلم أن اللَّه تبارك وتعالى أنزل المنهج ليستر عورات البشر، وعورات المجتمعات، إننا إذا أقمنا المنهج، فلن تظهر فيها عورات ولا سيئات.. ولأصبحَ المجتمعُ متجانساً مترابطاً.. فكان الذي أنزله اللَّه من السماء من مطر يعطينا من الأرض الثوب الذي يُداري عوراتنا الحسية، ولباس من القيم يُداري عوراتنا المعنوية.. بل وأكثر من ذلك أعطانا الزينة من ريش الطير وغيره كنوع من الرفاهية والمتعة.

فكأن الحق سبحانه وتعالى أعطانا ترف الحياة، وجعله حلالاً لنا، وأعطانا المنهج ليستر عوراتنا المعنوية، فإذا كان اللباس المادي يُداري عورة الجسد في الحياة الدنيا، فإن لباسَ التقوى يُداري عوراتنا من فضوح الآخرة، ولباس التقوى. أي: الذي نتقي به غضبَ اللَّه سبحانه وتعالى هو خيرٌ من اللباس المادي.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إذن: فلباس التقوى ـ الذي هو خير من لباس الدنيا لأنه يقينا غضب اللَّه جلَّ جلاله ـ هو آيةٌ من آيات اللَّه، لنعرف أننا مُكوَّنون من مادة وقيم، وكما للمادة عوراتٌ مادية تظهر إذا نزعنا ثيابنا فللقيم أيضاً عورات تظهر لعدم التقوى.

ثم يأتينا التحذير من اللَّه سبحانه وتعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾.. [الأعراف: ٢٧].

اللَّه سبحانه وتعالى يُحذِّرنا من فتنة الشيطان، والفتنة هي الاختبار. . فإذا نجحنا في الاختبار فلن يحدث الفساد، ولكنه يحدث إذا سقطنا في الفتنة، والفتنة ليست شراً ولا خيراً، بل هي اختبار يأتي بالخير إنْ نجحت، أو بالشر إنْ سقطتَ فيه.

وهكذا جاء التحذير من الشيطان بتجربة عملية لآدم وحواء قبل أن ينزلا إلى الأرض، وهي تجربة التكليف في: افعل ولا تفعل، وكانت التجربة في التكليف، فيها أمر وفيها نهي، الأمر أن آدم له أن يأكل من كل ما في الجنة التي كان يعيش فيها، والنَّهْي أنه لا يقرب شجرة واحدة، في هذه الجنة.

لقد أفهم اللَّه تبارك وتعالى آدمَ أن الشيطانَ عدوٌّ له، وأنه سيقعه في المعصية، ولكن رغم هذا التحذير أكل آدمُ وحواءُ من الشجرة فظهرتْ عوراتُهما، وذلك حتى نعرفَ أن أيَّ طاعة للشيطان لا يأتي منها الخيرُ أبداً.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد منا أن نعلمَ أن آدم فيه عنصران: عنصر البشرية التي تصيب وتخطئ، وتعصي وتتوب. وعنصر النبوة المعصومة من الخطأ.

ولذلك يجب أن نفطن الى النصِّ القرآني في قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، وهذه طبيعة البشر. وقوله جلَّ جلاله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وهذا الهدى الذي سيأتي به الأنبياء من ذرية آدم، ولذلك لا يجب أن نقول: كيف عصى آدمُ ربه وهو نبيٌّ؟ فمعصية آدم حدثت قبل النبوة، وبعد المعصية جاءت النبوة وجاء الهدى.

إذن: فالبشرية تنقسم الى قسمين: أنبياء يُبلِّغون الناس المنهج عن اللَّه، وهؤلاء معصومون من الخطأ. وقسم يُبلِّغهم اللَّه منهجه، فيطيعون ويعصون ويتوبون. ولا يقول أحد أو يدَّعي أن آدم نزل إلى الأرض بسبب المعصية، لأن اللَّه خلقه وذريته للحياة في الأرض، ونهاهم وحذَّرهم من فتنة الشيطان في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ . . [الأعراف: ٢٧].

هذا التحذير للبشر وليس للشيطان، فاللَّه جلَّ جلاله لم يقل للشيطان: لا تفتن بني آدم. ولو قال له ذلك لَخرجَ الشيطانُ عن مهمته في الحياة،

ولأصبحتْ الحياةُ ليستْ دارَ اختبار كما أرادها اللَّه سبحانه وتعالى، تُؤدي بخَلْقه المختارين.. إما الى الجنة، وإما الى النار والعياذ باللَّه.

ولذلك فإن فتنة الشيطان هي من تمام ما أراده اللَّهُ للحياة الدنيا.. لكن بعض الناس يتساءلون عن قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

والنهي هنا للبشر.. والسؤال: هل يملك الناسُ اختياراً في الموت؟ هل يستطيعون أنْ يُحدِّدوا وقته وزمانه ومكانه.. فلا يموتن إلا وهم مسلمون؟

نقول: إن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يلفتنا إلى أن الموتَ يأتي بغتة، وفي أيِّ لحظة.. فكونوا على الإسلام دائماً، حتى لا يُفاجئكم الموتُ إلا وأنتم مسلمون.

إن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرفَ أن فتنة الشيطان تُخرجنا من جنة التكليف التي تقودنا إلى جنة الخلود في الآخرة، ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾.. [الأعراف: ٢٧].

أي: أن الشيطان يرانا ونحن لا نراه، وهذا يعطيه قدرة على الإغواء، لأننا ما دمنا لا نراه فإننا لا نستطيع أن نعرف الجهة التي سيأتي منها، أو أن ننتبه الى أنه يُوسوس لنا.

ولكن هل تركنا الحق تبارك وتعالى للشيطان يُغرينا ويُغوينا؟ أم أنه أوجد لنا الوقاية؟

الحق جلَّ جلاله شاء عدلُهُ أن يُوجد لنا الوقايةَ من هذه الوسوسة ومن كل هذا الشر.. الوقاية لا تكون إلا بالتمسك بمنهج اللَّه، والذي يتمسك بمنهج اللَّه ويخلص له لا يستطيع الشيطانُ أن يصلَ إليه أبداً، ولا أنْ يُغويه.

ولذلك نجد في الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٢، ٨٣]، اعترافاً من الشيطان بأنه لا يستطيع أنْ يقتربَ ممَّن يتمسك باللَّه وبمنهجه، لأنه في مَنَعة منه لتمسكه بمنهج اللَّه.

وهنا يأتي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

لقد كَفَل الحق تعالى الحمايةَ لكل عبد أخلص في إيمانه باللَّه، وأخلص في عبادته، ولذلك فإن المؤمنين يحفظهم اللَّه جل جلاله من غواية الشيطان.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه في وصف المؤمنين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

معنى هذا أن الشيطان إذا مسَّ عباد اللَّه المؤمنين فإن اللَّه لا يتركهم، وإنما يُذكِّرهم بمنهجه، وحينئذ يبصرون الحق، فيعودون إلى اتباع المنهج، فكأن الذي يتبع الشيطان مثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً فيتخبط في السير ويتعثر ويقع، والشيطان يحاول أنْ يُعمي الأبصار، حتى لا ترى الحقيقة، ولا ترى آيات اللَّه في كونه ولا تبصر شيئاً.

إن الحق تبارك وتعالى يعطينا هذه الصورة وهو يصف لنا اتباع الشيطان في الآخرة في قوله سبحانه:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦].

أي: أن مهمة الشيطان.. أن يُعمي الإنسان عن آيات اللَّه في الكون، فلا يرى عظمة الخلق، ولا يرى قدرة اللَّه الخالق سبحانه وتعالى.. وعدم رؤيته لهذه الآيات يُنسيه عبوديته للَّه، ويجعله يأخذ الدنيا على أنها غايةٌ وليست وسيلةً للآخرة.

ولذلك فهو يحاول أن يأخذ منها كلَّ ما يستطيع حلالاً أو حراماً، لأنه ما دامت لا توجد بالنسبة له إلا الدنيا، فمهمته أن ينتزع منها كل ما تعطي بطريق مشروع أو غير مشروع، والمهم عنده ومقياسه في النجاح هو ما يُحققه من شهوات ونزوات وسرقات ورشوة إلى غير ذلك.

هذا الصنف من الناس عندما يأتي في الآخرة يبعثه اللَّه أعمى لا يرى شيئاً.. يتخبط ويتعثر.. فإذا سئل عن سبب هذا العمى وقد كان مبصراً في الدنيا، فيقول: لقد كنتُ أعمى في الدنيا. فيقول له اللَّه: لقد كنتَ أعمى في الدنيا.. حقيقة كانت لك عينان ولكنك لم تكُنْ تبصر بهما آيات اللَّه في كونه،

لهذا انطلقت تعصي وتكفر، فكما نسيتَ آيات اللَّه في الدنيا ينساك اللَّه سبحانه وتعالى في الآخرة. أي: لا تنالك رحمته في هذا اليوم.

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

والعمى هنا ليس معناه فقد البصر، ولكن معناه فقد البصيرة التي يرى بها الإنسان آيات اللَّه التي تدفعه إلى الإيمان، وإلى طاعة المنهج.

ومن رحمة اللَّه أنه سبحانه وتعالى فضح لنا أساليبَ الشيطان.. وكيف يُغوي الإنسان، وأبان لنا الطريقة التي يدخل بها إلى النفس البشرية؟ والوسيلة التي يوقع بها الإنسان في المعصية؟ لقد وضح لنا هذا كله حتى نتنبه إلى مداخل الشيطان للنفس البشرية، لكي نسدَّ هذه المداخل، فلا ينفذ الشيطان إلى نفوسنا.

فما هي هذه المداخل؟

مداخل الشيطان إلى الإنسان:

اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن هناك للشيطان: نزغاً.. وهمزاً.. ووسوسةً.. ومساً. فما هو الفرق بين هذه الأشياء كلها؟ وما هي الطريقة التي يدخل بها الشيطان إلى النفس البشرية؟ وكيف يدفعها إلى المعصية؟ وكيف يُخوِّف أولياءه؟ ويسيطر عليهم بالخوف؟ وكيف يهرب ويترك الإنسان الساقط في المعصية، ثم يتبرأ بعد ذلك؟

قبل أن نبدأ.. لا بدَّ أن نقول: إن للشيطان وسوسة، وللنفس البشرية وسوسة ودَفْعاً إلى المعصية.. ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا في القرآن الكريم أن النفوس تتفاوت: هناك النفس الطيبة.. والنفس اللوامة.. والنفس الأمارة بالسوء.

فالنفس الطيبة هي التي لا تعمل إلا طيباً وإلا خيراً.

والنفس اللوامة هي التي يقع صاحبها في المعصية، ولكنها تلومه عليها فيعود إلى الخير مرة أخرى، وقد يقع الإنسان في المعصية أكثر من مرة.

والنفس الأمارة بالسوء هي التي اعتاد صاحبها السوء، فلم يَعُدْ يثير فيه

أيَّ شعور بالندم والاستنكار، بل هو يعيش مع السوء ويأمر بالسوء وقد اعتاده، بحيث أصبح لا يفعل إلا سيئاً.. ويستمتع بذلك السوء!

هناك نوعان من الوسوسة: وسوسة الشيطان بالنسبة للإنسان.. ووسوسة النفس له، فكيف نُفرِّق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس؟

نقول: إن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أيِّ وجه.. فلا يهمه نوعُ المعصية ولكن يُهمه حدوثها.. فإذا حاول أن يُغريَ الإنسان بالمال الحرام، ولم يجد منه استجابة أسرع يُزيِّن له المعصية مع النساء بارتكاب الزنا والفاحشة.

فإذا فشل في ذلك أسرع يزين له معصية الخمر، ويحاول أن يُغريه بها، فإنْ سدّ عليه كلَّ منافذ المعصية أسرع يحاول أن يفسد له الطاعة بأنْ يجعله مثلاً يتفاخر بالصدقة فيضيع ثوابها، أو إذا جاء موعد الصلاة فإنه يحاول أنْ يمنعه من أدائها.

ويجب أن تعلم أن هذا الإغواء لا يأتي قسراً أو قهراً.. فالشيطان ليس له سلطان القهر على الإنسان.. ولكن إذا أذّن للصلاة ـ مثلاً ـ فإنه يغريه ألا يقوم إلى الصلاة، وإنما يؤجلها حتى ينتهي الفيلم الذي يشاهده في التليفزيون، فإذا انتهى الفيلم يذكره بأعمال يؤديها، كأن يتصل بصديق له بالتليفون، أو يتناول العشاء أولاً، أو يقوم بزيارة كان قد نسيها، إلى غير ذلك من أفاعيل الشيطان.

فإنْ كان الإنسان تاجراً.. فإنه يُخوِّفه من أنه إذا قام للصلاة فستضيع منه صفقات ويضيع منه ربح.. وهكذا يظل ينقله من مشكلة إلى أخرى حتى يضيع وقت الصلاة، أو ينصرف عنها بالتدريج، فإن فشل في ذلك، فإنه يُوسوس له في وضوئه وصلاته، فيقول له: إنك لم تحسن الوضوء فأعدْهُ.. ويظل يُشكِّكه في وضوئه.. ثم يُعيده مرات ومرات.. ثم بعد ذلك يُشكِّكه في صلاته.. حتى يعيدها مرات ومرات، ويدخل الشك في نفس الإنسان.. فلا يعرف كم صلى.. ولا يعرف هل أحسن الوضوء أم لا؟

إذن: فالشيطان لا يهمه نوع المعصية، ولكن يهمه أن تتم المعصية.

أما وسوسة النفس فهي أن تُصرَّ على نوع معين من المعصية.. لا تريد غيره.. أي: أنها تُلحّ على صاحبها أن يرتكب معصية بذاتها ويكررها، ولا تطالبه بمعصية أخرى.

الفرق بين الوسوستين:

ولكي تعرف الفرق بين الوسوستين نقول لك: إذا كان مَنْ يُوسوس لك لا يهمه إلا أن تقع في المعصية بصرف النظر عن نوعها.. فهذا هو الشيطان.. أما إذا كان هناك إصرارٌ على معصية معينة ألفْتَها.. فذلك من نفسك.

إذن: إبليس دائماً يأتي من الباب الذي يرى فيه المنهج ضعيفاً.. فإذا وجد إنساناً متشدداً في ناحية معينة، يأتي إليه من ناحية أخرى يكون فيها ضعيفاً.. فإذا كان الإنسان مثلاً متشدداً في الصلاة محافظاً عليها، ويؤديها في أوقاتها.. جاءه إبليس من ناحية المال، فيوسوس له حتى لا يُخرج الزكاة ويُقتِّر، ويأكل أموال الناس بالباطل، مُدخلاً في نفسه الوهمَ بأن هذه الطريقة تُزيد ماله وتجعله غنياً وتُبعد عنه الفقر.. والحقيقة غير ذلك.

كما قال رسول اللَّه ﷺ: «ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة» [أخرجه مسلم ٦٦٨٤]. لأن الصدقة هي التي تُكثر المال وتضع بركة اللَّه فيه ليزداد وينمو، والمال هو مال اللَّه.. يتركه كلٌّ منا عندما يرحل عن الدنيا، ولكن غير المؤمن يغفل عن هذه الحقيقة.

وحينما يجد إبليسُ إنساناً متشدداً في الصلاة.. مُحباً للمال.. يأتيه من ناحية ضعفه فيمنعه من الصدقة وأنواع البر، ثم يُغريه بالمال الحرام، وتبدأ المعاصي تنسج على قلبه عوداً عوداً، لتغطي القلب كله وتمنعه من ذكر اللَّه.

ولعلنا نذكر قصة ثعلبة الذي طلب من رسول اللَّه ﷺ أن يدعو له اللَّه أن يغنيه.. فقال له رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام: «قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه».. ولكن ثعلبة أصرَّ.. فدعا له رسول اللَّه ﷺ فكثرت غنمه حتى ضاقتْ بها المدينة، فخرج إلى خارجها، وبدأ ثعلبة يغيب عن الصلاة مع رسول اللَّه ﷺ، فيحضر مرة ويتخلف مرة، حتى اقتصر على صلاة الجمعة،

ثم امتنع عن صلاة الجمعة، ثم امتنع بعد ذلك عن دفع الزكاة، مُدعياً أنها جزية، حتى نزل فيه قول اللَّه تعالى:

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

وعندما نزلت هذه الآية الكريمة انزعج ثعلبة وأسرع يحمل مال الزكاة إلى رسول اللَّه ﷺ فلم يقبله منه.. وفي عهد أبي بكر الصديق رضي اللَّه عنه أسرع يحمل الزكاة إلى أبي بكر، ولكن أبا بكر رفض أن يقبلها منه قائلاً: ما كنتُ أقبل ما رفضه رسول اللَّه ﷺ.. وعندما جاء عهد عمر بن الخطاب عرض ثعلبةُ الزكاةَ على عمر فرفض أن يقبلها منه.. ومات ثعلبة في عهد عمر بن الخطاب.

هذه قصة تُرينا كيف استغلَّ الشيطانُ حبَّ المال في قلب عبد من عباد اللَّه ليُخرجه عن الطاعة وعن المنهج، وليقوده إلى المعصية، وإلى الكفر والعياذ باللَّه، والأمثلة على ذلك كثيرة.. إنه يبحث عن نقاط ضعف في الإنسان لكي ينفذ إليه منها، ولا يفتر عن ذلك أبداً حتى يُوقعه في حبائله ويُخرجه عن منهج اللَّه.

البحث عن الضعف:

وهكذا تتعدَّد صور الإغواء، فإذا وجد إبليسُ العبدَ المؤمنَ مُتشدداً في الصلاة والزكاة.. وضعيفاً من ناحية المرأة مثلاً.. أتاه من ناحية هذا الضعف، فيظل يُزين له امرأة خليعة، ويُوسوس له حتى يسقطَ في الزنا، ويكون بذلك قد سقط في الكبائر.

فإذا كان العبد المؤمن قوياً في كل هذه النواحي جاءه إبليسُ وزيَّنَ له الخمر أو الميسر أو مجلس السوء أو النميمة.. المهم أن إبليس يترك الإنسان في نقاط قوته ويأتيه من نقطة ضعفه.

إياكم أن تظنوا أن الشيطان حين يُغوي الإنسان يأتي له عن طريق شر ينفر منه، بل إن إبليس يُلبس هذا الشر لباساً خادعاً، يجعله مُحبباً إلى النفس سهلاً عليه مرغوباً فيه.

فإذا كان إنسانٌ يعاني ضعفاً مالياً.. يأتي له ليُحببه في السرقة ويُزينها له، فهو أولاً يُوسوس لمنْ يريد أن يدفعه إلى السرقة.. بأنها عملية بسيطة.. ستتم بسهولة ولن تنكشف.. كأنْ يقولَ له: ادفع هذا الرجل الذي يملك مالاً إلى الأرض.. ثم تظاهرْ بأنك تساعده على النهوض والوقوف مرة أخرى.. وفي هذه الأثناء التي لا يكون فيها منتبهاً.. اسرق حافظة نقوده!

إنه هنا يبسط له الأمر، ويُلبس الشر بلباس خادع، يأتي مثلاً يُغري إنساناً بسرقة حقيبة.. فيُبين له مكانَ شيخ كبير يحمل حقيبة ثقيلة.. ويقول له: اعرض عليه أنْ تحملَ عنه لتعينه، لأنه شيخٌ ضعيف.. وعندما تأتي لتحمل الحقيبة يُوسوس لك: غافل صاحبها واهرب بها!

يأتي إلى إنسان.. ليغريه على أنْ يمدَّ يده لمال حرام، ويكون هذا الإنسان مثلاً يعمل صرافاً، فيُوسوس له أنه محتاجٌ للمال الذي في خزينته، وأنه سيأخذه كسلفة فقط، ويعيده عندما يتيسر حاله في القريب العاجل، ويمد الصرافُ يده إلى المال الحرام، ولكنه لا يستطيع أنْ يردَّه.

إن الشيطان ليس أبله.. بحيث يأتي لك بصورة الشر، على أنه شرٌّ.. ويذكرك لما ستتعرض له من العذاب في الدنيا والآخرة.. بل إنه يتسلل لك على أساس أنه خيرٌ لك.. والشيطانُ يجري في الإنسان مجرى الدم.

إن من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أنه كشف لنا أسلوبه، حتى نستطيع أن نقيَ أنفسنا منه، والشيطان لا يتركك أبداً ما دُمْتَ على طاعة، بل يحاول أن ينفذَ إليك من ناحية بعد أخرى حتى يوقع بك.. إلا إذا استعذتَ باللَّه دائماً واستعنتَ به.. فإنه لا يستطيع أنْ ينفذ إليك، ولا يكون له عليك سلطانٌ.

الوسوسة في الصلاة:

لقد حذَّرنا اللَّه سبحانه وتعالى من طريق يستخدمه الشيطانُ دائماً في الإيقاع بخلق اللَّه في المعصية.. فقال تبارك وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

وهكذا فإن كلَّ مَنْ أخذ طريق: الخمر، أو القمار، أو التقرُّب للأصنام

أو محاولة ضرب الأحجار، أو قراءة الورق. أو: أي نوع من أنواع الدجل لمعرفة الغيب فإنه يرتكب عملاً من الأعمال التي يُزينها الشيطان للإنسان، ليصرفه عن عبادة اللَّه ويُوقعه في الحرام.

اللَّه سبحانه وتعالى حذَّرنا من ذلك، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾.. [المائدة: ٩٢].

هذا التحذير ليُعلمنا اللَّه أن الشيطانَ لن يدعنا ندخل في مجال طاعة اللَّه وطاعة الرسول، وسيحاول جاهداً أن يمنعنا من ذلك، فإذا أوصدنا كلَّ السبل يأتي لحظة الوضوء فيجعلنا ننسى هل غسلنا أيدينا أم لا؟ وهل توضأنا كما ينبغي أم لا؟ ثم يأتي وقت الصلاة.. فيُنسينا عدد الركعات.. أو عدد السجدات.

وهذا ليس علامة سيئة، ولكنها علامةٌ لصالحنا، فالشيطان لا يقترب من الشيء الخرب أبداً.. فلو كانت صلاتُنا غيرَ مقبولة ما اقترب منها.. ولكن اقترابه منها معناه أنها مقبولة وأنه يريد أنْ يُفسدها، ولذلك ما كاد الإنسان يبدأ الصلاة حتى يُذكِّره بأشياء نسيها.. ويُوسوس له محاولاً أنْ يُفسدَ صلاته.

ومن وسوسة الشيطان أيضاً.. أنه يُغرينا بمعصية رسول اللَّه ﷺ ويقول لنا: هذا الأمر لم يردْ في القرآن فلا تطيعوه.. مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾.. [النور: ٥٤].

وفوَّضَ اللَّه تبارك وتعالى رسوله ﷺ في التشريع، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾.. [الحشر: ٧].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «يُوشك الرجل متكئاً على أريكته يُحدَّث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب اللَّه عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألَا وإنَّ ما حرَّم رسول اللَّه مثل ما حرم اللَّه». [أخرجه البيهقي في مسنده ٩ / ٥٥٧، والحاكم في المستدرك ١ / ١٠٩].

ووسائل الشيطان في الإغواء متنوعة: فمنها النزغ، ومنها الهمز، ومنها الوسوسة، ومنها المس. فكلمة نزغ معناها نخس، وهي تختلف عن اللمس، لأن بين الناخس والمنخوس مسافة. أما اللمس فهو مباشر بلا مسافة ولكن لا

تُدرك ولا تُحس بحرارة من مس.. أما المس فإنه إدراكُ حرارة الملموس.

إذن: فهناك ثلاث مراحل: النزغ.. والمَسّ.. واللمس.

والنزغ من الشيطان هو أن يُدخلَ خاطراً مُهيِّجاً إلى نفسك، فيثير فيها الغضب، ويجعلك تتصرَّف تصرفاً أحمق، لا يتفق مع العقل ولا مع الدين.

لهذا عندما خاطب رسول اللَّه ﷺ ربه قال: كيف يا ربّ أتقي الغضب؟ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ونحن لا نبحث هذه المسألة بالنسبة لرسول اللَّه ﷺ، وإذا كان بعض الناس يتساءلون: هل الشيطان يستطيع أن ينزغَ رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام؟!

نقول لهم: إن الآية لم تقل (إذا).. إنما قالت (إما)، وإما معناها أنه يجوز أن يحدث ذلك، ويجوز ألَّا يحدث. إذن: فالمسألة فرْضٌ فيه شك وعدم تأكيد لشيء لن يحدثَ لرسول اللَّه ﷺ.

ولكن لنفرض أنه حدث.. فلماذا يُحرم رسول اللَّه ﷺ من لذة مواجهة الشيطان ليصفعه ويهزمه؟ رسول اللَّه ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينٌ من الجن، قالوا: وإيّاك يا رسول اللَّه؟! فقال: وإياي.. إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير». [أخرجه مسلم ٧٢١٠]

والشيطان ظهر لرسول اللَّه ﷺ وهو ذاهبٌ إلى المسجد.. ويقول الرسول ﷺ: «إن عفريتاً من الجن تفلَّتَ عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني اللَّهُ منه فذعته (خنقته) فأردتُ أنْ أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قوْلَ أخي سليمان: ربِّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي فردَّه اللَّه خاسئاً». [أخرجه البخاري ٤٦١، ومسلم ١١٤٦]

إذن: فالمواجهة حدثت وكانت هزيمةُ الشيطان سريعةً. واللَّه سبحانه طلب من رسول اللَّه ﷺ أنْ يستعيذَ به والاستعاذة هي طلب المعونة، وأنت لا تطلب المعونة إلا ممَّنْ هو أقوى منك وأقوى ممَّنْ يحاول الاعتداء عليك.

تفوق عنصر الشيطان:

الشيطان له خصوصيات كثيرة يتفوق فيها على الإنسان.. منها: خفَّة الحركة.. وعدم قدرتنا على رؤيته.. وقدرته على التغلغل في نفوسنا. إذن: فالمطلوب منا أن نستعينَ بمَنْ هو قويٌّ قادرٌ، ولا يوجد أقوى على الشيطان من خالقه.. واللَّه سميع عليم يسمع استعاذتنا، ويعلم ممَّا نستعيذ.

ويجب أن نلاحظَ أن اللَّه عزَّ وجل قد فرَّق في الحديث بين رسول اللَّه ﷺ وبين أمته، فعندما خاطب رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام قال:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

ولكن عندما خاطب أمة رسول اللَّه ﷺ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

إذن: فعندما تكلم الحقُّ عن المؤمنين.. انتقل إلى المس، ولكن من رحمته أنه لم ينتقل إلى مرحلة اللمس (الالتحام)، فالشيطان لا يلتحم بإنسان مؤمن، وإنما يكون على مسافة قريبة منه.. ماذا يحدث في هذه الحالة؟ يتذكَّر المؤمنون قدرة اللَّه عز وجل على الشيطان، ويتذكرون أن منهجَ اللَّه يحميهم من الشيطان، وعينُ اللَّه لا تغفل عن عباده أبداً.

لذلك يقول الحق سبحانه في حديث قدسي ما معناه: «يا عبادي.. إنْ كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم، وإذا كنتم تعتقدون أني أراكم فلمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم».

فالشيطان أكثر حركةً وإغواءً بالنسبة للمؤمنين، لأن العاصي عاون الشيطانَ بشهوات نفسه، وأصبح يعبد شهواته، فلم يَعُدْ الشيطان محتاجاً إلى جهد كبير، ليقوده إلى المعصية. أما المؤمن الطائع فإنه محتاج إلى جهد كبير ليقع في المعصية.

قلنا: إن الشيطان له نزغ، وهَمْز، ووسوسة، ومس. وتحدثنا عن النزغ وهو كما قلنا أنْ يأتيك الشيطانُ بخاطر يثير فيك الغضب فتفقد عقلك وترتكب ما يغضب اللَّه في نزوة الغضب.

أما الهَمْز فهو ما يلقيه إليك الشيطانُ بصوت خافت محاولاً أن يدبر لك

ما تفعله لتنفذ معصية، أما الوسوسة فهي المحاولة الدائمة للشيطان.. يأتي لك من الجانب الضعيف.. محاولاً أنْ يُحبب إلى نفسك الخروج عن طاعة اللَّه، وهذا هو العمل الدائم للشيطان.. هذه مهمته.

ولكن ما هو المَسّ؟ اللَّه تبارك وتعالى يقول عن الذين يأكلون الربا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.. [البقرة: ٢٧٥].

فكأن الشيطانَ قد مسّ التكوين الإنساني مما أفسد استقامة مَلَكاته.. التكوين الإنساني له استقامة من الملكات، بحيث تتسق كلُّ حركة مع غيرها، فإذا ما مسَّ الشيطانُ أحداً من البشر فإن هذا الإنسان المَمْسوس يفقد انسجام حركات جوارحه فتتخبط مَلكاته مع بعضها البعض، وتكون حركاته غير منتظمة وغير منطقية.

وإذا أردنا هذا الوصف في الآخرة فهي سمةٌ تميز أهل الربا، وإذا أردناها في الدنيا فهي سمةٌ لحركة الإنسان غير المنطقية، بحيث إن الحركة تتسم بالهستيريا.

وعندما نتأمل العالم الآن وما يحدث فيه، نجد أن الاضطراب والحركات الهستيرية تسوده، كأن يدخل إنسان إلى مدرسة أطفال لا يعرفها وليس له عداء لمَنْ فيها ويقتل كل الأطفال بلا سبب!!

أو أن يأتيَ إنسانٌ إلى إنسان لا يعرفه، ويلقي به تحت عجلات المترو كما يحدث في نيويورك هذه الأيام!!

التكامل وليس التكرار:

واللَّه سبحانه وتعالى خلق العالمَ على هيئة التكامل وليس التكرار، ولذلك تنوعت المَلَكات والإمكانيات، وارتقى الإنسان في الكون وتقدم، وكان المنطق يقتضي أن يعيش العالمُ مستريحاً وهادئاً، لأن الحضارة وفَّرتْ له أكبر الثمر بأقل مجهود وفي أقل زمن.

ولكن هل العالم الذي نعيش فيه عالمٌ منطقيٌّ على هذا الواقع؟ لا. إننا نجد أننا أغنى بلاد العالم وأحسنها من ناحية الرقي الاقتصادي هي التي تمتلئ

بأمراض النفس من قلق وغمٍّ واكتئاب وحزن واضطراب وشذوذ وانتحار.

ذلك أن العالم الذي نشكو منه الآن لا يسير بمنهج اللَّه، ولكن يسير بهوى النفس وإغواء الشيطان، ولذلك أصيب العالم بالهيستيريا والتناقض والتخبط.

إن العالم وما يجري فيه يبدو الآن.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾.. [البقرة: ٢٧٥].

فلماذا لم يبحث المفكرون عن سرِّ هذا الشقاء؟ ألم يَكُنْ على المفكرين أن يسألوا أنفسهم.. لماذا نَشْقى كل هذا الشقاء؟ وعندنا من التقدم المادي ما يكفل سعادة البشر.. لماذا لم يبحثوا؟ وكان يجب أن يفعلوا ذلك.

وإذا كانت البلوى عامة كما قلنا فإنها لا تترك دولاً متخلفة ولا دولاً متقدمة، إن البلوى تشمل البلاد كلها، ولذلك لا بدَّ أن يكون لها سبب مشترك، والبحث لا بدَّ أن يقودنا إلى أن العالم ابتعد عن منهج اللَّه، فأصبحت الدنيا عندنا غاية وليست وسيلة، والمال أصبح عندنا هدفاً، وليس مجردَ مسألة لازمة لحركة الحياة وعمارة الأرض، فالمال هو مال اللَّه لا يملكه أحد، وعندما نموت نترك مال الدنيا للدنيا.. فلماذا غيروا استخدامه؟ وجعلوه غاية؟! والجواب في كلمة واحدة: إنه البُعْد عن منهج اللَّه.

إن الدنيا كلها لا يمكن أن تكون غايةً:

أولاً: لأنها فترة محدودة وتنتهي.

وثانياً: لأن متاعها قليلٌ.

وثالثاً: لأن البقاء فيها ليس مضموناً.. فأنت لا تضمن الحياة فيها إلى الساعة القادمة.

وإذا أردنا أن نُحددَ مهمة الشيطان في كلمات قليلة، فإن أساس هذه المهمة أن يجعلنا ننسى أن اللَّه موجودٌ، وأنه يسمع ويرى، فالإنسان لا يسرق أو يزني أو يقتل وقد استحضر في ذهنه أن اللَّهَ يراه، وأنه سيعاقبه على ما يفعل.. إنه لو استحضر ساعةَ الجريمة العقوبةَ عليها لَمَا أقدم على جريمته.

ولكن الشيطان مهمته أن يجعلنا ننسى أن اللَّه موجود، فالذي يرتكب

معصية في الخفاء يعتقد أنه ما دام اختفى عن أعين الناس، فإن أحداً لم يَرَه وينسى أن اللَّه يسمع ويرى ولا تَخْفى عليه خافية.

وفي الختام نقول: إن منهج الشيطان هو أن يكتشف نقاط ضعف الإنسان لينفذ منها.. وأنه يصوّر لنا المعصية في صور مُحبَّبة إلى النفس، فيغلفها بصورة زائفة للخير.. وأن شغله الشاغل هو مع الطائعين للَّه لا يتركهم أبداً.. وأنه ينزغ الإنسان بما يثير في نفسه الغضب.. ويهمس له بما يُيسِّر له الشر.. ويُوسوس له بما يُزيِّن له المعصية.. ويجعلها مُحبَّبة إلى نفسه.. فإذا تمكَّن من الإنسان مَسَّه فأفقده انسجام حركاته، فتصبح تصرفاته نوعاً من الهيستيريا والتخبط.

والشيطان له طرق إغواء متعددة، واللَّه سبحانه وتعالى يُعين المؤمنين من عباده على مقاومته ومخالفته، ويترك له عباده الكافرين ليزيدهم ضلالاً ومعصيةً.. واللَّه جلَّ جلاله لا يُعين كافراً ولا يهديه.

الشيطان وجنوده:

وإذا أردنا أن نكمل الصورة فإننا نقول: إن هناك جنوداً للشيطان.. جنوداً مادية من الإنس والجن.. وجنوداً معنوية يستخدمها في إضلاله للناس.

ولكن قبل أن نبدأ الحديث، وحتى تكون الصورةُ واضحةً فإنه لا الشيطان ولا جنوده يخرجون عن أمر اللَّه الفعلي في كونه.. واللَّه سبحانه وتعالى أعطانا تجربة عملية، بأنْ أخضع الشياطين الذين هم أعلى عنصراً في الخلق لبشر نبي هو سليمان عليه السلام وجعلهم يأتمرون بأمره ولا يستطيعون مخالفته.

واقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

وهكذا أخضع اللَّهُ سبحانه وتعالى الجنَّ ـ شياطينهم وصالحهم ـ لبشر مخلوق من طين، هو سليمان عليه السلام، ولو أراد الحق سبحانه أنْ يُخضعَ

لنا شياطينَ لأخضعهم لنا، لأن اللَّه جلَّ جلاله استجاب لدعوة سليمان حين دعاه يطلب منه مُلْكاً لا يعطيه اللَّه لأحد من بعده.

واقرأ في القرآن الكريم:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥ ـ ٣٨].

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين أراد أنْ يُخضعَ الشياطين للإنسان أخضعهم رغم إرادتهم قهراً، فلا يعتقد أحدٌ أن الشياطينَ في الأرض تقوم بما تقوم به رغماً عن إرادة اللَّه في كونه، بل كما قلنا هي من تمام مهمة الدنيا أن يكون فيها إغواء.. وفيها جهاد وإيمان.. وأن ينتصرَ المؤمنون بجهادهم وإيمانهم على إغواء الشيطان فيستحقوا الجنة.

إن الشيطان كما قلنا له جنود مادية وجنود معنوية.. ومن أكبر جنود الشيطان المعنوية الغرور، فهو يظل يحوم حول الإنسان حتى يدخل إلى قلبه الغرور المعنوي والمادي، ويحاول أنْ يجعله يغترُّ بماله أو بعلمه أو بقوته أو بأيِّ شيء آخر.. المهم أن يغترَّ الإنسان ويحسب أنه استغنى عن اللَّه تبارك وتعالى، وينسب الفضل إلى نفسه، فيقع في المعصية والكفر.

الشيطان في غزوة بدر:

ولننظر ماذا فعل الشيطانُ في غزوة بدر مع الكفار ليُحرّضهم على قتال المؤمنين.. إن القرآن الكريم يروي لنا هذه القصة، فيقول:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

هكذا كان دور الشيطان في غزوة بدر.. بدأ بزرع الكِبْر في قلوب الكفار وقال لهم: ستغلبون وتنتصرون على المسلمين.. إنكم الأقوياء في العتاد والعدة.. وإنهم قلة بالنسبة لأعدادكم.. إنكم ستغلبونهم حتماً.. وأنا معكم سأنصركم.

وظلَّ يُدخل الكبرَ في نفوس الكفار، ويُزيِّن لهم أنهم أقوياء، وأنهم منتصرون لا محالةَ، حتى صدَّقوه وذهبوا ليحاربوا رسول اللَّه ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين.

وعندما وصل الكفار إلى موقع المعركة، وأصبح القتالُ حتمياً، نظر الشيطان ورأى قوة الإيمان وبأس المؤمنين وتأييد اللَّه لهم.. فأسرع هارباً تاركاً أولياءه الذين وعدهم بأنه لا غالبَ لهم.. أسرع يهرب بعيداً.

وقال كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

هنا يتوقف بعض الناس ليقولوا: كيف يقول الشيطان إني أخاف اللَّه؟! وإذا كان يخاف اللَّه تبارك وتعالى فلماذا المعصية والإصرار على المعصية؟

وماذا يخيف الشيطانَ وهو مطرود من رحمة اللَّه.. ملعون رجيم خالد في النار هو وكلُّ مَنْ تبعه؟!

نقول: إن الشيطان يخاف العذاب الذي ينتظره في الآخرة.. وهذا الخوف يملؤه رغم كل ما يفعله في الدنيا.. إنه يتبرأ من كل معصية تمتْ على يديه، ويحاول أنْ يتنصلَ منها ويهرب من مسؤوليتها أمام اللَّه.

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وهكذا يحاول الشيطان أنْ يتنصَّلَ من مسؤولية إغواء الإنسان بالكفر والمعصية حتى يوم القيامة، عندما يقف أمام اللَّه، يلقي اللوم كله على الإنسان.. ويحاول أن يهرب من المسؤولية.

ويعطينا الحق سبحانه صورةً لهذا المشهد في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

إن الشيطان الذي زيَّنَ للناس كلَّ المعاصي والكفر، يأتي يوم القيامة

ويتبرأ مما فعل، ويحاول أنْ يُلقيَ اللوم كله على الإنسان.. ويقول: إنني لم أفعل شيئاً، إلا أنني دعوتُكم فاستجبتم لي، ولولا أنكم في أنفسكم تريدون الكفر والمعصية وتميلون إليهما، ما كنتُ قادراً على أن آخذكم إلى معصية اللَّه فلا تُلقُوا اللوم عليّ، ولكن ألقوه على أنفسكم، لأنكم استمعتم إلى إغوائي.. ولم يكن لي سلطانٌ أنْ أقهركم على المعصية وهذه حقيقة، لأن الشيطان لا يملك أن يقهر إنساناً على معصية اللَّه جلَّ جلاله.

لا عقاب على القهر:

إن من دلائل رحمة اللَّه بعباده أنه يُسقط عنهم كلَّ عمل يتم قهراً حتى يكون الحسابُ عدلاً.. فكلُّ ما يقهر الإنسان عليه ويفعله رغم إرادته لا يُحاسب عليه يوم القيامة.. مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.. [النحل: ١٠٦].

وهكذا.. فإن الذي يُكره على إعلان الكفر ـ وقلبه مؤمن ـ لا يُحاسب على ذلك، ولقد جعل اللَّه تبارك وتعالى منطقة الحساب ـ وهي ما يعتقده القلب ـ لا يمكن أن تخضع لأيِّ إكراه، فأنت تستطيع أنْ تُخضع الإنسان ليفعل ما تريد رغماً عنه، ولكنك لا تستطيع أن تُكرهَ قلبه أبداً على أن يحبك وهو يكرهك، ولا أن تُخضعَ القلبَ قهراً ليؤمن بما لا يريد أن يؤمن به.

اللَّه سبحانه وتعالى يخبرنا أن الشيطانَ ليس له سلطانٌ على الإنسان.. والسلطان إما أن يكون سلطان القهر، بحيث يجعل الإنسان يعمل شيئاً رغماً عنه بالقوة، وإما سلطان الحجة بحيث يقنع الإنسان بأنْ يفعلَ شيئاً بإرادته.. والشيطان في كلتا الحالتين لا يملك سلطانَ القهر ولا سلطانَ الحجة.. ولكنه ـ كما قلنا ـ ينفذ من جوانب الضعف في الإنسان.. فيُزيِّن له ما تهواه نفسه حتى يقعَ في المعصية.

والآية الكريمة تقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾.. [إبراهيم: ٢٢].

مصرخكم.. أي أسرع لنجدته ليزيل أسباب صراخه.. وفي هذه الحالة لا بدّ أن يكون من القوة بحيث يستطيع أن يزيل أسباب الصراخ.. فإذا هاجم

لصٌّ شخصاً وصرخ طالباً النجدة، فإنه لا يهبُّ لنجدته إلا إنسان قوي يستطيع أن يتغلبَ على المهاجم، ولكن إذا كان الذي سمع الصراخَ شيخٌ ضعيفٌ فإنه لا يستطيع أن يُصرخَهُ، أو يزيل سبب صراخه.

إن الشيطان يقول: أنا لا أملك القوة لأزيل سبب صراخكم من العذاب الذي أنا ذاهبٌ إليه معكم، ثم يتبرأ من الذين كفروا بسبب إغوائه، ويحاول أنْ يتنصَّلَ من المسؤولية، فيقول كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾.. [إبراهيم: ٢٢].

إذن: فأول جنود الشيطان هو الغرور، بأنْ يُصوّر للإنسان أنه يستطيع أنْ يُحقق بذاته ما يشاء ويجعله يعبد نفسه، أو يعبد عقله، أو يعبد الأسباب، أو يعتقد أنه أقدرُ من اللَّه سبحانه وتعالى على التشريع، فيترك منهج اللَّه وقوانينه ويشرّع لنفسه مما يسمونه القوانين الوضعية إلى آخر ما نراه.

ويجب أن نعلمَ أن الشيطانَ له جنودٌ ماديون، هم شياطين الإنس والجن، وأولئك هم الذين اتبعوه واتخذوا منهجه، يقاتلون من أجل الباطل، ويحاربون الحق، ويسخرون من المؤمنين.

وهؤلاء يقول عنهم اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

حزب الشيطان هؤلاء يحاولون نشر الإلحاد، ويقاومون كلَّ دعوة للحق، ويقفون أمام رسالات السماء، يصدون عنها الناس، وتصل المسألة إلى حدّ القتال.. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ۖ ﴾.. [النساء: ٧٦].

وهناك شياطين الجن وشياطين الإنس.. شياطين الإنس هم الذين يكون لهم الشيطان قريناً. أي: يكون مقترناً بالإنسان، وعندما يكون الشيطان قريناً وملازماً للإنسان.. يكون الإنسان قد وصل إلى قمة المعصية، لأنه ما دام الشيطانُ ملازماً لشخص ما، فهو لا يدفعه إلى الخير أبداً، بل يدفعه دائماً إلى الشر.. لأنه قرين سوء.

وهكذا دائماً قرناء السوء يساعد بعضهم بعضاً، ويُقوِّي بعضهم قلوبَ بعض على اقتراف الإثم.. تراهم وقد اجتمعوا على المعصية في كل ليلة يجتمعون في منزل أحدهم، ومعهم الخمر والنساء، ويرتكبون كل ما يغضب اللَّه، وتربط بينهم المعصيةُ في الحياة الدنيا برباط قوي متين.. ولكن في الآخرة يتبدَّل الحالُ، ويكونون أعداءً لبعضهم البعض.

على أن اللَّه سبحانه وتعالى شرح لنا ماذا يفعل الشيطان في قرينه، فقال كما يروي لنا القرآن الكريم:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٩].

هذا هو ما يفعله الشيطان مع قرنائه؛ إنه أولاً يضلهم.. أي: يُبعدهم عن منهج الحق، ويُفسد لهم هذا المنهج، وقد كانت الشياطينُ قبل نزول الآيات تسترقُ السمعَ في السماء على منهج اللَّه.. فإذا علمت شيئاً منهم أسرعوا إلى قرنائهم من الكهنة والسحرة وغيرهم، وأبلغوه بما سمعوا من المنهج مُحرَّفاً.. بعد أنْ يُضيفوا إليه ما يجعله وسيلةً للضلال، ويُخْفوا منه كل ما يهدي الإنسان.

ثم يضيف الكهنة بدورهم إلى المنهج ما يُحقق لهم السلطان في الدنيا، ويدَّعُون أنه من عند اللَّه، ليفسدوا به في الأرض، ويُضلوا به الناس.

وهكذا حُرّفتْ الكتبُ السماويةُ، وأضيف إليها ما لم يأمر به اللَّه، وما لم يُنزله، وحُذف وأُخْفيَ منها ما أمر به اللَّه، فأصبحتْ لا تفي بغرض الهداية، ولكن عندما نزل القرآن الكريم.. مُنعَتْ الشياطينُ من استراق السمع، وحفظ اللَّهُ القرآنَ الكريم من أيِّ تغيير أو تبديل.

هذا هو الإضلال:

أما قول الشيطان: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ فإن الشيطان يُزيِّن للإنسان المعاصي التي يتمنى أنْ يفعلها، ويُصوِّر له أنها ليستْ معصيةً، ولكنها خيرٌ.

أما مسألة الأنعام وتغيير خَلْق اللَّه.. فإن من تمام الخَلْق هو ما خلق اللَّه

سبحانه وتعالى، فكل خَلْق اللَّه له مهمة في الحياة، خُلق مُيسّراً أنْ يُؤديها، وتغيير هذا الخَلْق هو إفساد لهذه المهمة.

إن الذين كانوا يشقُّون آذان الأنعام على أساس أنها للأصنام وخُدَّامها خرجوا بخَلْق اللَّه عن مهمته، فالأنعام هي متاعٌ للإنسان يحمل عليها أثقاله ويأكل لحومها ويأخذ جلودها وأصوافها.. ولكنها لا تفيد الأصنام شيئاً.. فكأن الشيطان يريد أنْ يُخرجَ خَلْق اللَّه عما خُلقوا من أجله، ويستعين في ذلك بقرنائه.

وإذا نظرنا الآن إلى بعض التجارب التي تتم، كأنْ يأتوا بقدم كلب ويزرعوها في جسد ضفدعة، أو غير ذلك مما يتم.. نقول لهم: ماذا تستفيد الإنسانية من ضفدعة لها قدم كلب؟

الضفدعة لها مهمة في الدنيا خُلقت من أجلها، وخلقها بالطريقة التي خُلقت بها هو من تمام أداء مهمتها، ولكنك جئتَ لتفسد هذه المهمة دون أنْ تفعلَ شيئاً، وكذلك كل التجارب التي تتم فينتج عنها إنسان مشوّه.. نقول: أفسدتَ خلقَ اللَّه ولم تستفد شيئاً.. وكذلك بالنسبة لكل العبث الذي يتم للسيطرة على العقل البشري.. إنما يُفسد مهمته في الكون.

الحق سبحانه إظهاراً منه جلَّ جلاله لتفاهة ما يمكن أن يفعله الشيطان يخبرنا بأن الشيطانَ يستعمل سلاحَ الخوف ليستعبدَ الإنسان، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

كيف يسيطر الشيطان على الإنسان بالخوف؟ إذا تصدَّق الإنسان خوَّفه الشيطان من الفقر، وإذا أراد أن يقول كلمة حق خوَّفه الشيطانُ من بطش رؤسائه الظالمين، وإذا أراد أنْ يقومَ للصلاة خوّفه الشيطانُ من أنه سيضيع منه كذا وكذا من مصالح الدنيا.

وإذا قام ليجاهدَ في سبيل اللَّه خوَّفه الشيطانُ من قوة الكافرين، وأدخلَ في نفسه أنه سيُقتل عند بدء المعركة، وإذا أراد أنْ يسعى في خير خوّفه الشيطانُ من أن ذلك سيُضيع وقته ومصالحه، وإذا أراد أنْ ينهى عن منكر خوَّفه الشيطانُ من أن ذلك سيجلب عليه الأذى.

وهكذا كلُّ خير يخطر على النفس يُخوّف الشيطانُ الإنسانَ من أنه سيقع عليه ضررٌ في ماله أو نفسه أو أولاده أو وظيفته أو تجارته أو ما يهمه من أمور دنيوية.. وبهذا السلاح ـ سلاح الخوف ـ يلقي الشيطانُ الرعبَ في نفس الإنسان من ناحية الخير.

لا بدَّ لنا من وقفة مع الأنبياء والرسل.. والشيطان، فهناك حكم عام وخصوصية مع عدد من أنبياء اللَّه ورسله، فالحكم العام هو قول اللَّه سبحانه:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ * لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [الحج: ٥٢، ٥٣].

نقول: ما هي أمنية كل رسول؟ أمنية كل رسول هي أن ينشرَ منهجه، ويؤمن به الناس، وينجح في إصلاح حركة حياتهم، وجَذْبهم للإيمان، وتركهم الكفرَ. هذه هي أمنية الرسول، ولكن هل يترك الشيطانُ الناسَ يستمعون للرسل ويؤمنون برسالاتهم؟

لا.. إنه يقف لهم ليصدَّهم عن منهج اللَّه، ويبدأ بالمترفين الذين سيضرهم المنهج في نفوذهم الدنيوي، فيجعلهم دعاةً له، يقاومون الرسالات، ويضعون العراقيل، ويُعذِّبون مَنْ آمن حتى يكفر، ويتصدون للمؤمنين بالإيذاء.

ولكن.. هل يظل الباطل منتصراً؟

لا.. إن اللَّه تبارك وتعالى ينسخ ما يُلقي الشيطان وينصر رسوله، فتنجح الدعوةُ ويزدادَ عددُ المؤمنين. هذا هو معنى الآية الكريمة.. الرسول يتمنى أن ينجح في مهمته، ولكن الشيطانَ يحرِّض العاصين والكافرين ضده وتنتهي المعركة بانتصار الرسول على الشيطان.

على أنه ورد ذكر الشيطان بالنسبة للرسل في أكثر من آية:

* في قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

* وقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* وقول الحق جل جلاله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

* وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.. [الكهف: ٦٣].

* وقول موسى أيضاً: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

وهذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر.. ونقول: إن كَوْنَ الأنبياء معصومين لا يعني أنهم ممنوعون من جهاد النفس، بل لا بدّ أنْ يبقى لهم شيءٌ يجاهد كلٌّ منهم به نفسه، فالرسول نفس بشرية، فيها نوازع وشهوات يتغلب عليها بجهاد نفسه، وإذا لم يكُنْ لنفوس الأنبياء أمور ومواقف يجاهدونها لكانوا ملائكة.

لقد جعلهم اللَّه سبحانه وتعالى بشراً حتى يكونوا قدوةً للمؤمنين بهم في كفاح الشيطان، وكفاح النفس والتغلب عليهما، ولذلك سُمِّيَ بعضُ الأنبياء بأولي العزم. والعزم هنا معناه العزم في طاعة اللَّه ومحاربة الشيطان.

أما بالنسبة لموسى عليه السلام فعندما ضربَ الرجلَ وقتله لم يَكُنْ قد كُلِّفَ بالرسالة بَعْد، ولكن كان فيه الإيمانُ والتقوى، فتنبَّه في الحال إلى أن ما عمله هو من عمل الشيطان، واتجه إلى اللَّه سبحانه طالباً المغفرةَ والتوبةَ.

أما قول موسى عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾.. [الكهف: ٦٣]، فمعناه أن الشيطان حاول أنْ يُوسوس لموسى، فتنبَّه موسى عليه السلام وتخلَّص من وسوسة الشيطان.

أما بالنسبة ليوسف عليه السلام فإن قوْلَ الحق تبارك وتعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾.. [يوسف: ٤٢]، فهو يحمل معنيين:

ـ إما أن يكون الذي خرج من السجن أنساه الشيطانَ أن يذكر يوسف عند عزيز مصر، فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

ـ وإما أن يكون يوسف هو الذي نسي.

ولكن المعنى الأقوى هو أن الشيطانَ أنسى ذلك الذي نجا أن يذكر

يوسف عند عزيز مصر، ويطلب منه إخراجه من السجن، وبسبب ذلك بقي في السجن بضع سنين.

ويؤكد هذا أن يوسف قال للرجل: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: عند الملك الذي أنت ذاهب إليه، وقُلْ له: هناك مظلوم في السجن.. أحواله كذا وكذا، ومن هذا نفهم أن الآية لا تعني أن الشيطانَ أنسى يوسفَ ذكر اللَّه تبارك وتعالى.

أما قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فقد كان أيوب يشكو لربه أن الشيطانَ يُوسوس له، ويقول: كيف وأنت نبي تصيبك كل هذه الابتلاءات؟ كيف تمرض ويحدث لك ما حدث.. من فَقْد للأولاد، ومعصية من الزوجة وغير ذلك، ألم يَكُنْ من الواجب أن يكرمك اللَّه سبحانه وتعالى لأنك نبيٌّ ويمنع عنك كلَّ هذا؟

ولكن أيوب عليه السلام الذي أتعبه وأصابه كلامُ الشيطان بعذاب نفسي لم يلتفت إليه، وإنما اتجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى بالدعاء، يطلب منه أن يذهب عنه ما هو فيه، واستجاب اللَّه جلَّ جلاله لدعائه.

وهكذا نرى أن إبليس حاول أن يقتربَ من أنبياء اللَّه، كما شارك في تدبير خطة قتل رسول اللَّه ﷺ في يوم الهجرة، ولكن اللَّه جلَّ جلاله عصم الأنبياء والرسل منه، ونصرهم عليه.

على أننا لا بدَّ أن نتعرّضَ لحديث رسول اللَّه الذي يقول فيه: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم» [أخرجه مسلم ٥٧٢٩]، ذلك أن بعض المستشرقين يحاول التشكيك في هذا الحديث.

ونقول لهؤلاء المشككين الذين يحاولون أن يجدوا ثغرة ينفثون من خلالها سمومهم ـ وهيهات:

إن الدم فيه مُكوِّنات تجري فيه مثل: الحديد والفوسفات والكالسيوم، وغير ذلك من المُكوِّنات التي أظهرتْها لنا التحاليلُ الحديثةُ، بل إن الميكروبات والجراثيم ـ وهي جسم مادي ـ تخترق الجلد وتدخل إلى الدم، وتظل فيه فترة حضانتها حتى تتكاثر، وتقوم بينها وبين كرات الدم البيضاء معاركُ.

والشيطان ليس مخلوقاً من مادة الطين، بل هو مخلوق من مادة أكثر شفافية.. هي غاية في اللطف والدقة.. فكيف نستكثر أن يخترقَ الجلد ويجري في الدم كما تجري عشرات المواد الصلبة ونحن لا نُحسُّ بها؟؟!

نسأل اللَّه أنْ يعصمَنا من الزلل.. وألَّا يجعل للشيطان على قلوبنا من سبيل، إنه سميع مجيب.

إني والجن و الإنْس في نبأ عظيم

قال رب العزة سبحانه في الحديث القدسي:

(إنّي وَالجِنّ والإنْس فِي نَبَأ عَظِيمٍ: أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وَأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَايَ)[1]

العبودية للَّه عزٌّ وشرف، يأخذ بها العبد خير سيده، وكلمة العبودية مكروهة عند النفس؛ لأنها تعني الذل والهوان، كما نرى في عبودية البشر للبشر، وهو أن السيد يأخذ خير عبده، ولكن في عبوديتنا للَّه العبد يأخذ خير سيده.

ولذلك، فالصفة التي تميّز بها رسول اللَّه ﷺ فاستحق أن يُسْرى به، وأن يُعْرَجَ به إلى السماء أنه عبدٌ للَّه أخلص في العبودية، فنال مقام القرب من اللَّه.. قال تبارك وتعالى:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾.. [الإسراء: ١٧].

فهو في عبوديته للَّه، كان في أعلى درجات الإنعام من اللَّه سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله ﷺ، سواء كان رسولاً أو غيرَ رسول، ولن تحدث لبشر بعده.

فالعبودية عطاء علوي من اللَّه، فكان سيدنا محمد ﷺ عندما تناهَى في العبودية للَّه نال تناهِي الخير، فقد أخلص ﷺ العبودية للَّه، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته.

والحق سبحانه يوضح لكل عبد: نَمْ ملء جَفْنيك، فأنا لا تأخذني سِنَة[2]

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٦/ ٤٣٦٧٤)، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبيهقي في شعب الإيمان. ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/ ٤٠٥٢).

(٢) السنة: نعاس من غير نوم. والسنة: نعاس يبدأ في الرأس. [لسان العرب ـ مادة وسن]. يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. يقول ابن كثير =

ولا نوم، وأنا قيوم [١]، وإن احتجتَ مني إلى شيء ما فادْعُني، وسأمدُّ لك يد العون بما يناسبك. . فهل في هذه العبودية للَّه شيء غير العزة؟

فأنت كلما ذللتَ للحق سبحانه يُعزك، فعبوديتك للَّه تعطي خيرَ اللَّه لك، والشاعر يقول:

حَسْبُ نَفْسِي عِزَّاً بأنِّي عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَاعِيدَ رَبٌّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الأَعَزِّ وَلَكِنْ ... أَنَا أَلْقَى مَتَى وَأَيْنَ أُحِبُّ

فأنت أيها العبد المؤمن تَلْقى اللَّه متى أردتَ، وإذا أسلمتَ زمامك للإيمان، فالزمام في يديك. يكفي أنْ تنوي الصلاة وتقول: اللَّه أكبر فتكون في حضرته سبحانه، سواء كنتَ في البيت، أو في الشارع، أو في أي مكان، وفي هذا منتهى العزة لك.

فما بالك لو حاولتَ لقاء عظيم من عظماء الدنيا؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعَنَت؟ وكم دونه من الحُجَّاب والحراس؟ ثم بعد ذلك ليس لك أنْ تختار، لا الزمان ولا المكان، ولا الموضوع ولا غيره.

أما عبوديتك للَّه فيكفيك عزاً وكرامةً أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك فالأمر في يدك، فما عليك إلا أنْ تتوضأ وتنوي المقابلة قائلاً: اللَّه أكبر. فتكون في معية اللَّه عز وجل في لقاء، تحدد أنت مكانه وموعده ومُدَّته، وتختار أنت موضوع المقابلة، وتظل في حضرة ربك إلى أن تُنْهِي المقابلة متى أردتَ.

فالعزة في العبودية للَّه، والعزة في السجود له تعالى، فعبوديتك للَّه تعصمك من العبودية لغيره، وسجودك له تعالى يعصمك من السجود لغيره، ألا ترى قول الشاعر:

وَالسُّجُودُ الذي تَجْتَوِيهِ ... مِنْ أُلُوفِ السُّجُودِ فِيهِ نَجَاةٌ

= في تفسيره (١/٣٠٨): «أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية».

(١) قال الزجاج: القيوم والقيّام في صفة اللَّه تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه في إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم. وقال قتادة: القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وعلمه بأرزاقهم. [لسان العرب ـ مادة: قوم].

إذن: فكَبِّر اللَّه تكبيراً وعظِّمه والتجىء إليه، فمن التجأ إلى اللَّه تعالى كان في معيته وأفاض عليه الحقُّ من صفاته وعَصَمه من كيد الآخرين وقَهْرهم.

فعبودية رسول اللَّه ﷺ لربه كانت حيثية الرفعة في الإسراء والمعراج، فالعبودية رفعته إلى حضرته تعالى؛ لأنه كان عبداً بحق، وهذا يعني إنزال الكتاب عليه، فكان عبداً بحق قبل أنْ يُسْرَى به، وحمل منهج اللَّه أولاً، فالتفت لربه لفتة أراد أنْ يلفت بها سواه، فأخلص هو أولاً في العبودية للَّه سبحانه وتعالى، فكان عبداً بحق فاستحق شرف الاتصاف بأنه ﷺ عبد للَّه تَحمَّل ما تحمل، فكان من جزائه أنْ يرتفع إلى مقام الحضرة، فعُرج به[1].

وهناك أعطاه اللَّه الصلاة لينزل بها إلى الخَلْق ليرفع بها صوته إلى المقام الذي سعى إليه بالمعراج. إذن: فالنبي تناول ليناول، وتناول لأنه أخلص العبودية فصعد إلى حضرة ربه، وأخذ فريضة الصلاة وبلَّغها لقومه وكأنه يقول لهم: مَنْ أراد أنْ يلتقي باللَّه، فليدخل في الصلاة. فالعبودية للَّه سيادة والعبودية للبشر ذِلَّة ومهانة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فالمسيح عليه السلام لا يجد غَضَاضة في أن يكون عبداً للَّه، ولا يستكبر على ذلك بل هو يَشْرُف به، والملائكة المقربون أيضاً يَشْرُفون بهذا الأمر.

والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم، وليس لهم عمل إلا التسبيح للَّه؛ لأنهم عرفوا العبودية للَّه، وهي عبودية ليستْ لمن يستذل، لكنها لمن يُعزّ، وليست عبودية للذي يأخذ، ولكنها للذي يعطي.

والذي يستنكف من هذا لا يعرف قيمة العبودية للَّه؛ لذلك لا يستنكف

---

(١) عرج في الدرجة والسلم يعرج عروجاً، أي: ارتقى، وعرج الشيء: ارتفع وعلا وصعد. والمعارج: المصاعد. وقيل: معارج الملائكة، وهي مصاعدها التي تصعد فيها وتعرج فيها. [اللسان ـ مادة: عرج].

المسيح أنْ يكون عبداً للَّه، ولا الملائكة المقرّبون. أما عن عيسى عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧].

فقد عرض عيسى عليه السلام من خلال قوله لربه تعالى المنهج الذي جاء به على الناس جميعاً وبلَّغه تمام البلاغ، فقد أبلغ أنه عبد للَّه وأنه رسوله، فعيسى عليه السلام مُنزّه عن أنْ يشرك باللَّه أو يشرك نفسه في الألوهية والمسيح نفسه كان دائماً مع اللَّه خاشعاً عابداً، بل إن أول كلمة نطق بها المسيح عيسى ابن مريم وهو في المهد، أنه عبد للَّه، فقال:

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

فاستهلاله كلامه بعبوديته للَّه دليل على أنه قد يقال فيه: إنه ليس عبداً، وأنه إله أو شريك للَّه، فأول كلمة نطق بها أنه عبد للَّه؛ ولذلك تجد أن أهل الكتاب يقولون عنه إنه تكلم في المهد، فإذا سألتهم: ماذا قال حين تكلم؟ تجدهم يسكتون ولا ينطقون بما قاله أبداً؛ لأن كلامه ينفي معتقدهم.

إن صبياً يتكلم في المهد هو معجزة بكل المقاييس، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى في المهد (إني عبد اللَّه)، وكان لا بُدَّ أن تكون الكلمة مدروسة بعناية، وألا تُنسى، وحَفِظ جنود اللَّه سبحانه وتعالى الكلمة التي تؤكد بشرية عيسى عليه السلام.

وعندما نقول هذا الكلام، فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد، ولكننا فقط نريد أن يتضح منطق الإيمان في عقول المسلمين، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا، ولا يجرؤ أحد أن يميل به.

والحق سبحانه يفتتح سورة هود، فيقول تعالى:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

إذن: فقد أُحكِمَتْ آيات الكتاب، وفُصِّلت لغاية هي: ألا نعبد إلا اللَّه.

والعبادة هي طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى، وهكذا نجد أن العبادة تقتضي وجودَ معبود، له أمر وله نَهْي، والمعبود الذي لا أمرَ له ولا نهي لا يستحق العبادة، فهل مَنْ عبد الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً؟ وهل مَنْ عبد الشمس تلقّى منها أمراً أو نهياً؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير اللَّه هي عبادة باطلة؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمرَ لها ولا نَهْي، وفوق ذلك لا جزاءَ عندها على العمل الموافق لها، أو المخالف لها.

والعبادة بدون منهج «افعل» و «لا تفعل» لا وجودَ لها، وعبادة لا جزاء عليها ليستْ عبادة، وما دامت العبادة هي طاعة الأمر وطاعة النهي، فهي إذن تشمل كل ما ورد فيه أمر، وكل ما ورد فيه نهي، وإن نظرتَ إلى الأوامر والنواهي لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة: من قمة الشهادة بأن لا إله إلا اللَّه، إلى إماطة الأذى عن الطريق [(١)].

وكلُّ حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه، أو زيادة الصالح ليكون أصلح، فهي عبادة، فأنت إذا نظرتَ إلى العبادة تجد أنها تتطلب كل حركة في الحياة، فلا تَقُلْ: «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط؛ لأن كل حركة تصلح في الحياة هي عبادة.

إنْ أردتَ ألَّا تعمل في الحياة فلا تنتفع بحركة عامل في الحياة، وإذا لم تنتفع بحركة أيِّ عامل في الحياة فلن تقدر أنْ تصلي ولن تكون لك قوة لتصلي

(١) عن أبي هريرة (قال: قال رسول اللَّه): «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون ـ شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا اللَّه، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه مسلم في صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان، وكذا أخرجه البخاري في صحيحه (٩) دون: أفضلها، وأدناها. وإماطة الأذى عن الطريق: تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم، والأذى قد يكون أحجاراً، أو أي شيء قد يؤذي الناس ويعوق سيرهم في الطريق.

إذن: فالعبادة هي كل حركة تتطلبها الحياة في ضوء «افعل» و «لا تفعل»، فالعبادة معناها التزام بأمر فيُفعل، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعي الألوهية، وليس معه منهج نقول له: كيف نعبدك؟ وما المنهج الذي جئْتَ به؟ وبماذا تأمرنا؟ وعن أيّ شيء تنهانا؟

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

فالرب هو المتولّي الإيجاد والتربية، ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه؛ لأنه هو الربُّ والخالق، وهو الذي يرزق؛ بدليل أننا حين نسأل أهل الكفر في غفلة شهواتهم: مَنْ خلق السماوات والأرض؟ تنطق فطرتهم فيقولون: اللَّه الذي خلق السماوات والأرض.

وهذا أمر قد سجله الحق سبحانه في قرآنه، فقال:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

هذه المسألة حين يديرها الكافر في عقله لا يجد أحداً ادعى أو يستطيع أنْ يدَّعي أنه خلق السماوات والأرض فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو اللَّه لماذا؟

لأن الإنسان في تكوينه قد يدَّعي أشياء ليستْ له، ولكنه لا ينفي أمراً هو صاحبه، فمخترع أيَّ شيء أو صانعه، لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع، بل يحب أنْ تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع، ولهذا فأنت لا تجد شيئاً يُنتفع به في الكون ـ مهما كان تافهاً ـ إلا وعرفنا تاريخه، ومن أين جاء، ومَن الذي اخترعه، أو اكتشفه، أو صنعه.

ومثال هذا ما درسناه في المدارس عن الذي اكتشف الكهرباء، والذي صنع المصباح الكهربائي، ومَن الذي طوّره، وكذلك اختراع الطائرة، ومعروف لنا كيف نشأتْ فكرة الطيران بعباس بن فرناس [١]، الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة، وهكذا كانت البداية.

---

(١) عباس بن فرناس أبو القاسم مخترع أندلسي، من أهل قرطبة، كان في عصر الخليفة عبد =

إذن: فكلُّ شيء نافع للإنسان في هذا الكون معروف للناس مَن الذي اكتشفه، أو صنعه، أو اخترعه، فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة، فما بالك بالنسبة للكون؟

حين نسأل: مَنِ الذي أوجد الشمس؟ أَلَا يستحق خالقها أنْ نعرف مَنْ هو خصوصاً ونحن نعرف مَنِ الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياتنا؟

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي ينير حجرة محدودة لوقت، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع، أفلا يستحق الأمر أنْ نعرف مَن الذي أوجد الشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية في نفس اللحظة؟

هذه الشمس التي تشرق منذ ملايين السنين ولم تنطفئ مرة واحدة، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذا العمر الطويل، لا بد أن يكون لها صانع تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذي نراه: سواء في الضوء، أو في خصائص هذا الضوء، أو في دِقَّة الصنع، فهي لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور، ولا بُدَّ أنْ صانعها له قوة تتناسب مع عظمة هذا الخَلْق.

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن اللَّه هو الذي خلق الشمس، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّم جميعاً بأن اللَّه هو الخالق والمُوجِد، وإما أنه غير صادق، فنقول: لماذا لم يخرج إذن أحدٌ يدَّعي أنه هو الذي خلقها.

فقضية الخَلْق محسومة للَّه سبحانه ولا يوجد هناك منازع، فعندما يأتي رسول اللَّه ليقول: إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحق سبحانه وتعالى، ولم يَأْت أحد ويدّعي أنه قد خلق شيئاً من هذا.

وهذا يؤكد صحة دعوى الرسول، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو

= الرحمن الثاني بن الحكم (في القرن التاسع الميلادي) وكان فيلسوفاً شاعراً له علم بالفلك، واتّهِم في عقيدته، وهو أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وصنع «الميقاتة» لمعرفة الأوقات، ومثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها وأراد تطيير جسمه فكسا نفسه بالريش ومدَّ له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذى في ظهره لأنه لم يعمل له ذَنَباً «ذيلا». [توفي عام ٢٧٤ هـ]. (الأعلام ٣/ ٢٦٤).

قوة بلا حدود وقدرة بلا قيود، وهو الأحقُّ بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة.

ويبرز لنا الحق سبحانه أحقيته تعالى للعبادة وحده دون شريك في تعديده نِعَمَه على عباده، وذلك في سورة النمل، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

فهذا الكون قد أُعِدَّ لك أيها الإنسان، أَمَا كان يصح أنْ تفكر فيمن أعدَّ لك هذا الكون، وخلق لك كل ما ليس في متناول قدرتك، وسخر كلَّ ذلك لك؟

وقد أبلغك الحق: أنا خلقتُ السماء، وخلقتُ الأرض والشمس والنجوم، وحين وصلك هذا البلاغ، فإما أنْ يكون صِدْقاً فلتنفذ ما أمر به الخالق، وإن لم يكُنْ هذا الكلام صِدْقاً، فَمنِ الذي خلق إذن؟

إنْ كان هناك إله غيره سبحانه قد خلق الكون وسمع مثل هذا البلاغ، ولم يهتم لبيان صِدْق المسألة، لَمَا كان هذا الآخر يستحق أنْ يكون إلهاً، وما دام لم يظهر مُعارِض له سبحانه فهو الخالق، لأن الدعوى إذا ما صدرتْ من واحد ولم يظهر لها مُعارض فصاحبها هو مَنْ أصدرها إلى أنْ يُوجَد له معارض.

فإذا كان اللَّه هو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء، فيه حياتكم، فأنبتَ به الحدائق والزروع والثمار، فهل هو المستحق للعبادة، أم ما تشركون به من أصنام وأوثان ومخلوقات؟

ويقول الحق: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [النمل: ٦٢].

---

(١) أي: أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يُكثّرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل.

فالواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسُّه الضراء أنْ يتجه إلى خالقه، ولقد جعل اللَّه الضراء وسيلةَ تنبيه يتذكَّر بها الإنسان أن له رباً، وفي هذه اللحظة يجيب الحقُّ الإنسانَ المضطرَّ، ويُغيثه.

وإذا صنع اللَّه مع المضطرِّ هذا، فقد يثُوب إلى رُشْده، ويقول: إن الإله الذي لم أَجِدْ لي مَفْزعاً إلا هو، لا يصحّ أنْ أنساه، والمضطر هو الذي استنفد الأسباب المخلوقة للَّه، وما دام استنفد الأسباب ولم تنفع، فعليه أنْ يذهب لمسبِّب الأسباب. والإنسان لا يغشُّ نفسه، فلا يذهب لصنم، أو لأيِّ أحد إلا اللَّه؛ لأنه يعلم أنه وحده القادر على مساعدته وإنقاذه.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

والعقل يستنكر أنْ نعبد أحداً غير اللَّه، فغيره لا يملك أنْ يصنع الضرَّ للخصوم، ولا النفعَ لنفسه، أو لأشياعه وأنصاره، بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوا بعيسى عليه السلام، وما مَلَك عيسى عليه السلام أو الحواريون أنْ يضرُّوهم، ولا استطاعوا أنْ يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم.

يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ويقول تبارك وتعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

ويقول سبحانه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

والكفار لا ينكرون أن اللَّه خلقهم، وخلق السماوات والأرض، وخلق كل شيء، فعند قضية الخلق لا يستطيع أحد أنْ يتكلم، فلا يستطيع أحد أنْ يدَّعي أنه خلق نفسه، أو خلق شيئاً في الكون، أو أن أحداً غير اللَّه هو الذي خلق، فاللَّه تعالى بدأ الخَلْق، أي: خلقنا من عدم، وما دام خلقنا من عدم، وكتب علينا أنْ نموت، فقد أخبرنا بالغيب أنه سيبعثنا مرة أخرى.

الكفار كذَّبوا هذه القضية، قضية البعث بعد الموت، وما دام الحق

سبحانه قادراً أنْ يخلق من عدم، والكل يشهد بذلك، فالذي خلق من لا شيء وعنده أنقاض أو بقايا شيء، فإرجاع هذا الشيء أَهْون من خَلْقه من العدم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم: ٢٧].

وعملية (أهون) هذه لا تناسب مقام الألوهية؛ لأن الأمور عند اللَّه ليس فيها أهون وأصعب، ولكن هذا تقريب للمعنى في عُرْف البشر، فهو سبحانه خلقكم من لا شيء، وأصبحتم بشراً، وصار لكم مخلفات موجودة في الكون.

فحين يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى من هذه البقايا أسهل من أن يخلقكم من عدم، كما حدث في النشأة الأولى، وهذا بِعُرْفكم أنتم، فإذا كان اللَّه لم يُعْجزه أنْ يخلقكم من عدم، فحين يعيدكم من مواد موجودة، هل يصعب عليه ذلك؟

وبعد كل نعمة أنعمها اللَّه يكون استفهامه: (ءإله مع اللَّه) (ءإله مع اللَّه)؛ وحين يكرر الحق هذا الاستفهام، فمعناه أنك لن تستطيع أنْ تجيب بأنَّ هناك إلهاً مع اللَّه فهذه القضية محسومة، وهي القضية العقدية الأولى.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

فهو إله واحد، نصدر جميعاً عن أمره؛ لأن الأمر الهام في هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند، لا أنْ تتعاند، ولا يرتقي بنيان ما إذا كنتَ أنت تبني يوماً ليأتي غيرك، فيهدم ما بنيتَ.

لذلك قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فالإله واحد؛ لأنه إنْ كان هناك آلهة متعددة كما يقولون، فيكون هناك مثلاً إله للشمس، وإله للسماء، وإله للأرض، وإله للماء، وإله للهواء، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزاً عن أنْ يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه، ولَنَشأ بينهم خلاف وشقاق.

يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات فمن مصلحة الإنسان أن يكون عبداً لإله واحد، حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس، أو لإله الهواء، أو لإله الماء.

فربنا يريد أنْ يُريحنا من الوهم والاضطراب والتردد، إنه إله واحد، وعندما يحكم اللَّه حكماً فلا أحدَ يناقضه، وسبحانه يهدينا بما يُشرِّعه لنا، وما دام الحق سبحانه هو الذي يملك السماوات والأرض، ولم يدّع أحد من خَلْقه أنه يملكها، وفي السماوات والأرض وما بينهما حياتنا ومُقوِّمات وجودنا، فهو سبحانه أَوْلَى وأحقّ أنْ يُعبد.

فادعاء الإنسان شريكاً مع اللَّه هو ظُلْم لنفسه، فأنت حين تعتقد أن للَّه شركاء، فتعبد وتطيع معه غيره تكون قد أتعبتَ نفسك تعب الأغبياء، واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا عبد مملوك لجماعة، والجماعة مختلفة ومتشاكسة، وهو لا يعرف كيف يُوفِّق بين أوامر كل منهم التي تتضارب، فإن أَرْضَى هذا أغضب ذاك.

إذن: فهو عبد مُبدَّد الطاقة، مُوزَّع الجهد، مُقسَّم الالتفاتات. أما العبد المملوك لواحد، فلا يتلقَّى أمراً إلا من سيد واحد، ونَهْياً من السيد نفسه.

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبي السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

فلو كان تفرُّق هذه الآلهة تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم، ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ اختصاصات، فهذا يعني أن لكل منهم نقاطَ قوة ونقاطَ ضعف، وتفرُّقهم هذا دليل نقص؛ ولذلك رحمنا الحق سبحانه ـ نحن المؤمنين به ـ بأن أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً.

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غيرَ خاضع إلا لوجهة واحدة، ولا أوامرَ من جهة أخرى أبداً، إذن: فقد أرحْتَ نفسك.

* إياك نعبد:

وقد جعل الحق سبحانه هذه القضية برُمّتها في آية نُردِّدها في كل ركعة من ركعات صلاتنا، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١].

فالحق سبحانه حين قال: ﴿إِيَّاكَ﴾ قصر العبادة على ذاته الكريمة؛ لأنه لو قال: نعبدك وحدك، فهي لا تؤدي المعنى نفسه؛ لأنك قد تقول: نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا، ولكن إذا قلتَ: «إياك نعبد» وقدَّمْتَ إياك، تكون قد حسمْتَ الأمر بأن العبادة للَّه وحده فلا يجوز العطف عليها.

فالعبادة خضوع للَّه سبحانه بمنهج «افعل: و: لا تفعل»، لذلك جعل الصلاة أساس العبادة، والسجود هو منتهى الخضوع للَّه؛ لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك، وتضعه على الأرض عند موضع القدم، فيكون هذا هو منتهى الخضوع للَّه، ويتم هذا أمام الناس جميعاً في الصلاة، لإعلان خضوعك للَّه أمام البشر جميعاً.

ويستوي في العبودية الغنيُّ والفقير، والكبير والصغير، حتى يطرد كلٌّ منا الكِبْر والاستعلاء من قلبه أمام الناس جميعاً، فيساوي الحقُّ ـ جلَّ جلاله ـ بين عباده في الخضوع له، وفي إعلان هذا الخضوع.

وهكذا، فإننا عندما نقول: «الحمد للَّه» فإننا نستحضر موجبات الحمد، وهي نِعَم اللَّه ظاهرةً وباطنةً. وحين نقول: «ربَّ العالمين» نستحضر نِعمَ الربوبية في خَلْقه وإخضاع كونه.

وحين نستحضر: «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، وفتح باب التوبة.

وحين نستحضر: «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب، وكيف أن اللَّه تبارك وتعالى سيجازينا على أعمالنا، فإذا استحضرنا هذا كله نقول: «إياك نعبد». أي: أننا نعبد اللَّه وحده. إذن: عرفنا المطلوب منا، وهو العبادة.

* الغاية من خلق الجن والإنس:

والحق سبحانه خلقنا في الحياة لنعبده مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فعلّة الخلق هي العبادة، ولقد تَمَّ الخَلْق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً، ولكن «العلة والمعلول» لا ينطبقان على أفعال اللَّه سبحانه وتعالى، نقول: ليس هناك عِلَّة تعود على اللَّه ـ عز وجل ـ بالفائدة؛ لأن اللَّه تبارك وتعالى غنيٌّ عن العالمين.

ولكن العِلَّة تعود على الخَلْق بالفائدة، فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ خلقنا لنعبده، ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئاً في مُلْكه، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير في الدنيا والآخرة.

ولكن، هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح، أم أنها منهج يشمل الحياة كلها، في بيتك، وفي عملك، وفي السعي في الأرض؟ ولو أراد اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ من عباده الصلاة والتسبيح فقط لَمَا خلقهم مختارين، بل خلقهم مقهورين لعبادته، ككُلِّ ما خلق عدا الإنس والجن.

* عباد أم عبيد؟

واللَّه تبارك وتعالى له صفة القهر، من هنا فإنه سبحانه يستطيع أنْ يجعل مَنْ يشاء مقهوراً على عبادته، مصداقاً لقوله جل جلاله: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو أراد اللَّه أنْ يُخضِعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أنْ يشذَّ عن طاعته، وقد أعطانا اللَّه الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه، فالجسد مقهور للَّه في أشياء كثيرة. القلب ينبض ويتوقف بأمر اللَّه دون إرادة منا، والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندري عنها شيئاً، والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادةَ لنا فيها.

أشياء كثيرة في الجسد البشري، كلها مقهورة للَّه سبحانه وتعالى، وليس لإرادتنا دَخْل في عملها، وما يقع عليّ في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه، لا أستطيع أنْ أمنع حدوثه، فلا أستطيع أنْ أمنع سيارة أنْ تصدمني، ولا

طائرة أن تحترق بي، ولا كل ما يقع عليّ من أقدار اللَّه في الدنيا.

إذن: فمنطقة الاختيار في حياتي مُحدّدة، لا أستطيع أنْ أتحكَّم في يوم مولدي، ولا فيمن هو أبي، ومَنْ هي أمي، ولا في شكلي، طويل أم قصير؟ جميل أم قبيح، أو غير ذلك.

إذن: فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أنْ أفعل، أو لا أفعل، اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ له من كل خَلْقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية؛ ولذلك خلقنا، ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه، في أنْ نطيعه أو نعصيه، في أنْ نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنتَ تحب اللَّه فأنت تأتيه عن اختيار، تتنازل عما يُغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه، وليس قهراً، فإذا تخلّيتَ عن اختيارك إلى مراداة اللَّه في منهجه، تكون قد حققْتَ عبادة المحبوبية للَّه تبارك وتعالى، وتكون قد أصبحتَ من عباد اللَّه، وليس من عبيد اللَّه.

فكُلُّنا عبيد للَّه سبحانه، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، أما العباد فهم الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد اللَّه في التكليف؛ ولذلك فإن الحقَّ جَلَّ جلاله يُفرِّق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٥].

وهكذا نرى أن اللَّه سبحانه أعطى أوصاف المؤمنين وسمَّاهم عباداً، ولكن عندما يتحدَّث عن البشر جميعاً يقول: عبيد. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[آل عمران: ١٨٢].

ولكن قد يقول قائل: إن اللَّه تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

الحديث هنا عن العاصين والضالين ولكن اللَّه سبحانه قال عنهم (عباد).

نقول: إن هذا في الآخرة، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة اللَّه الواحد المعبود تبارك وتعالى؛ لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار، ونصبح جميعاً عباداً للَّه مقهورين على طاعته، لا اختيار لنا في شيء.

* عباد الرحمن.. والشيطان:

إن الشيطان لا يدخل مع اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ في معركة، وإنما يدخل مع خَلْق اللَّه الذين ينسُون اللَّه ويبتعدون عنه، يقول تبارك و تعالى عن إبليس أنه قال:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

أي: أنه أقسم بجلال اللَّه وعِزّته، ومعنى عِزّة اللَّه أنه غنيٌّ عن خَلْقه جميعاً، لا يحتاج لأحد منهم، فهو اللَّه ـ بجلال وجمال صفاته ـ قبل أن يوجد أحد من خَلْقه قد خلق هذا الكون وأوجده، ولم يستعِن بأحد، ولو آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك في مُلكه شيئاً، ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من مُلْكه شيئاً.

وقَسَم إبليس بِعِزّة اللَّه إقرار منه بها، وقد أقسم بعزة اللَّه أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ ما دام لا يزيد مُلْكه ولا ينقص بإيمان خَلْقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار.

ولو أراد اللَّهُ الناسَ مؤمنين ما استطاع إبليس أنْ يقتربَ من أحد منهم، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان، وكُرْهه له أنْ يصرفه عن طريق الإيمان، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟

لا، ولذلك هناك استثناء: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

أي: أن إبليس لا يستطيع أنْ يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه، فالشيطان نفسه يُقِرُّ أن مَنْ يستخلصه اللَّه لنفسه من العباد، إنما يعجز هو كشيطان

عن غوايته، ولا يجرؤ على الاقتراب منه.

فما عليك إلَّا أنْ تكون من هؤلاء، ما عليك إلا أنْ ترتمي في حضن ربك عز وجل وتعتصم به، فهو سبحانه القويُّ القادر على أنْ يدفع عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك، فلا تقاومه بقوتك أنت، لأنه لا طاقةَ لك به ولا تدعْهُ ينفرد بك؛ لأنه إنِ انفرد بك وأبعدك عن اللَّه فسوف تكون له الغَلَبة.

ولذلك نقول دائماً: لا حَوْلَ ولا قوة إلا باللَّه. أي: لا حول [(١)]: لا تحوّل عن المعصية. ولا قوة. أي: على الطاعة إلا باللَّه.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

والسلطان إما سلطان حجة تقنعك بالفعل، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به. وإما سلطان قَهْر وغلبة يُجبرك على الفعل، ويحملك عليه قهراً دونَ اقتناع.

إذن: تنفيذ المطلوب له قوتان: قوة الحجة التي تضيء لك وتوضّح أمامك معالم الحق، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع، وإنْ لم تَرَها.

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيًّا من هاتين القوتين، لا قوة الحجة والإقناع ولا قوة القهر. والحق سبحانه يوضح أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً، ولجأ إليه واعتصم به، وما دُمْت آمنتَ باللَّه فأنت في معيته وحفظه ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق للَّه تعالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك.

إذن: الحصن الذي يقينا كيد الشيطان هو الإيمان باللَّه والتوكل عليه سبحانه، فعلى مَنْ إذن يتسلط الشيطان؟

يوضح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل، فيقول: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠].

---

(١) الحول: الحيلة والقوة أيضاً. قال ابن سيده هو: الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف. فكأن القائل إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله كأنه يقول: لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة اللَّه. [لسان العرب مادة: حول].

ومعنى يتولونه أي: يتخذونه ولياً يطيعون أمره، ويخضعون لوسوسته، ويتبعون خطواته، وهم بسببه أشركوا؛ لأنه أصبح له أوامر ونَواهٍ، وهم يطيعونه، وهذه هي العبادة بعينها، فكأنهم عبدوه من دون اللَّه بما قدّموه من طاعته في أمره ونَهْيه.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

والوليُّ للشيطان هو الذي يليه ويقرب منه، ومَنْ فعل ذلك فقد أورد نفسه موارد الهلاك، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل جانب، فلا انفلاتَ من مثل هذا الخسران.

والخسران يأتي من أن الشيطان يُقَدّم الوعود الكاذبة لأوليائه، ويخبرهم بأشياء تسرُّهم؛ لذلك يقول تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فالشيطان يُوسْوِس في صدر صاحب المال قائلاً: إنك عندما تتصدق ببعض المال، فمالك ينقص، ووَيْل لمن يرضخ لوساوس الشيطان، لأنه يُورده موارد التهلكة، والشيطان يقدم أيضاً الأماني الكاذبة في الوساوس (ويُمنيهم).

ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ باللَّه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

المتفاخر يقول: ما دام اللَّه قد أعطاني في الدنيا، وما دامتْ مهمة اللَّه هي العطاء الدائم فلا بُدَّ أنْ يعطيني ربي في الآخرة أضعافَ ما في الدنيا، ذلك أن سعيدَ الدنيا هو سعيدُ الآخرة، فماذا كان جزاؤه؟

لقد رأى انهيار زراعته، وعرف سوء مصير الغرور؛ لأنه استجاب لوعود

الشيطان، ووعود الشيطان ليستْ إلا غروراً: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

فما هو الغرور؟

هناك «غُرور» بضم الغين. و «غَرور» بفتح الغين. والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنه حقيقة، وهو في الواقع وَهْم. والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو مَنْ يفعل هذه العملية؛ ولذلك فـ «الغَرور» هو الشيطان؛ لأنه يُزيِّن للإنسان الأمر الوهمي، ويُزيِّن للناس بعض الأمور، ويحثّ الخَلْق ليطمعوا في حدوثها، وعندما تحدث يجدون أنه لا صوابَ فيها فهي مما زيَّنه الشيطان.

لذلك سمَّى اللَّهُ الشيطانَ «الغَرور» لأنه يُطمِعنا نحن البشر بأشياء لا تصحّ ولا تحدث، ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه، ويتهمهم بالبلاهة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة: لم يكُنْ لي سلطان عليكم، لا حجة عندي لأقنعكم بعمل المعاصي، ولا عندي قوة تُرغمكم على الفعل، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصي، ودعوتُكم فاستجبتم لي.

ويضيف الشيطان مخاطباً أتباعه: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده، إن كلمة «يصرخ» تعني أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبيةً لنداء أو استغاثة.

الشيطان إذن لن ينجد أحداً من عذاب اللَّه، ولن ينجد أحدٌ الشيطانَ من عذاب اللَّه، سيتبرأ كلٌّ منهم من الآخر، وهو بذلك يتملَّص من الذين اتبعوه.

وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ

﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

فحظُّ الشيطان منك أنْ يُوقِعك في المعصية، ثم يتبرأ منك.

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[1] [الأنفال: ٤٨].

فوسوسة الشيطان للكفار كانت في صورة تضخيم قوّتهم، وأن أحداً لن يغلبهم في قتالهم ببدر، وأنه ـ أي الشيطان ـ سيناصرهم في المعركة ويُجيرهم إن حدث لهم سوء، وقد أخذ الشيطان يُزيِّن لهم أعمالهم، ويَعِدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويُؤازرهم، ويعمل على نصرهم، حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض، وأصبحوا على مدى رؤية العين. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٨]. أي: أنه بمجرد الترائي بين المؤمنين والكفار وقبل أن يلتحموا في المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرَّأ من الكفار، وجرى بعيداً.

إذن: فالشيطان لا قدرةَ له ولا قوةَ على فِعْل شيء، وكلّ ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أنْ صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكَص على عقبيه، وأعلن خوفه من اللَّه؛ لأنه يعلم أن اللَّه شديد العقاب. ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

لذلك سُمِّي الشيطان أيضاً «الوسواس الخناس»[2] في قوله تعالى: ﴿مِن

(١) النكوص: الإحجام عن الشيء. ونكص عن الأمر: أحجم. ونكص على عقبيه: رجع عما كان عليه من الخير، ولا يقال ذلك إلا في الرجوع عن الخير خاصة. والنكوص: الرجوع إلى وراء وهو القهقرى. [لسان العرب مادة: نكص].

(٢) الوسواس الخناس: المتحين للفرص، فساعةَ ضعف النفس ينقضُّ، وساعة عزيمة النفس =

شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤، ٥]، فالوسواس الخنَّاس هو الذي يُزيِّن لك أفعال الشرِّ في أذنك، وهو خنَّاسٌ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك: «أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم».

لذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يقول لعباده أن يقولوا التي هي أحسن، حتى لا يقعوا تحت طائلة الشيطان، يقول تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

لكن، لماذا نقول: التي هي أحسن؟

لأن الشيطان ينزغ بينكم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والنزْغُ هو نَخْس الشيطان ووسوسته، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فإنْ كنتَ منتبهاً له، عارفاً بحِيَله فذكرتَ اللَّه عند نَخْسه ونَزْغه انصرف عنك، وذهب إلى غيرك.

لذلك يقول تعالى عن الشيطان: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤، ٥].

أي: الذي يخنس ويختفي إذا ذَكَرْتَ اللَّه، لكن إذا رأى منك ضعفاً وغفلة ومرّتْ عليك حِيَلُه، واستجبْتَ لوساوسه، فقد أصبحتَ فريسة سهلة بين أنيابه ومخالبه.

وعادةً تأتي خواطر الشيطان وكأنها مِجَسٌّ للمؤمن، واختبار لانتباهه، وحذره من هذا العدو، فينزغه الشيطان مرة بعد أخرى ليُجَرّبه ويختبره، فإذا كان النَّزْغُ هكذا، فأنت حين تجادل بالتي هي أحسن فإنك لا تعطي للشيطانِ فرصةً لأنْ يُؤجِّج العداوة الشخصية بينكما، فيُزيّن لك شَتْمه أو لَعْنه وهكذا يتحول الخلاف في المبدأ العام إلى عداوة ذاتية شخصية.

= ينفضّ، وهو الذي يوسوس في صدور الناس، فإذا ذكروا اللَّه خنس، يقول رسول اللَّه: «إن الشيطان واضع خِطْمَه (مقدم أنفه وفمه) على قلب ابن آدم، فإن ذكر اللَّه خنس، وإن نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس»، أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٢٦٨) من حديث أنس بن مالك.

ونلاحظ أنَّ نزْغَ الشيطان لا يقتصر على المتخاصمين والمتجادلين حول مبدأ ديني عقديٍّ، بل إنه ينزغ بين الإخوة والأهل والأحِبّة، ألم يَقُلْ يوسف عليه السلام:

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

لقد دخل الشيطان بين أولاد النبوة، وزرع الخلاف حتى بين الأسباط وفيهم رائحة النبوة، ولذلك لم يتصاعد فيهم الشر، وهذا دليل على خَيْريتهم وأنت تستطيع أنْ تميز بين الخَيّر والشرير، ، فتجد الخَيّر يهدد بلسانه بأعنف الأشياء، ثم يتضاءل إلى أهون الأشياء، على عكس الشرير، فتراه يهدد بأهون الأشياء، ثم يتصاعد إلى أعنف ما يكون.

انظر إلى قول أحد إخوة يوسف: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ [يوسف: ٩]، فقال الآخر، وكان أميل إلى الرفق به: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، فقد اقترح هذا الاقتراح وفي نيته النجاة لأخيه، بدليل قوله تعالى: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠]، وهكذا تضاءل الشر في نفوسهم.

ثم يقول سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣].

أي: أن عداوة الشيطان لكم قديمة منذ أبيكم آدم ـ عليه السلام ـ فهي عداوة مُسْبقة، قال عنها الحق سبحانه وتعالى مخاطباً آدم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

لذلك يجب على الأب كما يُعلِّم ابنه علوم الحياة ووسائلها أنْ يُعلِّمه قصة العداوة الأولى بين الشيطان وآدم عليه السلام ويُعلِّمه أن خواطر الخير من اللَّه، وخواطر الشر من الشيطان، فليكُنْ على حذر من خواطره ووساوسه.

وبذلك يُرَبِّي في ابنه مناعةً إيمانية، فيحذر كيد الشيطان ونَزْغه، ويعلم أن كل أمر يخالف أوامر الشرع فهو من الشيطان، وهذه التربية من الآباء تحتاج إلى إلحاح بها على الأبناء، حتى ترسخ في أذهانهم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن موقف المتقين ـ الذين هم «عباد الرحمن» ـ من وساوس الشيطان ونزغاته، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإذا ما تذكَّروا اللَّه، وما أعدَّه لأهل الإيمان، فهم يُبصرون الحقيقة الأولى التي ترتفع على كل شيء وهي الإيمان باللَّه، وهذا الإيمان إنما يتطلب تصفية القلوب من كل ما يُكدِّرها حتى تكون خالصة نقية.

اللَّه رحمن الدنيا والآخرة

عن رسول اللَّه أنه قال:

(إن اللَّه لما قضى الخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِه: إن رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)[1]

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

هاهم أُولاء عباد اللَّه، الذين يعرفون اللَّه، ويستحقون أنْ يُنسَبوا إليه، وأنْ يكونوا عباده، هاهم أولاء بصفاتهم المميزة ومُقوَّمات نفوسهم وسلوكهم وحياتهم.

هاهم أُولاء مُثُلاً حية واقعية والتي يريدها الإسلام، هؤلاء هم الذين يستحقون أنْ يَعْبأ بهم اللَّه في الأرض، ويُوجِّه إليهم عنايته، فالبشر كلهم أهْون على اللَّه من أنْ يَعْبأ بهم، لولا أن هؤلاء فيهم، ولولا أن هؤلاء يتوجهون إليه بالتضرع والدعاء.

فهؤلاء خُلَّص عباده المؤمنين، الذين استحقُّوا هذا الوصف بما لهم من فاضل الصفات وكامل الأخلاق، مما تَشْرئب إليها أعناق العاملين، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونَيْل النعيم كِفَاء ما اتصفوا من كريم الخِلال، وأتَوْا به من جليل الأعمال.

وهو سبحانه اختار اسم «الرحمن» ولم يَقُلْ «عباد الجبار» أو «عباد القهَّار»؛ لأن الرحمة صفة التحنين للخَلْق، فالحق سبحانه يُظهر هذه الصفة لعباده، حتى في أسماء الجبار والقهار؛ لأنها من خَدَم الرحمة، ومن أسبابها لأن العبد إذا عرف للَّه صفة الجبروت وصفة القهر وصفة الانتقام انتهى عن

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذلك مسلم في صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

أسباب الوقوع تحت طائلة هذه الصفات، فكأنه يرحم عباده، حتى بصفات القهر والانتقام.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنه إذا علم القاتل أنه سيُقتل انتهى عن القتل، فتشريع القصاص وإقامة الحدود والعقوبات لا لتعذيب الخلق، وإنما رحمة بهم حتى يقفوا بعيداً عن ارتكاب ما يُوجب القصاص أو الحد أو العقوبة، حتى الذي يقهره اللَّه مرحوم أيضاً؛ لأن اللَّه تعالى ما دام قال: أنا قهار فاحذرني، فهو بذلك يرحمه؛ لأنه يحذره من أسباب الوقوع فيما يستوجب غضبه وانتقامه.

وكذلك اختار اسم (الرحمن)؛ لأن مجال التكليف كله الرحمة، وما نزل المنهج من اللَّه إلا لينظم حياة الناس، ويحقق لهم السعادة في حركة الحياة، فيتكامل الخَلْق فيما بينهم، ويتعاونون ويتساندون لا يتعاندون، ويكونون جميعاً على قلب رجل واحد، هذه غاية المنهج الإلهي في دنيا الناس، أنْ يعيش المجتمع المسلم آمناً سالماً.

فرحمة اللَّه هي الغالبة في كل التشريع، وهي السمة العامة، أَلا ترى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، فالقرآن نفسه الذي نزل ليُنظم حياة الناس ويحكمها، ويُصلح حركة الحياة ويصنع سلاماً بينك وبين اللَّه، وبينك وبين نفسك، وبينك وبين الناس، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمة الإلهية.

بل إن رب العزة استخدم اسم «الرحمن» في مقام القهر والجبروت، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاختار سبحانه صفة الرحمة، ليوحي لنا أن استواءه سبحانه على العرش لا يعني القهر والجبروت، إنما استوى على عرشه رحمةً بكم؛ لينظم حياتكم ويرحم بعضكم ببعض، فتسعدوا بالحياة، فالاستواء هنا لا استواء قهر وغلبة بل في باطنه الرحمة كل الرحمة لمصلحة البشر.

فكل صفة من صفات جلاله سبحانه إنما هي مُحقِّقة لرحمانية اللَّه، لأنه يُخوِّف عباده بصفات الجلال حتى لا يقعوا في المخالفة، فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

والرحمة والرحمن والرحيم، مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه، ذلك المكان الذي يأتيه فيه الرزق بلا حول ولا قوة، ويجد فيه كل ما يحتاج إلى نموه مُيسَّراً، رزقاً من اللَّه سبحانه بلا تعب ولا مقابل.

لذلك قال ربُّ العزة سبحانه في الحديث القدسي: «أنا الرحمن، خلقتُ الرحم؛ وشققْتُ لها اسماً من اسمي، فمَنْ وصلها وصلتُه، ومَنْ قطعها قطعتهُ»[(١)].

فاللَّه سبحانه يريد أنْ نتذكر دائماً أنه يحنو علينا ويرزقنا، ويفتح لنا أبواب التوبة، باباً بعد آخر، ونعصي فلا يأخذنا بذنوبنا، ولا يحرمنا من نِعَمِه، ولا يهلكنا بما فعلنا.

بل إن قارىء القرآن يبدأ تلاوته بـ «بسم اللَّه الرحمن الرحيم»، مما يجعله مُسْتحضراً دائماً أن أبواب الرحمة مفتوحة له، فرفع يديه إلى السماء: يارب رحمتك، تجاوزْ عني ذنوبي وسيئاتي.

وبذلك يظل قارىء القرآن متصلاً بأبواب رحمة اللَّه، كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود إليه، فما دام اللَّه رحماناً رحيماً فلا تُغلق أبواب الرحمة.

فاللَّه رحمن الدنيا، رحيم الآخرة، فهو سبحانه رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم اللَّه تعالى برحمته، فرحمة اللَّه في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر، يعطيهم اللَّه مقومات حياتهم، ولا يؤاخذهم بذنوبهم، يرزق مَنْ آمن به، ومَنْ لم يؤمن به، ويعفو عن كثير.

فالذين تشملهم رحمة اللَّه في الدنيا هم كل خَلْقه، بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم.

أما في الآخرة، فاللَّه رحيم بالمؤمنين فقط، فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة اللَّه، فالذين تشملهم رحمة اللَّه في الآخرة أقلُّ عدداً من الذين تشملهم رحمة اللَّه في الدنيا.

وصفات اللَّه عز وجل لا تتأرجح بين القوة والضعف، فاللَّه راحم، وهو

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ١٩١ ـ ١٩٤) والترمذي في سننه (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح. وكذا أبو داود في سننه (١٦٩٤) كلهم عن ابن عوف.

رحمن، وهو رحيم، وهو سبحانه لا يتغير، ولا تتغير صفاته، بل تضعف متعلقات الصفات أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر في الدنيا؛ لذلك فرحمته واسعة، وهو رحيم في الآخرة؛ لأنه يرحم المؤمنين في الآخرة.

فاللَّه لا يتغير من أجلنا، ولكن نحن الذين نتغير، ويجب أنْ نتغير من أجل اللَّه تعالى، فلو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذي يعصيه، فهو ستَّار، يعصيه العاصي ويستره، وهو حليم لا يتغير.

ولا يصح أن تمنعك معصيتك للَّه، أن تستهلّ كل عمل تعمله باسمه سبحانه وتعالى، فقد جاء سبحانه بالحيثية لنا جميعاً، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيتْ لنا الدنيا.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

فلولا رحمة اللَّه التي سبقت عدله ما بقي للناس نعمةٌ، وما عاش أحد على ظهر الأرض، فالإنسان وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم، وينحرف عن اللَّه ويشرك، ويطغى بعضه على بعض، ويؤذي سواه من الخَلْق. واللَّه بعد هذا كله يحلم عليه، ويرأف به، ويمهله، وإن كان لا يهمله.

والحق سبحانه يُطَمئن خَلْقه قائلاً: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، فهو سبحانه كتبها على نفسه، وجعلها عهداً منه لعباده بمحض إرادته سبحانه ومطلق مشيئته.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ في الحديث القدسي الذي نحن بصدده: «إن اللَّه لما خلق الخَلْق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»[(١)].

ورحمة اللَّه تفيض على عباده جميعاً، وتَسَعُهم جميعاً، وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود أو لحظات الحياة للكائنات.

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٩٤)، وكذلك مسلم في صحيحه (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فهو سبحانه الرحيم الحليم ذو الفضل، وهو القائل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ويعفو سبحانه عن الكثير، وباب رحمته وفضله مفتوح، ويُفسِح التوبة لكل عاصٍ، وهو سبحانه يهدي إلى التوبة ويعفو، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين.

فعباده سيفرحون في الآخرة بفضل اللَّه ورحمته أكثر من فرحهم بعملهم الصالح، مصداقاً لحديث رسول اللَّه ﷺ: «سدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يُدخِل الجنةَ أحداً عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول اللَّه؟ قال: ولا أنا إلا أنْ يتغمدني اللَّه برحمته»(١).

والفضل من اللَّه هو مَنَاط فرح المؤمن؛ لأنك مهما قمتَ بأداء ما عليك من تكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة للَّه سبحانه؛ لذلك فلا يفرح أحد بما سيجمعه من حسنات، ولكن سيكون فرحه بما يعطيه ربُّه من فضله.

فالمسألة كلها بالفضل من اللَّه، وفَضْل اللَّه شرط تحقُّقه للعبد هو العمل الصالح، فالعبد من «عباد الرحمن» يعمل العمل الصالح، ويعطي اللَّهُ عليه من الثواب الأضعافَ المضاعفة، والعبد من «عباد الرحمن» يعلم أن عمله لن ينفع اللَّه في شيء، ولن يزيد في جلاله أو جماله أو كماله، أو يزيده صفة أو مُلْكاً، بل هو سبحانه يعطيهم ويزيدهم من فضله ورحمته.

ومن نِعَم اللَّه سبحانه على عباده أنه رحمن، وأنه رحيم، ولذلك نحمده على أنه الرحمن الرحيم، فكل النعم التي هي من عطاء الربوبية للَّه، هي في الدنيا لخلقه جميعاً، وهذه رحمة، فاللَّه ربُّ الجميع، مَنْ أطاعه، ومن عصاه، وهذه رحمة، واللَّه قابل للتوبة، وهذه رحمة، فهو سبحانه يمهل العاصي، ويفتح أبواب التوبة لكل مَنْ يلجأ إليه، وهذه رحمة.

وقد جعل اللَّه رحمته تسبق غضبه، وهذه رحمة تستوجب الشكر، ومن

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة. وتغمده اللَّه برحمته: أدخله فيها وغمره بها. قال أبو عبيد: أي يُلبسني ويتغشَّاني ويسترني. [لسان العرب مادة: غمد].

رحمته سبحانه أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فِعْله تظل ساعات وساعات تُعِدُّ كلمات الشكر والثناء، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى جلَّتْ قدرته وعظمته، نِعَمه لا تُعَدُّ ولا تُحصى، علَّمنا أنْ نشكره في كلمتين اثنتين هما: الحمد للَّه.

ومن موجبات الحمد أن اللَّه سبحانه وتعالى رحمن رحيم، يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاءَ ربوبية، وعطاء الربوبية للمؤمن والكافر، وعطاء الربوبية لا ينقطع إلا عندما يموت الإنسان، واللَّه لا يحجب نِعَمه عن عبيده في الدنيا، ونِعَم اللَّه لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

واقرأ الحديث القدسي لتعرف شيئاً عن رحمة اللَّه تعالى بعباده، يقول رب العزة سبحانه: «ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادي السماء تقول: يا رب، ائذن لي أن أسقط كِسَفاً [(١)] على ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك. وتقول البحار: يا ربِّ، ائذن لي أنْ أُغرِق ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك. وتقول الجبال: يا ربِّ، ائذن لي أنْ أُطبِق على ابن آدم، فقد طَعِم خيرك ومنع شُكْرك». فيقول اللَّه تعالى: «دَعُوهم، لو خلقتموهم لرحمتموهم، إنهم عبادي، فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[(٢)].

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم، وكيف ضمنت لنا بقاء كل ما يخدمنا في هذا الكون مع معصية الإنسان، إنها كلها تخدمنا بعطاء الربوبية، وتبقى في خدمتنا بتسخير اللَّه لها؛ لأنه رحمن رحيم.

---

(١) الكِسْف: القطعة مما قطعتَ، وكِسَف السحاب: قِطَعُه. وكسفت الثوب: قطعته. [لسان العرب مادة: كسف].

(٢) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤ / ٥٢) من قول بعض السلف، ولفظه: «ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً، فيقول اللَّه تعالى للأرض والسماء: كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

فالحقُّ سبحانه يُطمئن خَلْقه قائلاً: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، وهو قوْل ليُطمئن به الحقّ عباده، حتى لا يظنَّ الناس أن اللَّه يعاقبهم دون حساب؛ لأنه الحليم ذو الفضل، ويعفو سبحانه عن الكثير، وباب رحمته وفضله مفتوح، ويفسح التوبة لكل عاصٍ.

من فضل اللَّه أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون في بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سُيوفاً للإسلام، وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة، الذي لا ريبَ فيه ولا شكَّ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم، ويأتي الكافر على رغم أنفه، والمؤمن يتيقن رحمة اللَّه وفضله، ويفرح بلقاء ربه.

ولكن الحق سبحانه يُعلم هؤلاء الكافرين والمكذبين والعصاة أنه يحلم عليهم ويصبر عليهم، ولا يُعجِّل لهم العقوبة، رغم أنهم لنْ يُفلتوا منها إنْ هم أصرُّوا على كفرهم وعصيانهم، ولم يتوبوا.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

وكان مقتضى أنهم يُكذِّبونك فيما أخبرتَ به عن اللَّه، أنْ يُعجِّل اللَّه لهم بالعذاب، لكن الحق لم يُعجِّل لهم بالعذاب؛ لأنه ذو رحمة واسعة.

﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ . . .﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ولكن إياكم أنْ تطمعوا في الرحمة الدائمة، إنها رحمة تأجيل فقط، ولن يفوتكم عذابه، وهنا يُحنِّنهم أيضاً، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾.

وكأنه يقول لهم: راجعوا أنفسكم واسْتَحُوا من اللَّه، ولا يغرَّنكم أنّه ربٌّ خلق من عدم، وأمدَّ من عُدْم، وتولَّى التربية، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم.

لذلك يعظ الحق سبحانه وتعالى هؤلاء المفسدين المجرمين، فيقول:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولكن، مَنِ الذي يُحدِّد قُرْب الرحمة منه؟ إنه الإنسان، فإذا أحسن قَرُبَتْ منه الرحمة، والزمام في يد الإنسان، لأن اللَّه لا يفتئت ولا يستبد بأحد، فإنْ كنتَ تريد أنْ تقرُبَ منك رحمةُ اللَّه فعليك بالإحسان.

لذلك يقول رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ في الحديث القدسي الذي ترويه عائشة رضي اللَّه عنها: «لا أَمَلّ حتى تملُّوا»(١).

وأنت تدخل بيوت اللَّه تصلي في أيِّ وقت، وتقف في أيِّ مكان لتؤدي الصلاة إذن: فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت، وسبحانه حدَّد لك خمسة أوقات، أما بقية الأوقات فكلها في يدك، وتستطيع أنْ تقف بين يدي اللَّه سبحانه في أيِّ لحظة.

والحق سبحانه وتعالى يقول:

«أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خير منه، وإن اقترب إليَّ شبراً تقرّبتُ إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْوَلة»(٢).

وهو جَلَّ وعَلا يوضح لك: استرح أنت، وسآتي لك أنا، لأن الجري قد يتعبك، لكني لا يعتريني تعب ولا عِيٌّ ولا عجز، وكأن الحق لا يطلب من العبد إلا أنْ يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه. إذن: المسألة كلها في يدك، فرحمته سبحانه وقُرْبها منك في يدك أنت، وقد أعطاها لك، وعندما تُسلسلها تجدها تفضُّلاً من اللَّه، ولكن في يدك أنت.

ويعطينا الحق سبحانه في كتابه أمثلة على رحمة اللَّه، فيقول:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٧٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يصوم شهراً أكثر من شعبان، وكان يصوم شعبان كله، وكان يقول: خذوا من العمل ما تطيقون، فإن اللَّه لا يمل حتى تملوا، وأحبُّ الصلاة إلى النبي ﷺ ما دُووِم عليه وإن قلَّتْ، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها. وكذا مسلم في صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٥١)، والترمذي في سننه (٣٦٠٣) عن أبي هريرة. قال الترمذي: حسن صحيح.

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

ويقول في قصة زكريا عليه السلام: ﴿ كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1] [مريم: ١ ـ ٦].

والرحمة هي تجلّيات الراحم على المرحوم بما يُدِيم له صلاحه لمهمته. إذن: فكل راحم ولو من البشر، وكل مرحوم ولو من البشر، ماذا يصنع؟ يعطي غيره شيئاً من النصائح تُعينه على أداء مهمته على أكمل وجه، فما بالك إنْ كانت الرحمة من الخالق الذي خَلَق الخَلْق؟ وما بالك إذا كانت رحمة اللَّه لخير خَلْقه محمد؟

إنها رحمة عامة ورحمة شاملة؛ لأنه (أشرف الأنبياء وأكرمهم وخاتمهم) فلا وَحْيَ ولا رسالةَ من بعده ولا إكمال.

إذن: فهو أشرف الرسل الذين هم أشرف الخَلْق، ورحمة اللَّه تأخذ حظها من الحق سبحانه بمقدار مهمته، ومهمة محمد أكرم المهمات.

لذلك قال تعالى: ﴿ رَحْمَتِ رَبِّكَ ﴾ [مريم: ٢]، لأنها أعلى أنواع الرحمة، وإنْ كان هنا يذكر رحمته تعالى بعبده زكريا، فقد خاطب محمداً ﷺ بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فرحمة اللَّه تعالى بمحمد ليست رحمة خاصة به، بل هي رحمة عامة لجميع العالمين، وهذه منزلة كبيرة عالية.

فالمراد من ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢].

يعني: هذا الذي يُتلَى عليك الآن يا محمد هو ذِكْرُ وحديثُ وخبرُ رحمةِ

---

(١) الموالي: ورثة الرجل وبنو عمه. والمولى: العصبة. وهو على أوجه: ـ ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم. ـ الناصر. ـ الولي الذي يلي عليك أمرك. ـ مولى الموالاة، وهو الذي يسلم على يدك ويواليك. ـ مولى النعمة، وهو المعتِق أنعم على عبده بعتقه. ـ المعتق لأنه ينزل منزلة ابن العم، يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له. [لسان العرب مادة: ولي].

ربك، التي هي أجلُّ الرحمات بعبده زكريا، فهي رحمة تتعلق بطلاقة القدرة في الكون، وطلاقة القدرة في أن اللَّه تبارك وتعالى خلق للمسبِّبات أسباباً، ثم قال للأسباب: أنت لستِ فاعلة بذاتك، ولكن بإرادتي وقدرتي، فإذا أردتُك ألَّا تفعلي أبطلتُ عملك، وإذا كنتِ لا تنهضين بالخير وحدك فأنا أجعلك تنهضين به.

فقصة رحمة اللَّه لعبده زكريا تعطينا دليلاً على طلاقة القدرة في مسألة الخَلْق، وهي تتجلى هنا في أن اللَّه تعالى استجاب لدعاء زكريا في أنْ يرزقه الولد، ولكن كيف يتحقق له هذا المطلب، وقد بلغ من الكِبَر عِتِياً وامرأته عاقر؟

فكأن الأسباب الموجودة جميعها مُعطَّلة عنده؛ لذلك توجَّه إلى اللَّه بالدعاء: يا ربِّ، لا ملجأ لي إلا أنت، فأنت وحدك القادر على خَرْق الناموس والقانون، وهذا مطلب من زكريا جاء في غير وقته.

وقد دعا زكريا ربه أي: أنه خاطب ربوبية ربِّه، ورحمانية ربه التي تشمل جميع الخلق، فكأن زكريا قال: يا رب، يا مَنْ تعطي مَنْ آمن بك، وتعطي مَنْ كفر، يا مَنْ تعطي مَنْ أطاع، وتعطي مَنْ عصى، حاشاك أنْ تمنعَ عطاءك عَمَّنْ أطاعك، ويدعو الناس إلى طاعتك.

ثم يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

أي: لم أَكُنْ فيما مضى بسبب دعائي لك شقياً؛ لأنِّي مُسْتجاب الدعوة عندك، فكما أكرمتني سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك، بل كنتُ سعيداً بالإجابة، فلا تُخلِف عادتك معي هذه المرة، واجعلني سعيداً بأنْ تُجيبني، خاصة وأن طلبي منك طاعة لك، فأنا لا أريد أن أخرج من الدنيا إلا وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج، ويقوم بهذه المهمة من بعدي.

فكانت رحمة اللَّه عبده زكريا في استجابة دعائه: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه، فجاءتْ الإجابة مباشِرة دون مُقدّمات، والحق سبحانه لم

يرزقه الابن فقط، بل وسماه له أيضاً باسم لم يسبقه إليه أحد (يحيى).

فلا يقنط أحد من رحمة اللَّه، يقول تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

إنه سبحانه يخلق ما يشاء، ويجعل مَنْ يشاء عقيماً، إنْ قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر اللَّه، فاللَّه قد يَقَرّ عينه كما أقرَّ عيون الآخرين بالإناث أو الذكور، أو بالذكور والإناث معاً.

وأقسم لكم، لو أن إنساناً أو زوجيْن أخذا قَدَر اللَّه في العُقْم كما أخذاه في غيره من المواقف السابقة برضاً إلا رزقهم اللَّه، لا أقول ببنين وبنات يُرهقونهم في الحمل والتربية وغيرها، بل يرزقهم بأُناس يخدمونهم قد ربَّاهم غيرهم، والذي يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون في ضيق هو أنهم في حياتهم ساخطون على قدر اللَّه والعياذ باللَّه فيجعل اللَّه حياتهم سُخْطاً.

بل إن النبوة والرسالة هما رحمة من اللَّه، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1] [الزخرف: ٣١، ٣٢].

الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم، واللَّه يُنزِل الخير لمن يشاء، فالحقُّ سبحانه يعطي الرحمة لمَنْ يشاء؛ لكى يؤدي مهمته، أو يُنزِل رحمته على مَنْ يشاء، فليس لهؤلاء الكفار أنْ يتحكموا في مشيئة اللَّه، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا تعطيهم حقَّ التحكم في رحمة اللَّه.

فرحمة اللَّه تعالى خاصة به، لا يقسمها إلا بمشيئته، يقسمها كيف يشاء، كما قَسَم بينهم معيشتهم، وأعطاهم الرزق المادي، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم في الأدنى، فكيف يريدون هم أنْ يتصرَّفوا في الأعلى؟

---

(١) القريتان هنا: مكة والطائف. واختلف العلماء في تحديد الرجل العظيم المقصود فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٢٧): «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيّ البلدتين كان».

لذلك كان ردُّ الحق سبحانه عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذا دعوة لأنْ يتأدَّبوا مع اللَّه سبحانه، فهو لم يُوكّلهم في اختيار مَنْ يُنزِل عليه رحمته ورسالته، ولكنه سبحانه هو الذي يختار، وهو الذي قَسَم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه، أو مجد، أو غير ذلك، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم، ولكنه نعمة من اللَّه.

ويقول سبحانه عن لوط عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]، كيف؟ أَلَسْنَا جميعاً في رحمة اللَّه؟ قالوا: لأن هناك رحمة عامة لجميع الخَلْق، تشمل حتى الكافر، وهناك رحمة خاصة تُعدي الرحمة منه إلى الغير وهذه يعنُون بها النبوة.

فمعنى ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: في رَكْب النبوة، ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: للنبوة، واللَّه أعلم حيث يجعل رسالته، لكن قمة هذه الرحمة جاءت في النبي الخاتم والرسول الذي لا يُستدرك عليه برسول بعده؛ لذلك خاطبه ربه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم، أما محمد فرحمة لجميع العالمين، ومعنى العالمين: كل ما سوى اللَّه عز وجل: عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الجماد، وعالم الحيوان، وعالم النبات.

لكن كيف تكون رسالة محمد ﷺ رحمة لهم جميعاً؟ قالوا: نعم، رحمة للملائكة، فجبريل عليه السلام كان يخشى العاقبة حتى نزل على محمد قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، فاطمأن جبريل عليه السلام وأَمِن.

ورسول اللَّه رحمة للجماد؛ لأنه أمرنا بإماطة الأذى عن الطريق، وهو رحمة بالحيوان.

وفي الحديث: «ما من مسلم يزرع زَرعاً، أو يغرس غَرْساً، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠١٢)، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٥٣) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه عنه.

وحديث المرأة التي «دخلتْ النار في هِرَّة حبستها، فلا هي أطعمتها وسقتْها، ولا هي تركتْها تأكل من خشاش [١] الأرض»[٢].

وحديث الرجل الذي سقى كلباً كان يلهث يأكل الثَّرَى من شدة العطش، فنزل الرجلُ البئرَ وملأ خُفَّه فسقى الكلب، فشكر اللَّه له وغفر له؛ لأنه نزل البئر وليس معه إناء يملأ به الماء، فاحتال للأمر واجتهد ليسقي الكلب[٣].

وهكذا، نالت رحمةُ الإسلامِ الحيوانَ والطيرَ والإنسانَ، ففي الدين مبدأ ومنهج ينظم كل شيء، ولا يترك صغيرة ولا كبيرة في حياة الناس إلا ووضع لها منهجاً يصلح أمر البشر؛ لذلك فهو رحمة للعالمين.

فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. يعني: أن كل ما يجيء به الإسلام داخلٌ في عناصر الرحمة.

(١) الخِشاش، بالكسر: الحشرات. قال أبو عبيد: يعني من هوام الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها. [لسان العرب ـ مادة: خشش].

(٢) عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «دخلت امرأة النارَ في هِرّة، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣١٨)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) كتاب البر والصلة.

(٣) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفّه ثم أمسكه بِفِيهِ فسقى الكلب فشكر اللَّه له فغفر له. قالوا: يا رسول اللَّه وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر». أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩)، و أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٥).

العِزّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي اللَّه عنهما عن رسول اللَّه ﷺ قال:

(قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: العِزّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيءٍ مِنْهُمَا عَذّبْتُهُ)[1].

الحق سبحانه له مطلق الكبرياء والعز، فالعز إزاره، والكبرياء رداؤه، وليس لبشر أو مخلوق أن ينازعه هذا، وإلا أصبح مستحقاً لعذاب اللَّه؛ لأنه نازع اللَّه ما يتصف به سبحانه من صفات الجلال التي يتمجد اللَّه على خَلْقه.

وقد أدرك عباد اللَّه المتقون هذا، فسلَّموا للَّه العز والكبرياء له وحده، لا يشاركه فيه أحد، أولئك هم عباد اللَّه الذين ذكرهم اللَّه في سورة الفرقان واصفاً إياهم بقوله سبحانه:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهذه هي الصفة الأولى من صفات عباد اللَّه، فالمِشْيَةُ التي يمشيها الإنسان هي تعبير عن الشخصية، وعما يستكِنّ فيها من مشاعر، فالنفس السَّوية المطمئنة الجادة المقتصدة تظهر صفاتها هذه على مِشْية صاحبها، فيمشي مِشْية سَوِيَّة، فيها وقار وسكينة، وفيها جِدٌّ وعزيمة وقوة.

فعباد الرحمن يمشون على الأرض مِشْية سهلة هيِّنة، ليس فيها تكلُّف، ولا تصنُّع، وليس فيها خُيلاء ولا كِبْر، ولا إمالة خدٍّ عن عباد اللَّه، وليس فيها ترهُّل أو تماوت. فهم يمشون برفق ولِينٍ، وسكينة وتواضع ووقار، بعيداً عن الاختيال والتكبُّر والغطرسة.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد ـ حديث ٥٥٢) بهذا اللفظ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٣) بلفظ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني نازعته».

فالرحمن الذين هم عباده ينهى عن التكبُّر على الناس، فيقول:

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

وتَصْعير الخدِّ هو أنْ يلوي الإنسانُ عنقه عن الناس تكبُّراً واختيالاً، والمرح هو الفرح ببطر، فيفرح ظناً منه أن هذه ذاتية من عنده، وينسى مَنْ أنعم عليه بهذه النعم، فيأخذ نعمه ويعصيه بها، فاللَّه نهانا أنْ نفرح الفرحَ الذي يُنسينا ذكر اللَّه وشكره على نعمه، فالفرح في ذاته ليس ممنوعاً، ولكن فَرَح البطر هو المذموم المكروه.

لذلك يقول سبحانه:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۞ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٧، ٣٨].

والإنسان لا يمشي في الأرض مَرَحاً وخُيلاء إلا حينما يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عباده، فتأخذه الخيلاء بما يبلغه من: ثراء، أو سلطان، أو قوة، أو جمال، فلو تذكَّر أن ما به من نعمة فمن اللَّه، وأنه ضعيف أمام حَوْل اللَّه وقوته لَخفَّف من خُيلائه، ومشى على الأرض هَوْناً، لا تَيْهاً، ولا مرحاً.

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً للفرح، والخيلاء والتكبُّر على الناس والمرح المذموم في قصة قارون، إذ قال في حقه:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦].

فقد آتاه اللَّه من الأموال والكنوز الشيء الكثير، حتى أن مفاتيح خزائنه بلغ وزنُها حدَّاً أنْ كانت العُصْبة والجماعة من الرجال الأشداء يشقُّ عليهم حَمْلُها، (لتنوأ[1] بالعصبة أولي القوة) ولكنه تكبّرَ، ونسب هذا

(١) ناء الرجل بالحمل: نهض به متثاقلاً في جهد ومشقة. قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦] أي: تثقل عليهم وتجهدهم، وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون. [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠]

المال والغِنَى إلى نفسه ناسياً اللَّه عز وجل، فردَّ على نصيحة قومه، بقوله:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.. [القصص: ٧٨].

إنها قَوْلة المغرور المتكبِّر المطموس البصيرة الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويُعميه الثراء؛ لذلك خرج يستعرض أمام الناس زينته وأمواله وعبيده في صورة يتجلى فيها البَغْي والتطاول والإعراض عن النصح والتعالي عن العِظَة، والإصرار على الفساد، والاعتزاز بالمال.

يقول تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

فها هو قارون يخرج على قومه مُخْتالاً مُتكبِّراً مَزْهواً بنفسه وبزينته فتطير لها قلوبُ فريقٍ من قومه، ويتمنوْن لأنفسهم مثل ما أُوتِي قارون، وذلك لضعف نفوسهم، فوقفوا أمام فتنة الحياة الدنيا وقفةَ المأخوذ المبهور المتهافت المتهاوي.

فكانت عاقبة هذا المغرور المختال الفَرِح بنفسه الجاحد لنعمة اللَّه أنْ خسف اللَّهُ به وبداره الأرضَ، فابتلعتْه الأرض هو وكنوزه وأمواله وقصره.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

لذلك كان من أُولى صفات عباد اللَّه أنهم:

﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فأوَّل شيء يحقق توازن المجتمع أننا جميعاً عند اللَّه سواء، وكلُّنا عبيده، وليس مِنَّا مَنْ بينه وبين اللَّه قرابة أو نسب، فالجميع عند اللَّه كأسنان المشْط، لا فَرْقَ بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

إنْ تفاوتَتْ أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة، فتقول مثلاً: هذا غني وهذا فقير.

وأغلب الناس يهتمون بهذه الناحية من الاختلاف، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى، وهذا قصور في الفكر، بل يجب النظر إلى الجوانب

الأخرى في حياة الإنسان، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية.

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح أنْ يرفع أحدٌ رأسه في المجتمع على الآخرين تكبُّراً واختيالاً، ليعطي لنفسه قداسة أو منزلة فوق منزلة الآخرين؛ لذلك قال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.. [الإسراء: ٢٧].

أي: فخراً واختيالاً، أو بَطَراً وتعالياً؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به ويظن أنه أفضل من غيره، يجب أنْ يضمن لنفسه بقاء ما افتخر به، بمعنى أنْ يكون ذاتياً فيه، لا يذهب عنه ولا يفارقه، لكن من حكمة اللَّه سبحانه وتعالى أنْ جعل كلَّ ما يمكن أنْ يفتخر به الإنسان هِبةً له، وليست أصيلة فيه.

فكل أمور الإنسان، بدايةً من إيجاده من عدم هي هبة يمكن أنْ تُستردَّ في يوم من الأيام، ويجب أنْ يتفكَّر الإنسان في أنَّ حاله يتغير، فلا المالُ يبقى ولا الصحةُ أو القوة تدوم، فكيف الحال إذا تكبرْتَ بمالك، ثم رآك الناس فقيراً أو تعاليتَ بقوتك، ثم رآك الناس عليلاً.

إذن: فالتواضع والأدب أَلْيَق بك، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى، فكيف ينازع العبدُ الحقَّ سبحانه صفةً من صفاته؟ وقد نهانا الحق عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى.

ومَنْ أحب أنْ يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه، فلينظر إلى الصفوف المتراصَّة في الصلاة عندما يُنادَى بها، فترى الجميع سواسية: الغني والفقير، الرئيس والمرءوس.

الكلُّ راكع أو ساجد، الكلُّ خاضع للَّه، متذلل له، الكلُّ عبد للَّه بعد أنْ خلعوا أقدارهم عندما خلعوا نعالهم، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج.

فالرئيس أو الكبير لا يأنف، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرءوسه وهو حليق الرأس، ولا يستر بدنه إلا قطعتا ملابس، قد تغيّرَ وجهه، خاضعاً للَّه مُتذلّلاً له، مُتضرِّعاً للَّه؛ لأن الكلَّ يعلم أن الخضوع والتذلل للَّه هو عَيْن العزة والشرف والكرامة.

لذلك يوبِّخ رب العزة ذلك المتكبر المختال في مشيته، قائلاً له:

﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

فعلى أي شيء تمشي هكذا؟! فأنت بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرق الأرض، بل ستظل الأرض صُلْبة تتحداك رغم أنك مخلوق منها، وأنها تُداس بالأقدام، وكذلك مهما ارتفعتْ قامتُك وشمختْ أنفك، فلن تبلغَ ارتفاعَ وطول الجبال.

ونلاحظ أن اللَّه ذكر الأرض والجبال وكلاهما جمادات وهما أقلُّ منزلةً ومكانةً من الإنسان، فالجماد الذي هو أدنى الأجناس له مكانة ومنزلة، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سنَّ لنا رسول اللَّه تقبيله وهو حجر وعليه يتزاحم الناس ويتشرفون بتقبيله والتمسُّح به.

فالعبودية للَّه تعالى تسري في الكون كله؛ لذلك لا يحقُّ لك أيها الإنسان أنْ تسير بمرح أو خُيلاء أو تَعَالٍ.

تواضعْ أيها الإنسان، وتخلّق بما أمر اللَّه به، وكُنْ واحداً من عباد الرحمن هؤلاء، الذين هم أولياء اللَّه حقاً، الذين يمشون على الأرض هَوْناً، أي: بِوقَار ولِينٍ وسكون وطمأنينة، سِرْ دون افتعال عظمة، أو إعجاب بالنفس، أو تكبُّر واختيال، حينئذ ستشعر أنك تسير في انسجام مع الكون كله من حولك: بهوائه، وأرضه، وسمائه، وأشجاره، ومياهه، كلها تسير في عبودية للَّه عز وجل.

فبأيِّ شيء يختال الإنسان: بقوته، بصحته، بِغناه، بجماله، بأولاده، بسلطانه، بِسَطْوتهِ؟

كل هذا موهوب من اللَّه، وهبه اللَّه له؛ ليسير به في الناس بالحق والعدل والخير، فالمتكبِّر المختال إنسان مضروب على قلبه الحجاب، لأنه لم يلتفت إلى ربه، فهو يظن أنه أفضل من كل الناس، ولكنه لو استحضر كبرياء ربه وعظمته لاستحى أنْ يكون مُتكبراً.

وليس معنى ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، أنهم يمشون مُتماوتين

مُنكّسي الرؤوس، مُتداعي الأركان، متهاوي البنيان، كما يفهم بعض الناس ممَّنْ يريدون إظهار التقوى والصلاح.

فهذا رسول اللَّه ﷺ كان إذا مشى تكفّأ تكفّياً، وكان أسرعَ الناس مِشْية، وأحسنها وأسْكَنها.

قال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول اللَّه ﷺ، كأن الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحداً أسرعَ في مِشْيته من رسول اللَّه ﷺ، كأنما الأرض تُطْوى له، وإنَّا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مُكترث (١).

وقال زوج ابنته علي بن أبي طالب وابن عمه: كان رسول اللَّه ﷺ إذا مشى تكفّأ تكفّياً، كأنما ينحطُّ في صَبَب (٢).

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

والقصد هو: الإقبال على الحدث، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين، يعني: توسُّطاً واعتدالاً، هذا في المشي.

﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ ﴾.. [لقمان: ١٩]، أي: اخفضه، وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن.

لكن، لماذا جمع السياقُ القرآني بين المشي والصوت؟ قالوا: لأن للإنسان مطلوباتٍ في الحياة، هذه المطلوبات يصل إليها، إما بالمشي ـ فأنا لا أمشي إلى مكان إلا إذا كان لي فيه مصلحةٌ وغرض ـ وإما بالصوت، فإذا لم أستطع المشي إليه ناديْتهُ بصوتي.

إذن: إما أنْ تذهب إلى مطلوبك، أو أنْ تستدعيَه إليك. والقصد أي:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠)، وكذا الترمذي في سننه (٣٦٤٨) كلاهما من طريق ابن لهيعة بسنده إلى أبي هريرة، قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٩٦، ١٢٧، ١٣٤)، وأخرجه عبد اللَّه بن أحمد بن حنبل في زوائده على مسند أبيه (١/ ١١٦، ١١٧، ١٥١)، وكذا الترمذي في سننه (٣٦٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وفي بعض ألفاظ الحديث «من صخر». ومعنى «في صبب» أي: في موضع منحدر. قال ابن عباس: أراد به أنه قويّ البدن، فإذا مشى فكأنه يمشي على صدر قدميه من القوة.

التوسُّط في الأمر مطلوب في كل شيء؛ لأن كل شيء له طرفان لا بُدَّ أن يكون في أحدهما مبالغة، وفي الآخر تقصير؛ لذلك قالوا: كِلَا طرفي قَصْد الأمور ذميم.

واعلم أن هذه الأرض التي تختال عليها وتتكبَّر قد سخرها اللَّه لك لتستطيع أنْ تمشي عليها وتتنقل فيها من جهة لأخرى، يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ فِرَٰشًا ﴾ يُوحي بأنه أعدَّ الأرضَ إعداداً مريحاً للبشر، كما تفرش على الأرض شيئاً، تجلس عليه أو تنام عليه، فيكون فراشاً يُريحك، ونحن نتوارث الأرضَ جيلاً بعد جيل، وهي تصلح لحياتنا جميعاً، ومنذ أنْ خُلِقَتْ الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان.

فالحق سبحانه قد أعدَّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل، فكل جيل رُفِّه في العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف اللَّه من العلم ما يُطوع له الأرض ويجعلها فراشاً.

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨]، أي: هيَّأناها تهييئاً يريح الساكنين فيها، مثل المهد الذي نُعِده للطفل؛ لأن الطفل لا يدرك أيّ شيء، فلا بُدَّ أنْ نُمهِّد له فراشه حتى يكون مريحاً له، فلا يُنغِّص شيء عليه نومته.

فمعنى المهاد، أي: نُمهِّد له الحياةَ التي ليس فيها مُكدِّرات لحركته، كذلك الأرض، كلّ الناس بالنسبة لها كالأطفال، فمهَّد اللَّه لهم الأرض، ولذلك تجدها مريحة في النوم، وصالحة له في أيِّ مكان، حتى في الجبل تجده يُسوِّي الرمل وينام عليه، ولهذا يقولون: فراش المتعَب وَطِيءٌ، فتجد المتعَب ينام حتى على الحصى، وينام مِلْء جفونه.

ونلاحظ أن الحق سبحانه قال في آية أخرى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠].

والمهد هو فراش الطفل، ولا بُدَّ أنْ يكون مريحاً؛ لأن الطفل إذا وجد

في الفراش شيئاً يُتعبه، فإنه لا يملك الإمكانات التي تجعله يريحه؛ ولذلك تمهد الأم لطفلها مكانَ نومه لينامَ نوماً مريحاً، ولكن الذي يُمهِّد الأرض لكل خَلْقه هو اللَّه سبحانه وتعالى، يجعلها فراشاً لعباده، مثلما نفعل نحن مع أطفالنا.

وفوق هذا، جعل لنا سبحانه في هذه الأرض سُبلاً وطرقاً؛ لأن المصالح تقتضي أنْ ينتقل الناسُ من مكان إقامتهم إلى أماكن أخرى فيها مصالحهم، فيحملون البضائعَ والسلعَ من بلاد إلى أخرى والعكس، فاللَّه تعالى جعل لنا هذه السبل لعلنا نهتدي في السير إلى أغراضنا وأهدافنا.

أو: أن الناس حين يرونَ هذه السُّبل التي خلقها اللَّه ويسَّرها لهم، وما بَثَّ في الأرض من خير ونِعَمٍ، قد يحِنُّون ويعتبرون بعظمة هذا الخالق، فيؤمنون ويهتدون.

ويقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

فالحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان، تعطيه كل ما يحتاج إليه، فهي مُسخَّرة له، يسعى ويضرب فيها، ويأكل من رزق اللَّه الناتج منها، ونحن لا نملك السماوات، ولا نملك الأرض، إنما نملك ما فيها من خيرات ومنافع مما ملّكنا اللَّه له، فهو الغنيُّ سبحانه، المالك لكلِّ شيء، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه.

فما في السماء والأرض مِلْك للَّه، لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه، فإنْ سأل سائل: فلماذا لا يجعلها اللَّه لنا ويُملّكنا إياها؟ نقول: ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً، وستظل مِلْكاً للَّه، وأنت تنتفع بها، وهل تأمن إنْ ملّكها اللَّه لغيره أنْ يتغيّرَ لك ويحرمك منها؟ فأمنُكَ في أنْ يظل المُلْك للَّه وحده؛ لأنه ربك ومتوليك، ولن يتغير لك، ولن يتنكر في منفعتك.

فالأرض تؤدي مهمتها التي خلقها اللَّه لها، وجعلها مُسخَّرة مُذلَّلة للإنسان ليسعى فيها، ويضرب في الأرض بالحرْث والبذْر والانتقال، لتعطيه من خيراتها، فعلامَ يتكبّر الإنسان ويختال على الأرض؟

وأيضاً، تلك الجبال التي يشمخُ الإنسان بأنفه، لعله يبلغها طُولاً، ونسي قوْلَ اللَّه تعالى:

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

هذه الجبال يقول الحق سبحانه عنها: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فهذا الجبل الضخم لو نزل عليه القرآنُ الكريم لَصَار خاشعاً هامداً، وتصدّع وتفتَّتت ذراته من خشية اللَّه تعالى، لماذا؟ لأنه ما دام سينزل عليه القرآن الكريم، سيصبح مُكلَّفاً، وتكليفه لن يتركه هكذا، بل كل ذرة تُسبِّح لعملها، فلابد أنْ يتفتت، ولكنه ليس مُكلَّفاً.

فالذي يحدث أنه يندكُّ ويهبط؛ لأنه غير مُكلَّف؛ لأنه هو والسماء والأرض أخذوا هذه المهمة منذ البداية، لقوله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهذه السماوات والأرض والجبال التي نختال عليها ونتكبَّر رفضتْ أن تكون مُخيَّرة، وطلبت أنْ تكون مُسيرة لأمر اللَّه، يُسخرها كما يشاء ويريد، فكانت الأرضُ والجبال أعلمَ من الإنسان الظّلوم الجَهول، فرفضت تحمُّل الأمانة؛ لأنها خافتْ أنْ لا تفي بها عند الأداء.

إن الكون كله أشفق على نفسه من تحمُّل الأمانة.

وهذا يعني أن الأمانة سوف تكون عُرْضة للتصرُّف والاختيار، ولا كائنَ في الكون قد ضمن لنفسه القدرة على الوفاء وقت الأداء.

لقد أعلنت الكائناتُ قولها، فأبيْنَ تحمُّل الأمانة، وكأنها قالت: إنَّا يا ربنا نريد أنْ نكون مُسخَّرين مقهورين لا اختيارَ لنا؛ ولذلك نجد الكون كله يؤدي مهمته كما أرادها اللَّه، ما عدا الإنسان، أي: أنه الذي قَبل بما له من عقل وتفكير أنْ يتحمل أمانة الاختيار، وبلسان حاله، أو بلسان مقاله قال: إنني قادر على تحمُّل الأمانة؛ لأني أستطيع الاختيار بين البدائل.

وهنا نُذكِّر الإنسانَ: إنك قد تكون قوياً لحظة التحمّل، ولكن ماذا عن حالك وقت الأداء؟

لذلك قال الله عن الإنسان: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

لقد ظلم الإنسانُ نفسَه، حيث حمل الأمانة ولم يَفِ بها، فلذلك فهو ظلوم، وهو جَهُول لأنه قدَّر وقت التحمُّل، ولم يُقدر وقت الأداء، ضَمِنها، ثم خالف ما عاهد نفسه على أدائه.

فإذا كان الإنسان ظَلُوماً لنفسه، جَهُولاً بحقيقة الأمر، فلماذا يتكبَّر ويختال ويتبختر فَرِحاً بنفسه، يمشي في الأرض مَرحاً، وهو في غَدٍ في باطنها مقبور.

أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ؟

قال رسول اللَّه ﷺ:

(إذَا جَمَعَ اللَّهُ الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ؟
فَيَقُومُ نَاسٌ، وَهُمْ يَسِيرٌ، فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعاً إلَى الجنّةِ
فَتَتَلَقّاهُمْ الْمَلائِكَةُ، فَيَقُولُونَ لَهُمْ: إنّا نَرَاكُمْ سِرَاعاً إلى الجَنّةِ؟
فَيَقُولُونَ: نَحْنُ أهْلُ الفَضْلِ. فَيَقُولُونَ: مَا كَانَ فَضْلُكُمْ؟
فَيَقُولُونَ: كُنّا إذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا، وَإذَا أُسِيءَ إلَيْنَا عَفَوْنَا، وَإذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلَمنَا.
فَيُقَالُ: ادْخُلُوا الجَنّةَ، فَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِينَ)[1]

هذا الحديث ينقلنا إلى صفة أخرى من صفات المؤمنين، وهي صفة تُبرز لنا كيف يتعاملون مع الناس، خاصة الجاهلين منهم والحمقى والسُّفهاء. فالعبد من عباد اللَّه لا يدخل في: جدال، ولا هراء، ولا مخاصمة مع هذا الصِّنف من الناس، وهم كثير.

يقول الحق: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فهم لا يلتفتون إلى حماقة الحَمْقَى، أو سَفَه السُّفهاء، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السُّفهاء والحمقى في جدال أو عِرَاك، ويترفَّعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين، لا عن ضعف، ولكن عن ترفُّع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانةٍ للوقت والجهد أنْ يُنفقا فيما لا يليقُ بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهمّ وأكرم وأرفع.

والجاهلون في الآية هنا هم السفهاء والحمقى الذين لا يَزِنُون الأمور،

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (حديث رقم: ٧٨٦٢) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وقال: «هذا متن غريب، وفي إسناده ضعف والله أعلم».

ولا يعقلون كلامهم، فكلُّ مَنْ لا يضع كل كلمة يقولها في وضعها الصحيح الذي يَصْلُح به أمر الناس فهو جاهل.

وهؤلاء يجب الإعراض عنهم، والردُّ عليهم بالحسنى كما هنا ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أو عدم الردِّ عليهم، كما في قوله تعالى:

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فالحقُّ سبحانه يرشدنا إلى مَكْرُمة من مكارم الأخلاق في تعاملنا مع مَنْ حولنا من الناس، بأنْ نُعرِض عن الجاهلين الذين يعتقدون قضية مخالفة للواقع ويتعصَّبون لها، هذا الجاهل لا يجب أنْ نماريه أو نجادله؛ لأن الجدل معه لن يؤدي إلى نتيجة مفيدة.

فلا تكُنْ مثل الجاهل السفيه، وتردُّ عليه بمثل قوله، فجواب ما يُكْره السكوتُ، وإلا فلو سفهْتَ عليه كما سَفِه عليك فقد صِرْتَ مثله تماماً، فلا تنسى أن هناك فَرْقاً بينك وبينه يجب أنْ تحافظ عليه، حتى لا تخرج من حيّز «عباد الرحمن».

أما إذا اشتدتْ سفاهته عليك، وطغى وبَغَى، فيُباح لك أنْ تردَّ العدوان بمثله؛ لأنه قد يظن أن السكوت ضَعْف، فعليك أنْ تُبيِّن له أن هذا ليس ضَعْفاً منك، ولكنه كَرَم خُلُق.

ومعنى ﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾، أي: سلام المُتَارَكة، فإذا جَهل عليك إنسان وسَبَّك بلسانه حلمتَ عليه، وقلتَ له: أنا لن أردَّ عليك. وتركته وانصرفتَ.

وسلام المتاركة غير سلام التحية الذي تلقيه على مَنْ يقابلك حين تبدؤه بالسلام، وقد يتحول سلام المتاركة أحياناً إلى سلام التحية للانصراف، مثلما قال سيدنا إبراهيم لعمه آزر بعد أنْ دَعَاهُ إلى الإسلام، فأبَى ولم يقتنع، فانصرف عنه، وقال له:

﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

فلا جدالَ ولا أذى، ولا ردَّ للتهديد والوعيد، سأدعو اللَّه أنْ يغفرَ لك، فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولِّي الشيطان، بل يرحمك فيرزقك

الهدى، فلن أقابلك بمثل ما قلتَ، ولن أُغلِظَ لك، أو ينالك مِنّي أذىً، أو أقول: أفٍّ.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي: إذا سَفِه عليهم الجُهَّال بالقول السيِّئ لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يَعْفُون ويَصْفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول اللَّه ﷺ[(١)] لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلْماً.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وقد سبَّ رجلٌ رجلاً في حضرة رسول اللَّه ﷺ، فجعل المَسْبُوب يقول: عليك السلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أما إن مَلَكاً بينكما يذبُّ[(٢)] عنك كلما شتمك هذا»[(٣)].

والحِلْم والصبر عن أذى الجاهلين دلالة على كمال العقل، وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل، وقد حَثَّ رسول اللَّه ﷺ على خُلق الحلم، فقال ﷺ: «ابتغوا الرِّفْعة عند اللَّه. قالوا: وما هي يا رسول اللَّه؟ قال: تَصِل مَنْ قطعك، وتعطي مَنْ حرمك، وتَحْلُم عَمَّنْ جهل عليك»[(٤)].

وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو ذوي قرابته، فقال: يا رسول اللَّه، إن لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسِنُ إليهم ويُسيئون إليَّ، ويَجْهلون عليَّ، وأحلم عنهم، فقال له ﷺ: «إنْ كان كما تقول فكأنما

---

(١) مما يُروى في هذا عن النبي ﷺ أن أنس بن مالك قال: إن النبي ﷺ أدركه أعرابي فأخذ بردائه، فجبذه جبذة شديدة، فنظرتُ إلى عنق رسول اللَّه (وقد أثرت فيه حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال اللَّه الذي عندك، فالتفتَ إليه الرسول، فضحك وأمر له بعطاء. حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (١٠/ ٥٨٠٩ ـ الفتح) ومسلم في صحيحه (ج ٢ ـ الزكاة/ ١٢٨).

(٢) الذبُّ: الدفع والمنع. فلان يذب عن حريمه: يدفع عنهم. [اللسان ـ مادة: ذبب].

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٤٥) من حديث النعمان بن مقرن رضي اللَّه عنه.

(٤) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٩٦) من حديث ابن عمر رضي اللَّه عنهما. وأورده أبو حامد الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٧٧) من حديث أبي هريرة، وعزاه الحافظ العراقي للحاكم والبيهقي.

تسفُّهم المَلَّ[١]، ولا يزال له معك من اللَّه ظهير ما دُمْتَ على ذلك»[٢].

وقد قال رسول اللَّه محمد ﷺ لأصحابه يوماً: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم؟ قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: رجل ممَّنْ كان قبلكم، كان إذا أصبح يقول: اللَّهم إنِّي تصدَّقتُ اليوم بعِرْضي على مَنْ ظلمني»[٣].

وانظر إلى هذا الصحابي الذي وفد على النبي ﷺ، فأناخ راحلته، وربطها حتى لا تذهب منه، ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه، ثم أخرج من عَيْبته[٤] ثوبين حسنين فلبسهما، كل هذا والنبي ﷺ يرى ما يصنع.

ثم أقبل الصحابي يمشي إلى رسول اللَّه ﷺ، فقال عليه السلام: إنَّ فيك يا أشج[٥] خُلُقيْنِ يحبهما اللَّه ورسوله. قال: ما هما بأبي أنت وأمي، يا رسول اللَّه؟ قال: الحِلْم والأناة. ولأنه حليم، ولأنه مُتَأنٍّ، سأل النبيَّ ﷺ: خُلِّقتانِ تَخلَّقتُهما، أم خُلُقَان جُبِلْتُ عليهما؟ فقال ﷺ: «بل خُلُقان جَبلَكَ اللَّه عليهما». فقال: الحمد للَّه الذي جَبَلَني على خُلُقين يحبهما اللَّه ورسوله»[٦].

ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دَخْلاً في أنصبة الناس من الحِدَّة والهدوء، والعَجلة والأناة، والكَدَر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه وبين أَنَاته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم.

---

(١) الملَّ: الرماد الحار الذي يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج، أراد إنما تجعل الملة لهم سُفوفاً يستفونه، أي أن عطاءك إياهم حرام عليهم ونار في بطونهم. [لسان العرب ـ مادة: ملل].

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٠٠، ٤١٢، ٤٨٤)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة. من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

(٣) أورده الغزالي في الإحياء (٣/ ١٥٤)، قال الحافظ العراقي في تخريجه: «أخرجه البزار، وابن السني في اليوم والليلة، والعقيلي في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف، وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلاً عند ذكر أبي ضمضم في الصحابة. قلت: وإنما هو رجل ممن كان قبلنا، كما عند البزار والعقيلي».

(٤) العيبة: وعاء من جلد، يكون فيه المتاع. والعيبة: ما يُجعل فيها الثياب. [اللسان ـ مادة: عيب].

(٥) هو المنذر بن عائذ، وقد كان في وفد عبد القيس الذين وفدوا على رسول اللَّه (من البحرين، سماه رسول اللَّه (أشج) لأنه كان بوجهه شجٌّ.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٠٦)، وأبو داود في سننه (٥٢٢٥).

فالرجل العظيم حقّاً كلما حلَّق في آفاق الكمال اتسع صدره، وامتدّ حِلْمه، وعذر الناسَ من أنفسهم، والتمس المبررات لأغلاطهم، فإذا عَدَا عليه غِرٌّ يريد تجريحه نظر إليه من قمته، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يعبثون في الطريق، وقد يرمونه بالأحجار.

ويعطينا الحق سبحانه نماذج لعباد الرحمن أعرضت عن الجاهلين الذين تسافهوا عليهم، فعباد الرحمن ليسوا مجرد مُثُل نظرية لم تتحقق في الحياة، بل هي نماذج عاشتْ بين الناس، قديماً وحديثاً، وستعيش في قادم الأيام.

فانظر إلى قوم نوح عليه السلام، الذين سبُّوا نوحاً واتهموه بالضلال، يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

فاتهموه بأنه ضَالٌّ مُخرِّف، قد فسد عقله، إذ كيف يأمرهم بعبادة إله واحد بل إنه يتجاوز هذا، فيحذرهم وينذرهم عذابَ يوم عظيم، وهذا شيء لم يقبلوه؛ لأن فطرتهم كانت قد فسدتْ بعبادتهم: وَدًّا[1]، وسُوَاع، ويَغُوث ويعوق، ونَسْراً، فكانوا سفهاء مع نوح، واحتقروه واحتقروا دعوته.

ما أعظمَ حِلم نوح عليه السلام وصبره على حماقات قومه عليه عندما كان يصنع السفينة في أرض ليس بها ماء وذلك بأمر اللَّه عزَّ وجلَّ يقول تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

---

(١) هذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون اللَّه. قال محمد بن قيس: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم. فصوَّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم. وقال ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، أما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لِحِمْيَر لآل ذي كلاع. [تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢٦].

فقد أخذ نوح عليه السلام يصنع السفينة تحت أمر اللَّه وَوَحْيه، وجعل قومه يمرُّون عليه فيهزأون به، ويسخرون منه، ويقولون له: يا نوح، قد كنتَ بالأمس نبياً، واليوم قد صِرْتَ نجاراً! ويجتمعون عليه وهم يضحكون، وهو جادّ عليه السلام في عمله، فكان يجيبهم بقوله:

﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨، ٣٩].

فقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء؛ ليصدُّوه عن دعوته، فلم يجدوا منه إلا كلَّ صبر وثبات، اتهموه بأنواع الاتهامات، وافتروا عليه أنواع الافتراءات، فما زاده ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وصَبْراً وجهاداً، فكان من أُولي العزم الصابرين.

فقد كان جهاد نوح عليه السلام وصبره على إيذاء قومه بما لا طاقةَ لأحد على تحمُّله، ولا قدرةَ له عليه، بل دعاهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً، فقد أقام بينهم: داعياً، مُذكّراً، ناصحاً، سالكاً جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم من الضلال، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، فلم يفلح معهم أبداً.

وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وجهاراً، و مع هذا لم تَلِنْ قلوبهم، بل قابلوا الإحسانَ بالإساءة، واللطفَ بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى وهو لا يفتأ يقول: اللَّهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.

وقد مدح الحق سبحانه أولئك الذين ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

فهذه صفة من صفات المؤمنين وهي الإعراض عن اللغو من الكلام والفعل والتصرُّف والسلوك، ومن صفاتهم عدم ابتغاء الجاهلين الحمقى السُّفهاء الذين يبحثون عن زلَّاتِ الناس وأخطائهم، للسخرية منهم والاستهزاء بهم.

واللغو فارغ الحديث الذي لا طائلَ تحته، ولا حاصل وراءه، وهو يقتل الوقت دون أنْ يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً، ولا معرفة مفيدة، وهو البذيء من القَوْل الذي يفسد الحِسَّ واللسان.

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو، ولا تستمع إليه، ولا تلتفت إليه، لأنها مشغولة بتكاليف الإيمان، مرتفعة بأشواقه، متطهرة بنوره.

والمؤمنون إذا سمعوا تسافه الجاهلين عليهم لا يهتاجون ولا يغتاظون، ولا يردُّون عليهم بمثله، بل يتركون الجدال معهم، وإنْ كانوا مُحقِّين، ولكن يتركونهم في موادعة وسلام، في أدب جَمّ، وترفُّع راقٍ، دون تكبُّر، وفي دعاء بالخير، ورغبة في الهداية.

فلا مشاركةَ للجهال، ولا مخاصمةَ، ولا ضيقَ بهم، بل سماحة ووُدّ وترفُّع وحُب للخير.

ولاتصاف المؤمنين بهذه الصفة ثمرة يجدون مردودها في حياتهم السلوكية يقول تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فليس للمؤمن أنْ يردَّ السيئةَ بالسيئةِ، بل عليه أن يردَّ السيئةَ بالحسنةِ، فالصبر على جهل الجاهلين، وحماقة الحَمْقى، وسَفَهِ السفهاء، والتسامح معهم في غير ضَعْف، والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشرّ بالشرّ، يردُّ النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب الخصومةُ ولاءً، والشدةُ لِيناً والهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجّح حياءً.

فبكلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه خَصْمك الغاضب، يتحول إلى وليّ نصير حميم، غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد، تحتاج إلى صبر جميل، وهي درجة عالية. يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

أي: لا يُلقَّى هذه المنزلة، أي منزلة مقابلة مَنْ أساء إليه بالإحسان، إلا مَنْ صبر، وكان ذا حظٍّ عظيم أي نصيب وافر العطاء، لأنه كبت نفسه فيقول له الحق سبحانه: أنت كبتَّ نفسك التي بين جنبيك من أجلي، فأنا سأجعل نهاية هذا الأمر خيراً لهذه النفس، فلا يُلقَّى الدَّفْع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا على الأذى.

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً حياً على تسافه الجاهلين والحمقى والسفهاء على المؤمنين الملتزمين بمنهج اللَّه، فيقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ [المطففين: ١٩ ـ ٣٣].

فالمنحرف حين يرى المستقيم يعرف أنه كمنحرف لم ينجح في أنْ يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيماني لـ «افعل» و «لا تفعل»، أما المؤمن الملتزم فقد استطاع أنْ يضبط نفسه، وساعة يرى غير الملتزم إنساناً آخر ملتزماً، فإنه يحتقر نفسه، ويقول بينه وبين نفسه حَسَداً للمؤمن: لماذا؟ وكيف استطاع هذا الملتزمُ أنْ يقدر على نفسه؟

ويحاول المنحرف أنْ يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف، وعندما لا يستطيع جَذْب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ويهزأ به، ويحاول أنْ يحتالَ عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف.

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنساناً مؤمناً ذا استقامة، فيسخرون منه بكلمات كالتي نسمعها «خذنا على جناحك»، أو يحاولون النَّيل من إيمانه، وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم، فهم يروون بتندُّر كيف سخروا من المؤمنين، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن.

ولذلك يجب على المستقيمين أنْ ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن يتركوهم في طاعتهم، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم؛ لأنه يعزُّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم، ويحزّ في نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام.

لذلك يقولون: هيا نكون كلنا معاً في المعصية، حتى لا يرفع أحدٌ رأسَهُ على الآخر، فلنكُنْ كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يُذلنا، والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربةً تنغرز في قلبه، والخائن ساعةَ يرى الأمين تكون الرؤية حَرْبةً تنزل في قلبه، فيريد أن يكون الكل مثله.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]، أي: مسرورين فرحين

وهذا دليل على لُؤمهم ورذالة طباعهم، فلم يكتفوا بالاستهزاء، وإنما يحكونه ويتبجَّحون به.

فليت الأمر توقَّف عند حَدِّ السخرية، إنما تعداه إلى أنْ يضحكوا من أهل الإيمان، ويُضْحِكوا أهلهم، وسخرية أهل الباطل من أهل الحق موجودة في كل زمان، وحتى الآن نرى مَنْ يسخرون من أهل الاستقامة والدين والورع ويتندَّرون بهم.

فعندها يعرف المؤمن أن الضحكة التي ضحكها الكافر القوي من المؤمن الضعيف، أو غَمْزَه، أو لَمْزه، أو عندما استهزأ به، وسخر منه، وتهكَّم عليه، كانت له سَلْوى ومعيناً له على الصبر، وتحمُّل ما يلاقيه من إيذاء؛ لأن اللَّه الذي سيجازيه يرى ما يحدث له ويَعده ويُحصيه.

فالحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه الصورة في الضحك بهم والغمز حين المرور، ولقاء الأهل في سرور مما صنعوا بالمؤمنين، يقول للمؤمنين تعزيةً لهم وتثبيتاً لقلوبهم:

إن كل هذه الأمور على مَرْأىً ومَسْمع مني، ومعنى ذلك أنه لا يضيع عنده شيءٌ.

فالمؤمن عندما يسمع هذا ويعرف أن اللَّه يرى كل شيء من أفعالهم وجرائمهم ويحصيها عليهم، يطمئن على نفسه، ولا يحزن من سخرية هؤلاء المجرمين، بل هو الذي يسخر منهم.

وبعد ذلك يُوضِّح الحق أنه في الآخرة سيجازيهم بمثل ما عملوا، فهم سخروا من المؤمنين، وضحكوا منهم، واستهزأوا بهم، فالحق سبحانه يجازيهم في الآخرة من جنس ما عملوا، فهم استهزأوا وضحكوا ضحكاً وسخروا سخريةً لا دوامَ لها.

فاللَّه سبحانه وتعالى يقلب الأمر في الآخرة، فيجعل المؤمنين يسخرون من الكافرين ويضحكون منهم، كما سخروا منهم في الدنيا، لكن هذا الفرح والضحك سيكون مسألة خالدة؛ لأنهم في نعيم دائم، والكفار في عذاب مقيم.

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

أي: أنه في يوم القيامة يفرح المؤمنون بنعيم الجنة الذي جازاهم اللَّه به، ويفرحون بما أصاب الكفار الذين آذوهم وسخروا منهم في الدنيا؛ لأن اللَّه انتقم منهم وأدخلهم النار.

فمَنْ يعمل هذه العملية ويجعلكم تسخرون من الكفار وتضحكون منهم في الآخرة، هل استطاع أنْ يثيب الكفارَ ويُجازيهم عما فعلوه بكم في الدنيا؟

فاليوم يعني يوم القيامة، وهو يوم عظيم، يقوم فيه الناس لربّ العالمين، وهو يوم الحساب والفَصْل والجزاء والأهوال، حينئذ يضحكون منهم كما ضحكوا هم في الدنيا، ولكن مع الفارق، فَضَحِك الكفار مؤقت وسخريتهم زائلة، أما ضَحِك المؤمنين فهو دائم وفرحهم خالد.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥].

ماذا ينظرون؟ ينظرون إلى الكفار وما حَلَّ بهم من عذابٍ، جزاءَ كفرهم واستهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، فقد كان في الدنيا مرورَ ذليل، ومرور مُضطهد، ومرور ممقوت، أما اليوم فقد تغيَّر الحال، فالمؤمنون جالسون على الأرائك يتمتعون بالنعيم الذي هم فيه، وينظرون إلى حال الكفار وما حَلَّ بهم من ذِلَّة وعذاب مهين وسخرية، مثلما كانوا يفعلون بالمؤمنين.

لذلك كان من عباد اللَّه أولئك الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، لأنهم يعلمون أن هؤلاء الجاهلين من الحمقى والسفهاء تغيب عنهم حقائق الدنيا والآخرة، ولا يعلمون من الحياة إلا الأمورَ الظاهرة فقط، فلا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها.

ويصف الحق سبحانه أولي الألباب، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

والصبرهو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتُخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها، وكل ما يُخرج النفسَ الإنسانية عن صياغة الانسجام في النفس يحتاج صبراً.

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن، ويحتاج مصبوراً عليه، والمصبور عليه في الأحداث قد يكون في ذات النفس، كأنْ يصبرَ الإنسان على مشقة التكليف الذي يقول «افعل» و «لا تفعل».

فالتكليف يأمرك بترك ما تحب، وأن تنفذ بعض ما يصعب عليك، وأن تمتثل بالابتعاد عما ينهاك عنه، وكل هذا يقتضي مجاهدة من النفس، والصبر الذاتي على مشاق التكليف.

وهذا صبر الذات على الذات، ولكن هناك صبر آخر، صبر منك على شيء يقع من غيرك، ويُخرجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها، وهو ينقسم إلى قسمين: قسم تجد فيه غريماً لك، وقسم لا تجد فيه غريماً لك.

فالمرض الذي يُخرج الإنسان عن حيِّز الاستقامة ويسبب لك الألم ليس لك فيه غريم، لكنك تجد الغريم حين يعتدي عليك إنسانٌ بالضرب مثلاً، ويكون هذا الذي يعتدي عليك هو الغريم لك.

وكل صبر له طاقة إيمانية تحتمله، فالذي يقدر على شيء ليس له فيه غريم يكون صبره معقولاً بعض الشيء، لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره، أما صبر الإنسان على ألم أوقعه به مَنْ يراه أمامه فهذا يحتاج إلى قوة ضبط كبيرة كي لا يهيج الإنسان ويفكر في الانتقام.

ويهمنا هنا الحديث عن الصبر على تسافه الآخرين عليك أو اعتدائهم عليك بسبٍّ أو ضرب أو إيذاء، فوجود الغريم هنا يثير حفيظتك ويهيج غضبك ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته، فالصبر في هذه أصعبُ، وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في قوله تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، فاستعمل هنا لام التوكيد، لأن الصبر هنا شاقٌّ، والفرصة متاحةٌ للشيطان ليُؤلب القلوب ويثير الضغائن والأحقاد.

ويُرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم، فيقول:

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]،

فهنا ثلاث مراحل: الأولى: كَظم الغيظ. والثانية: العفو. والثالثة: أن تحسن فترتقي إلى مقام مَنْ يحبهم اللَّه وهم المحسنون.

والحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفي النفس ويمنع ثورتها، فيقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ . . .﴾ [الشورى: ٤٠]، لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل، ثم يرقِّي المسألة ويفتح باباً للعفو: ﴿عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

فالحق سبحانه وتعالى يُحدثنا عن العفو والإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك، فقد أرحتَ نفسك، لكنك تكون قد حرمتها الأجر الذي تكفَّل اللَّه لك به إنْ أنت عفوتَ.

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء، فالذي كان من حقك أن تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحت حياته ملكاً لك، فهل يفكر لك في سوء بعدها؟

لذلك يُعلمنا ربنا: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

وأذكر أنني جاءني مَن يقول: واللَّه أنا دفعت بالتي هي أحسن مع خصمي، فلم أجده ولياً حميماً كما قال اللَّه تعالى. فقلتُ له: عليك أن تراجع نفسك، لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن، لكن الواقع غير ذلك، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق اللَّه معك، ورأيتَ خصمك ولياً حميماً، إنما أنت تريد أن تجرب مع اللَّه، والتجربة مع اللَّه شكٌّ.

عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ

عن ابن مسعود عن رسول اللَّه ﷺ قال:

(عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ. رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ

فَيَقُولُ اللَّه جَلَّ وَعَلَا: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ عَنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، مِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي)[1]

هذا حديث رب العزة سبحانه عن حال «عباد الرحمن» مع ربهم، فيقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

فقيام الليل بمثابة الماء للأرض العَطْشى، فهو رِيُّ القلوب الظامئة إلى التحقُّق بحب اللَّه عز وجل، والمثول بين يديه سبحانه، والوقوف على باب رحمته وعَفْوه، عسى أنْ يقبل، عسى أنْ يرضى سبحانه.

فركعتان في جوف الليل، يعبد فيهما اللَّهَ بـ: إخلاص، وحب، ويقين ورغبة في لقائه، وشوق لمناجاته، يجعلان العبد مُحباً للخُلو بحبيبه سبحانه يناديه ويدعوه ويناجيه[2].

إن قيام الليل دليلٌ على مدى يقين العبد في وعد اللَّه سبحانه ووعيده،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٤٦)، وابن حبان في صحيحه (٦٤٣ ـ موارد الظمآن) من حديث عبد اللَّه بن مسعود. وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) لأحمد وأبي يعلى والطبراني في المعجم الكبير، وقال: إسناده حسن.

(٢) أخرج ابن المبارك في الزهد (ص ٤٥٦) (حديث ١٢٨٩) من حديث حسان بن عطية مرسلاً بلاغاً أن رسول اللَّه (قال: «الركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشقّ على أمتي لفرضتهما عليهم»، وعزاه الحافظ العراقي لآدم بن أبي إياس في الثواب، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب «قيام الليل» من رواية حسان بن عطية مرسلاً.

فما الذي يجعل إنساناً ينفض لحافه، ويترك فراشه الدافئ الوثير، ويعزف عن زوجه، ويترك ملذاته وشهواته، ويقاوم النوم، لكي يقفَ يصلي ركعات في ظلمة الليل وبَرْد الشتاء، ما الذي يدعوه للوقوف طويلاً، والركوع طويلاً، والسجود حتى تتورَّم قدماه وتتفطر من كثرة الوقوف وطوله؟

هذا دليل واضح على أن قلبه قد ملأه الإيمان، وأن سراج الإيمان يُضيء في قلبه، وهذا دليل على يقينه وتقواه وصلاحه، يقينه بأن اللَّه حيٌّ سميعٌ بصيرٌ، نام كل الناس، وهجعتْ الأبدان، وغارت النجوم، ووقف «عباد الرحمن» يناجونه.

وانظر إلى ما روتْه أم المؤمنين عائشة رضي اللَّه عنها عن ليلة أحياها رسول اللَّه ﷺ من لياليه، وكيف أن المحبين للَّه الخاشعين له لهم شأن آخر غير شأن كل الناس.

قالت عائشة رضي اللَّه عنها: «افتقدتُ النبي ﷺ ذات ليلة، فظننتُ أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسستُ ثم رجعتُ، فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك، لا إله إلا أنت. فقلت: بأبي أنت وأمي، إنكَ لَفِي شأن، وإني لفي شأن آخر»[(١)].

ولذلك يعجب اللَّه عز وجل من هذا العبد الذي يترك فراشه وامرأته ونومه ليقوم من الليل، بل إنه سبحانه يفرح به ويستبشر، لذلك يقول النبي ﷺ عن رب العزة سبحانه في الحديث الذي معنا:

«عَجِب ربنا من رجلين: رجل ثار عن وِطَائه[(٢)] ولحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته، فيقول اللَّه جل وعلا: انظروا إلى عبدي ثارَ عن فراشه ووِطَائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي»

بل إن اللَّه عز وجل يُقَرّر لنا أن قيام الليل وإحياءه هو نتيجةٌ مباشرة للإيمان، وصفة من صفات المؤمنين الصادقين، فيقول عز وجل:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا

(١) أخرجه النسائي في سننه (٢/ ٧٢) كتاب: عشرة النساء من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.
(٢) الوطاء خلاف الغطاء. واللحاف: كل ما تغطيتَ به فقد التحفتَ به.

﴿يَسْتَكْبِرُونَ ۩ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٥، ١٦].

فعلامة المؤمنين حقّاً باللَّه وآياته، والمذعنين لأمره وحكمه في كل شؤون حياتهم أنهم إذا ذُكِرَتْ أمامهم وعلى أسماعهم آياتُ اللَّه خرُّوا سُجَّداً، تعبيراً عن الخضوع والخشوع الواجبين للمتصف وحده بصفات الكمال.

ولا يتأتى هذا إلا من صاحب قلب امتلأ بحب اللَّه والإيمان والخضوع والذلِّ للَّه وحده، فإذا بهم لا يستكبرون على اللَّه عَزَّ وجل، بل يكونون وكأنَّ على رؤوسهم الطير، ويتعدى هذا إلى تجافي الجنوب والظهور والأبدان كلها عن مضاجعها، وعن هجوعها ورقودها وخلودها إلى النوم، فإذا بهم يسهرون ليلهم ويُطيلون الوقوف بين يدي اللَّه طلباً لما عند اللَّه، وخوفاً من عقابه.

فساعةَ يبيت الواحد منهم في الليل يحاسب نفسه، ماذا قدَّم من عمل في نهاره، ويتذكَّر نِعَم اللَّه التي تجلَّتْ عليه في ذلك اليوم، وهي نِعَم ليست ذاتية فيه، ولكنها موهوبة من ربه، فيشكر اللَّه عليها، ويبيت لربه ساجداً قائماً.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

والقنوت هو المداومة على الشيء، وقد حَثَّ القرآنُ الكريم على ديمومة طاعة اللَّه، ولزوم الخشوع والخضوع.

وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

هؤلاء هم المتقون المحسنون، الذين قال الحق سبحانه عنهم:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦].

فأنت إذا زدتَ على ما افترض اللَّهُ من جنس ما فرضه عليك، تكون قد دخلْتَ مع اللَّه في مقام الإحسان؛ لأنك حين جربْتَ أداء الفرائض، وذُقْتَ حلاوتها، وعلمتَ ما أفاضه عليك من معين التقوى، ومن رصيد قوله:

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إذا استشعرتَ هذا كله علمتَ أن اللَّه يستحقُّ منك أكثر مما كلَّفك به، فالإنسانُ يصلي العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أنْ تحلوَ العبادة للمؤمن، ويزداد الإيمانُ في قلبه، ويملك عليه جوارحه، ويأنس العبدُ بالقرب من اللَّه، فالحقُّ سبحانه لا يردُّ مثل هذا العبد، بل إنه يستقبله ويُدخِله في مقام الإحسان.

والإحسان له وجهان:

الأول: أن يعبدَ المؤمنُ اللَّهَ كأنه يراه، فيُحسِن أداء كل تكليف يُكلَّف به، كأنه يرى اللَّه، فإنْ لم يكُنْ يراه فإنه يحسُّ أنه سبحانه يراه.

الثاني: أنْ يزيد المؤمنُ في أداء هذه التكاليف فوق ما فرض اللَّه، وهي النوافل، وبذلك لا يكتفي المؤمنُ بتصديق الأحكام التي نزلتْ، بل يزيد من جنس ما فرض اللَّهُ عليه.

فالمحسن هو مَنْ عشق تكليف اللَّه، وعرف منزلة القرب منه، فوجد اللَّه قد كلَّفه دون ما يستحق سبحانه منا، فزاد من العمل الذي يزيده قرباً من اللَّه.

والحق يقول في الحديث: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصرُ به، ويده التي يبطشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، إنْ سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[(١)].

والحق يأمر نبيه ﷺ، فيقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهذه خصوصية لرسول اللَّه، وزيادة على ما فرض على أمته، أنْ يتهجد للَّه في الليل؛ لأن اللَّه يقول له: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٢٥٦) من حديث عائشة، وكذا البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة. قال الخطابي: «هذه أمثال، والمعنى توفيق اللَّه لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره اللَّه من الإصغاء إلى اللَّهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى اللَّه عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده، ومن السعي إلى الباطل برجله» ذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٤٤).

وكأن التهجد ليلاً والوقوفَ بين يدي اللَّه في هذا الوقت سيعطي رسول اللَّه ﷺ القوة والطاقة اللازمة للقيام بهذه المسؤولية الملقاة على عاتقه، أَلا وهي مسؤولية حَمْل المنهج وتبليغه للناس.

ويقول الحق: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ[1] ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا . . .﴾ [المزمل: ٦].

ففي الوقت الذي ينام فيه الناس، ويخلدون إلى الراحة، وتتثاقل رؤوسهم عن العبادة، يقوم «عباد الرحمن» بين يدي ربهم مناجين متضرعين، فتتنزّل عليهم من اللَّه الرحمات والفيوضات، فمَنْ قام من الناس في هذا الوقت، واقتدى برسول اللَّه ﷺ، فله نصيب من هذه الرحمات، وحَظٌّ من هذه الفيوضات، ومَنْ تثاقلت رأسه عن القيام فلا حَظّ له.

إذن: في قيام الليل قوة إيمانية، وطاقة روحية، ولما كانت مهمة الرسول فوق مهمة الخَلْق كان حظُّه من قيام الليل أزيد من حظهم، فأعباء الرسول كثيرة، والعِبء الثقيل يحتاج الاتصالَ بالحق الأحد القيوم، حتى يستعين بلقاء ربه على قضاء مصالحه.

ومن العجيب أنْ ينصرف المسلمون عن هذه السنة، ويتغافلون عنها، فإذا حَزَبهم أمر لا يُهرعون إلى الصلاة، بل يتعللون، يقول أحدهم: أنا مشغول وهل شغل الدنيا مبرر للتهاون في هذه الفريضة؟ ومَنْ يدريك لعلك بالصلاة تُفتَح لك الأبواب، وتقْضِي في ساعة مَا لا تقضيه في عدة أيام.

ونقول لهؤلاء الذين يتهاونون في الصلاة وتشغلهم الدنيا عنها، فإنْ صَلَّوْا صلوا قضاءً، فإنْ سألتهم قالوا: المشاغل كثيرة، والوقت لا يكفي، فهل إذا أراد أحدهم الذهابَ لقضاء حاجته، هل سيجد وقتاً لهذا؟ إنه لا شكَّ واجدٌ الوقت لمثل هذا الأمر، حتى وإنْ تكالبتْ عليه مشاغل الدنيا، فلماذا الصلاة هي التي لا تجد لها وقتاً.

أما التهجُّد، وهو قيام الليل، فهو فَرْض على رسول اللَّه ﷺ دون غيره، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوُّع.

---

(١) ناشئة الليل: ساعاته. قال الزجاج: ناشئة الليل ساعات الليل كلها، ما نشأ منه ـ أي: ما حدث ـ فهو ناشئة. قال أبو منصور: ناشئة الليل قيام الليل. [لسان العرب مادة. نشأ].

فهؤلاء الذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً، يتوجهون لربهم وحده، ويقومون له وحده، ويسجدون له وحده، هؤلاء قوم مشغولون عن النوم المريح اللذيذ بما هو أَرْوَح منه وأمتَعُ، مشغولون بالتوجُّه إلى ربهم، ينام الناس، وهم قائمون ساجدون، ويخلد الناس إلى الأرض، وهم يتطلعون إلى عرش الرحمن، ذي الجلال والإكرام.

يقول الحق سبحانه: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران].

ويقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

والتسبيح هو: التنزيه للَّه تعالى، وهو صفة للَّه قبل أن يخلقَ من يسبحه وينزهه، فالتسبيح ثابت للَّه، ولو لم يُوجد المُنَـزّه، فلما خلق اللَّه الكونَ سَبّحت السماواتُ والأرضُ وما فيهنّ للَّه، فإذا كان التسبيح ثابتاً للَّه قبل أن يوجد المسبّح، ثم سبح للَّه أول خَلْقه، ولا يزالون يُسبّحون، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك. أي: نزِّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً عما تراه من المخلوقات.

والتسبيح والتنزيه يعني أن المقياس الذي يضبط العالم ليس كمقياس العالم إنما أصلحُ وأقوى، وهذا في صالحك أنت، فساعةَ أن تسبح اللَّه اذكر أن التسبيح نعمة، فاحمد اللَّهَ على أنه لا شيءَ مثله، سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمد ربك؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على من خلق، وهذه نعمة تستحق أن تحمد اللَّهَ عليها.

ومثال ذلك ـ وللَّه المثل الأعلى ـ رب الأسرة، فهذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون اللَّه على وجوده بينهم؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة، وينظم العلاقات بين أفرادها، ألم نَقُل في الأمثال: اللي ملوش كبير يشتري له كبير؟

حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته، حيث سيلزم كل واحد منهم حدوده، لذلك كان من أسماء اللَّه تعالى: المتعال المتكبر، وهذه الصفة وإن كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد، فهي

محبوبة للَّه تعالى؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له، فتكبُّره سبحانه وتعاليه بحق.

إذن: لا يحفظ التوازن في الكون إلا قوةٌ مغايرة للخلق.

والحق سبحانه يريد تسبيحنا تسبيحاً دائماً متوالياً، كما أن نِعَمَ اللَّه عليك متوالية لا تنتهي، فكل حركة من حركاتك نعمة، النوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، والأكل نعمة، والشرب نعمة، والبصر، والسمع، كل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم.

لذلك؛ فالحق سبحانه يعطينا زمن التسبيح، فيعيشه في كل وقت: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وآناء: جمع إنْي، وهو الجزء من الزمن، وهذا الجزء يترقى حسب تنبهك لتسبيح التحميد، فمعنى التسبيح آناء الليل أي أجزاء الليل كله، فهل يعني هذا أن يظل الإنسان لا عمل له إلا التسبيح؟ فيمكن أن تجزئ الليل إلى ساعات، فتسبح كل ثانية، وهكذا حسب مقامات المسبح وأحواله.

فهناك من عباد اللَّه من لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة، فتراه يسبح اللَّه في كل حركة من حركاته؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته، بدليل أنها قد تُسْلَب منه في أي وقت.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ [طه: ١٣٠]، ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره، والمقامات والأحوال كلها؛ لذلك يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة:

(اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك)، فهذا الذي يستحق المراقبة، وعلى المرء أن يتنبه لهذه المسألة، فلا تكن مراقبته لمن يغفل عنه، أو ينصرف، أو ينام عنه.

(واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك) فإذا شربت كوب ماء، فقل: الحمد للَّه أن أرواك، فساعة تشعر بنشاطها في نفسك قل: الحمد للَّه. وساعة أن تخرجها عرقاً أو بولاً قل: الحمد للَّه، وهكذا تكون موالاة حمد اللَّه، والمداومة على شكره.

(واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) فطالما أنك لا تستغني عنه، فهو الأولى بطاعتك.

(واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه) وإلَّا، فأين يمكنك أن تذهب؟

لكن، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل، فقال: ﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ . . .﴾ [طه: ١٣٠]. وحدده في النهار، فقال: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ . .﴾ [طه: ١٣٠]؟

قالوا: لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسعي، فربما شغلك التسبيح عن عملك، وربنا يأمرنا أن نضرب في الأرض ونسهم في حركة الحياة، والعمل يعين على التسبيح ويعين على الطاعة ويعينك أن تلبس: اللَّه أكبر.

ألا تقرأ قول اللَّه عز وجل في سورة الجمعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

ذلك لأن حركة الحياة هي التي تعينك على أداء فرض ربك عليك، فأنت مثلاً تحتاج في الصلاة إلى ستر العورة، فانظر إلى هذا الثوب الذي تستر به عورتك؛ كم يدٌ ساهمت فيه؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرت في إخراجه على هذه الصورة؟

أما في الليل فأنت مستريح، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح اللَّه في أي وقت من أوقاته.

ويلفتنا قوله تعالى: ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

فأيُّ طلوع؟ وأيُّ غروب؟ وأيُّ ليل؟ وأيُّ نهار؟ أهي لمصر، أم للجزائر، أم للهند، أم لليابان؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهي فالشمس في كل أوقاتها طالعة غاربة، ففي هذا إشارة إلى أن ذكر اللَّه وتسبيح اللَّه دائم لا ينقطع.

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح، فيقول: ﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]،

ونلحظ أن الحق سبحانه يحث على العمل بالنفعية، فلم يقل: لعلِّي أرضى، قال: لعلك أنت ترضى، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك.

والرضا: أن تصلي فيما تحب إلى ماتؤمل، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد، وحقق ما يرجو، كما تقول لصاحبك: أأنت سعيد الآن؟

يقول: يعني، يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا، فإن تحقق له ما يريد يقول لك: سعيد والحمد للَّه. فإنْ أحسنت إليه إحساناً يفوقُ ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان، ويقول: ربنا يُطيل عمرك، جزاك اللَّه خيراً.

إذن: رضا الإنسان له مراحل؛ لذلك الحق سبحانه يقول في الحديث القدسي كما روى النبي ﷺ: «إن اللَّه يتجلى على خَلقه في الجنة: يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من العالمين، قال: أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وهل يوجد أفضل من ذلك؟ قال: نعم أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط بعده عليكم أبداً».

وهكذا يكون الرضا في أعلى مستوياته، الغاية من التسبيح إذن الذي كلفك ربك به أن ترضى أنت، وأن يعود عليك بالنفع، وإلا فالحقُّ سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق، أنت مسبح قبل أن يخلق الكون كله، ولا يزيد تسبيحك في ملكه تعالى شيئاً، ويتم لك هذا الرضا حين ترضي اللَّه فيرضيك.

لذلك حكم الحق سبحانه بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فقال تعالى عن القانتين آناء الليل وساعاته ساجدين وقائمين، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

فالذي هو قانتٌ آناءَ الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه علم العلم الحقيقي، فالقنوت بالليل فيه مسائل كثيرة. أولاً: أنه أبعدُ عن الرياء والسمعة. ثانياً: أن كل جوارحه تفرغتْ للقاء ربه.

فالعين مثلاً في ظلمة الليل تستريح من المرائي التي تشغل الإنسان وتأخذ انتباهه، لأن كل مرأىً يأخذ جزءاً من خواطرك، فهذا ذهب، وهذا جاء، وهذا قال.

أما الليل فسكونٌ لا انشغالَ فيه، فالجوارح خالصةٌ لوجه اللَّه لا تشغلها المرائي والأصوات، وهذا الجو يوفر لك وقفة حقيقية وخاشعة بين يدي اللَّه وفي القنوت تترك النوم وتحرم نفسك راحتها، لتقوم بين يدي ربك ساجداً أو قائماً.

وبالقنوت يدخل العبد في الربانية التي تقول للشيء كن فيكون، وهذه من الفيوضات لمَنْ كان للَّه ساجداً أو قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، يعبده بلا رياء أو سمعة، ويمنع نفسه النوم والراحة، لأنه أنس بربه واستراح في قُرْبه.

ويُحدثنا الحق سبحانه عن محمد ﷺ وصَحبه، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد سُئل عمر رضي اللَّه عنه عن المتقين، فقال: «الواحد منهم يزيدك النظر إليه قرباً من اللَّه». وكأنه يشرح لنا قوله تعالى عن أصحاب رسول اللَّه: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾.

فساعة ترى المتقي للَّه تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور، إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى اللَّه، وهذا السرور يلفتك إلى أن تقلده، لأن رؤياه تُذكرك بالخشوع والخضوع والسكينة ورقَّة السَّمْت وانبساط السريرة.

فساعة تراهم ترى أن الملامح توضح ما في الأعماق من إيمان، أولئك الذين ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، فعند سماعهم آيات الرحمن لا يسجدون فقط بل يخرون سُجداً، أي: يسقطون بوجوههم سريعاً إلى الأرض، وهذا انفعال قَسْري طبيعي لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير.

فالساجد يستطيع أن يسجد بهدوء ونظام، أما الذي يخر فلا يفكر في ذلك بل يخر تلقائياً ويضيف إليه نزوعاً داخلياً، فتفيض أعينهم بالبكاء دموعاً.

فالقرآن يؤثر في حواسِّ الإنسان وأعضائه، خاصة في جوف الليل، حينها ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تعي عنه وتفهم فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك، لذلك تخر الأعضاء ساجدة، وتدمع العيون، وتقشعر الجلود، وتلين القلوب، كيف لا والمتكلم هو اللَّه؟

وهذه صفة العبد الذي يخشى ربه ويراقبه ويعمل لنظره إليه حساباً، لأنه دائماً يعرض سلوكه على ربه، فإنْ رأى فيه مخالفة عاد إلى كلام اللَّه وتذكَّر وعيده فتحدث عنده قشعريرة في جلده من خشية ربه، وهي أنْ يجفَّ جلده وتحدث رعشة في البدن من خوف العذاب، ومن خوف غضب اللَّه، ثم يعود فيتذكر رحمة ربه التي سبقتْ غضبه، وعفوه الذي سبق عقوبته، فيعود إلى حالته الأولى.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار، ومن مجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها.. وبعد ذلك تأتي الرحمة، وفي هذه الحالة لا تلين الجلود فقط، ولكن لا بدَّ أن تلينَ القلوبُ لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد.

ورسول اللَّه ﷺ يقول: «إن في الجسد مُضغة إذا صلحتْ صَلُحَ الجسد كله، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

فالقلب هو منبع اليقين ومصبّ الإيمان، وهو موضع الرقة والرحمة والعطف، وإذا ما جعلنا القلب أكثر ذكراً للَّه فإنه يمتلئ رحمةً وعطفاً، وإذا كان غامراً باليقين والإيمان، فكلُّ جارحة في الإنسان تكون فيها خميرةُ إيمان.

أما إذا خرج الإيمان من القلب خرجت منه الرحمة، وخرج منه كل إيمان الجوارح.. فلمحة الإيمان التي في اليد تخرج فتمتد اليد إلى السرقة والحرام.. ولمحة الإيمان التي في العين تخرج فتنظر العين إلى كلِّ ما حرَّم اللَّه.. ولمحة الإيمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم إلى المسجد أبداً، ولكنها تمشي إلى الخمارة وإلى السرقة، لأنه كما قلنا: القلب مخزن الإيمان في الجسم.

ومدخلنا لإصلاح هذا القلب هو التوجه إلى اللَّه بالتضرع والخشوع، وأن نكون حقاً من تلك الأمة التي ذكرها الحق سبحانه في قرآنه، فقال:

﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣].

فالصلاة عنوان الخضوع، والسجود أقوى سمات الخضوع في الصلاة، وما داموا يُصلُّون فلا بُدَّ أنهم يتلون آيات اللَّه آناءَ الليل وساعاته وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل، ونعرف أن من حُسْن العبادة في الإسلام ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلاً وصلاة التهجد، وهذه من مدارج العملية الإيمانية التي يدخل بها العبدُ إلى مقام الإحسان.

ودخوله لمقام الإحسان يجعله يزيد عما افترضه اللَّه عليه، فهو لا يصلي فقط صلاة العتمة وهي العشاء لكنه يكرر الصلاة ويقطع ساعات الليل في عبادة يجد حلاوتها في قلبه، فينير ليله بالقرب من اللَّه.

اللجوء إلى اللَّه

اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ

عن أبي سعيد الخدري عن رسول اللَّه ﷺ قال:

«إِذَا كَانَ يَوْمٌ حَارٌّ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.. مَا أَشَدَّ حَرَّ هَذَا اليَوْم! اللَّهُمَّ أجِرْنِي مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي اسْتَجَارَ بِي مِنْ حَرِّكِ، وَ إِنِّي أُشْهِدُكِ أَنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ.

وَإِنْ كَانَ يَوْماً شَدِيدَ البَرْدِ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.. مَا أَشَدَّ بَرْدَ هَذَا اليَوْم! اللَّهُمَّ أَجِرْنِي مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِجَهَنَّمَ: إِنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِي قَدْ اسْتَجَارَ بِي مِنْ زَمْهَرِيرِكِ، وَإِنِّي أُشْهِدُكِ أَنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ.

قَالُوا: وَمَا زَمْهَرِيرُ جَهَنَّمَ؟ قَالَ: بَيْتٌ يُلْقَى فِيهِ الْكَافِرُ فَيَتَمَيَّزُ مِنْ شِدَّةِ بَرْدِهَا بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ»(١).

يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

أولئك عباد اللَّه المتقون الصادقون مع أنفسهم، الذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، يسجدون على أنوفهم ووجوههم للَّه، قائمين على أقدامهم، يحذرون الآخرة، ويرجون رحمة اللَّه. إنهم يتمثلون عذاب الآخرة أمام أعينهم ويستحضرون أهواله وشدائده، ويعرفون تمام المعرفة أن مَنْ يُزحزح عن هذا العذاب يكون قد فاز فوزاً عظيماً ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ...﴾ [آل عمران: ١٨٥].

آية جامعة تتحدث عن حقائق لا تقبل الشك، بدأها الحق سبحانه بالأمر

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة [٣٠٧]، والحديث في الاتحافات السنية [٣٠٥] معزواً لابن السني وأبي نعيم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة معاً.

المشَاهَد لكل إنسان وهي حقيقة الموت، وأن كل نفس لا بُدَّ ذائقته، وأيضاً فإن توفية الأجور وإثابة المحسن وعقاب المسيء حقيقة أيضاً، فإنكم إذا كنتم ستموتون كقضاء قَدَّره اللَّه على كل حَيٍّ، فلا تخافوا؛ لأن كل إنسان سيأخذ حقَّه، ففي يوم القيامة لا يُظلم أحدٌ.

ويبقى الأمل الذي لا ينقطع في أنْ يُزَحْزح عن النار، وكأن للنار جاذبيةً تجذب الإنسانَ ناحيتها، فالنار مُحَاطة بالشهوات، فنحتاج إلى فضل اللَّه وكرمه علينا، بأنْ يبعدنا ويزحزحنا عن النار ويُدخِلنا الجنة، وليس مهماً في أي مكان في الجنة، في أعلاها، أو في أسفلها، فمجرد دخولها هو فوز عظيم.

لذلك كان دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

أي: أن عذابها لازم دائم لا ينتهي.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ . . .﴾ [الفرقان: ٦٥]، كأنهم يتصوَّرون أن جهنم ستسعى إليهم وأن بينها وبينهم لَدَداً[1] بدليل أن جهنم تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

ويقول عن أهل النار: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

والصاحب هو الذي يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه، ويقضي أجمل أوقاته، فكان قوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ دليلاً على عِشْق النار لهم، فهي تفرح بهم عندما يدخلونها كما يفرح الصديق بصديقه ولا تريد أن تفارقهم أبداً.

فالنار تصاحبهم في كل مكان، وهي ليستْ مصاحبة كريهة بالنسبة للنار، ولكنها مُصَاحَبة تحبُّها النار، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة؛ لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج اللَّه، وكذَّبوا بآياته في الحياة الدنيا.

وكذلك الحال بالنسبة للجنة، فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كل مَنْ آمن باللَّه وأخلص له العبادة، وطبَّق منهجه، يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) اللدد: الخصومة الشديدة. [لسان العرب مادة: لدد].

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1] [هود: ٢٣].

فكأن النارَ ستجذب أصحابها، وهم لن يجدوا عنها محيصاً، أي: لا مهربَ ولا مفرَّ، وكان باستطاعة الواحد منهم أنْ يفرَّ من مخلوق مثله في دنيا الأغيار، ولكن حين يكون الأمرُ للَّه وحده فلا مفرَّ. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فحين نسمع ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ تتزلزل النفوسُ رهبةً من تلك الصُّحبة التي نبرأ منها، فالصحبة تدلُّ على التلازم، وتعني الارتباط معاً، وألَّا يترك أحدُهما الآخرَ، كأن الجحيم لا تتركهم، وهم لا يتركون الجحيم، بل تكون الجحيمُ نفسها في اشتياق لهم.

وكأنهم عشقوا النارَ فعشقتهم النارُ، ولو كانت لديهم قدرةٌ على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا، لكنهم مربوطون بها، وهي مربوطة بهم، وهي بئس القرار؛ لأن أحداً لن يخرجَ منها إلا أنْ يشاء اللَّه.

وجهنم اسم من أسماء النار التي يُعذِّب اللَّهُ بها مَن استحقَّ من عبيده، سُمِّيت بـ «جهنم» لبُعْد قَعْرها.

والعذاب فيها دائم، لا يتغير ولا يفتر، ولا يُخفَّف، بل هو مستمر إلى الأبد؛ لذلك يقول تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٨].

أي: أن العذاب يظل دائماً أبداً، وقد يظن بعضُ الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهي أمره، إنه يتناسى قوْلَ الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

مشهد يُشخِّص الهَوْلَ العظيم المُفزِع للقلوب، فتقشعرّ منه الأبدان، وترتعد منه الفرائص، أَمَا من نهاية لهذا العذاب، لسان حال الكافرين الذين أُلقِي بهم في هذه النار، وفي هذا العذاب الذي لا ينتهي بسبب كفرهم وشركهم، فلا هُمْ

---

(١) أخبتوا إلى ربهم: تواضعوا وخشعوا وساروا في الطريق المستقيم المطمئن الواسع. وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] أي: الخاشعين.

يموتون من هذا العذاب، ولا هو يتوقف، ولا حتى تموت جلودهم، فلا تشعر ولا تحسُّ، بل كلما شُوِيَتْ الجلودُ بهذه النار نجد الجلودَ تتبدَّل.

فلا ينتهي الإحساسُ بالعذاب، بل هو دائم مستمر ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

إن اللّه يخلق للمعذَّب إحساساً جديداً؛ ليظل مُستشعراً دائماً العذابَ، قال الحق سبحانه: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: ٨٨]، أي: أن عذابهم مؤكّد، ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٖ ٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

ويقول الحق سبحانه عنهم: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

إن المجرمين يتصايحون ويصطرخون في النار، إنهم هذه المرة لا يطلبون النجاة، فقد علموا وأيقنوا أنْ لا فرارَ منه، ولكنهم هذه المرة يطلبون الهلاك السريع الذي يريحهم من هذا العذاب، فالنفوس قد أطار صوابها العذابُ، ولم يعودوا يحتملون هذا العذاب، فينادون خازن النار: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فيردُّ عليهم مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فلا خلاصَ، ولا رجاءَ، ولا موتَ، ولا قضاء.

بل إنهم يلجؤون لخزنة جهنم، يطلبون منهم الدعاء لهم أن يُخفِّف اللّه عنهم هذا العذاب: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

فهم من شدة البلاء والكَرْب والعذاب يلجؤون لحُرَّاس جهنم، يستشفعون بهم ليُخفِّفَ اللّهُ عنهم يوماً واحداً فقط؛ ليستريحوا فيه من العذاب وليلتقطوا أنفاسهم.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة، وهذا يزيدهم عذاباً على عذابهم، فلا أملَ في النجاة.

لذلك كان عذاب جهنم يستحق من عباد اللَّه المؤمنين الخوفَ والوَجَلَ والارتعاد، فيطلبون من اللَّه صَرْف هذا العذاب عنهم ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥].

وصَرْف العذاب رحمةٌ من اللَّه عز وجل، يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الأنعام: ١٥، ١٦].

فذلك الفوز هو أَرْقى درجات الفوز، أنْ يُصْرَف العذاب عن العبد، فهو فوزٌ واضحٌ مبين، لذلك وصف عبادُ الرحمن النارَ، فقالوا: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

فلا يظنّ أحدٌ أن النارَ فترة وتنتهي: ثم يخرجون منها، فهي مُسْتقر دائم للكافرين، ومقام لن يفارقوه، ولن تفارقهم.

فعباد اللَّه يُوقنون بهذا الأمر؛ يُوقنون بقول اللَّه عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

فحكمة اللَّه اقتضتْ تأجيلَ العذاب إلى وقت يُحَددِّه اللَّه، وفي هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على اللَّه ويُوغِلون في الكفر، ويقولون: ما الذي يمنع عنَّا العذاب؟

إنهم يقولون ذلك استهزاءً وسخرية، ولا يعلمون أن العذاب آتٍ حتماً، ولا خلاصَ لهم منه؛ لأن اللَّه صادقٌ في وعده ووعيده، وسيأتيهم العذاب؛ لأنهم استهزأوا وسخروا، فلا مناصَ لهم عنه، ولا مهربَ لهم منه.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

وهذا تأكيد أن العذابَ سيأتي ولكن العبادَ دائماً يَعجلون، واللَّه سبحانه لا يعجل بعجلة العباد، حتى تبلغ الأمورُ ما أراد، وكلُّ أمر له وقت، وله ميلاد، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون؛ لأن الحق سبحانه يقول: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

وقد جاء تأكيدُ وصول العذاب إليهم بأشياء، منها «ألا» وهي أداةُ تنبيه،

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ وهذا خبر بأن العذاب آتٍ لا محالةَ؛ لأن الذي يُخبر به هو اللَّه سبحانه.

وأيضاً فهذا العذابُ ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: أنه عذابٌ مستمر.

وقوله الحق سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨]، يعني: أنه حَلَّ بهم ونزل عليهم، ووقعَ لهم العذاب الذي استهزأوا به من قبل، فالأمر واقعٌ لا محالةَ، وما دام الحقُّ سبحانه قد قال إنه أمر قد أتى، فهو آتٍ لا محالةَ؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾. [هود: ٨]، فالأمر بالنسبة له سبحانه لن يحولَ بينه وبين وقوعه أيُّ عائق.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

إنهم يستغيثون في الآخرة ويُغاثون بالفعل، ولكن بأيِّ شيء يُغيثهم اللَّه؟ إنه يُغيثهم بماء كالمُهْل[1] يَشْوي الوجوه، إننا ساعة أنْ نسمع «يُغَاثوا» قد نظن أن هناك فرجاً قادماً، ولكن الذي يأتي هو ماءٌ كالمُهْل يَشْوي الوجوه.

وهذا قمة الهَوْل، وذلك مثال السجين الذي يطلب كوبَ ماء، ويستطيع السجان أنْ يقولَ له: لا، ليس هناك ماءٌ. أما إذا أراد السجانُ تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له: سآتي لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال، ويمدُّ السجينُ يده لكوب الماء، لكن السجانَ يسكب كوبَ الماء أرضاً.

وكذلك رغبتهم في الخروج من النار، فلا إرادةَ لهم في الخروج إلا إذا كانت هناك مظنَّة أنْ يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم؛ ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾.. [آل عمران: ٢١].

وتثير البشرى في النفس الأمل في العفو، فيفرحون، ولكن تكون النتيجة هي: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهكذا يريد لهم الحقُّ صدمةَ الألم المُويس بعد الرَّجاء المُطمع.

---

(١) المُهْل: هو دردي الزيت، وقيل: هو العكر المغليّ. قال أبو عمرو: المهل أيضاً: القبح والصديد. [لسان العرب مادة: مهل].

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب يُغاثون، يتبادر إلى الذهن أنهم يُغاثون بشيء من رحمة اللَّه، فتأتيهم نفحةٌ من الرحمة أو يُخفَّف من العذاب.. لا، ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يُخفّف عنهم ألم النار، فإذا بهم بماء كالمهل.

والمُهْل هو عكارة الزيت المغليّ الذي يُسمُّونه الدُّرْدي، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْي الماء، وهكذا يزدادون حرارة فوق حرارة النار، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة.

ولكن الحق سبحانه يقول عن النار: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، أي: محيط بهم، فكأن اللَّهَ تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم، بحيث لا تمتدّ أعينُهم إلى مكان خَالٍ من النار؛ لأن رؤيته لمكان خالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج.

فقوْل الحق سبحانه عن عباد الرحمن أنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، يناسب الذين يفعلون الخيرات، طمعاً في الثواب، وخوفاً من العقاب، فهم الذين يقولون هذا.

كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهيام والعشق، ومعناها: اللزوم، أي لازمٌ لهم لا ينفكّ عنهم في النار أبداً؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً، أو نار أبداً.

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي: لازماً دائماً، ليس مرة واحدة وتنتهي المسألة. ومنه كلمة: الغريم وهو الذي يلازم المَدين ليأخذ منه دَيْنه.

أما عباد اللَّه الذين مال الخوف قلوبهم إشفاقاً من عذاب اللَّه، فجزاؤهم الجنة خالدين فيها أبداً، ويخاطبهم رَبُّ العزة سبحانه، فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

فما دُمْتم عباداً للَّه فلا تخافوا من شيء، ولا تحزنوا على شيء؛ لأن

المسلمَ في الدنيا يقول: لا كرْبَ وأنت رَبٌّ. أي: لا كرْبَ يُخيفنا طالما أن لنا رباً، هو اللَّه الرحمن الرحيم، فالمؤمنون في الآخرة الذين هم عبادُ اللَّه لا يخافون من شيء سيحدث لهم، ولا يحزنون على شيء فَاتَهم في الدنيا من نعيمها؛ لأن ما وجدوه عند اللَّه خيرٌ وأبقى.

ولكن، مَنْ هم هؤلاء العباد؟

يقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٩]. إذن: هناك فرْقٌ بين الإيمان والإسلام، الإيمان عملُ القلب، والإسلام عملُ الجوارح التي تنفذ ما أمر به مَنْ آمنت به، وهو اللَّه.

ولذلك كان المنافقون أسبقَ الناس إلى الصلاة، لكن قلوبهم غير مؤمنة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ ﴾ [الحجرات: ١٤].

فهُم لم يؤمنوا، ولكنهم يقومون بأعمال المسلمين، ولذلك كان بعض المنافقين يحرصون على الصلاة في الصف الأول لينفوا عن أنفسهم تهمةَ النفاق، ومن الظواهر العجيبة أن المدينة وهي منطلقُ الإسلام بالأنصار ظهر فيها النفاقُ، بينما مكة التي كانت تحارب الإسلام والمسلمين لم يظهر فيها نفاقٌ أبداً.

فمعنى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٩]، أي: اقتنعتْ قلوبُهم اقتناعَ يقين. هؤلاء المؤمنون الذين هم عباد اللَّه.

يقول الحق سبحانه عن جزائهم في الآخرة: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠]. أي: تُسَرُّون. أو: يغشاكم الحُبُور وهو لَوْن البَهاء الذي يُشِع من وجه الإنسان التقي لسروره، مِصْداقاً لقوْلِ اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤].

كأن اسمه النعيم الناضج، ومعنى نعيم ناضج أنك حين ترى هذا الإنسان تعرف أنه مُنعَّم ومسرور وفَرِح. إذن: فالوجه هو المرآة المُعبِّرة عما في النفس البشرية، وهذا واقع، فساعةَ ترى أيَّ واحد تستطيع أنْ تحكم عليه إنْ كان مسروراً، أو إنْ كان حزيناً، أو مهموماً ومشغولاً.

إذن: قَوْل الحق سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ يعني: أنه لا شيءَ يُنغِّص عليهم حياتهم السعيدة هذه، فتنُم عنه هذه الوجوه، فساعةَ تراهم تشعر أنهم مُنعَّمون.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥].

فالرحيقُ هنا مُصفّى في ذاته من كُلِّ الشوائب، وفَوْق ذلك فهو مختوم، وذلك دليلُ الصيانة المتناهية، وختامه ليس صفيحاً أو فِلِّيناً، كالذي نختم به المشروباتِ في الدنيا، وإنما ختامه مِسْك. ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، أي: أن هذا هو المجال الذي يصحّ أنْ يكون فيه السباقُ والتنافسُ عليه، فالتنافسُ لا ينبغي أنْ يكونَ في الطفيف من الأشياء، أو المَهين الحقير من حُطام الدنيا وعَرَضها الزائل، بل يكون التنافس على هذا النعيم الدائم الباقي.

والمنافسة معناها المغالبة على الشيء النفيس. تقول: نافستُ فلاناً، أي: غالبتُه على الشيء، أنت تريد أنْ تأخذه، وهو يريد أنْ يأخذه، وكلُّ واحد مِنّا يجدُّ ويجتهد في أنْ يحصلَ على ذلك النفيس، أو هو لونٌ من مجاهدة النفس، هذه المجاهدة لها غايةٌ، هذه الغايةُ أنْ تلحق بالأفضل في الصفات.

إذن: المنافسة أنني أجتهد لأظفرَ بشيء ظفر به فضلاءُ بدون أنْ أُلحِق ضرراً بالآخرين، وبذلك تختلف المنافسةُ عن الحسد، فالذين عندهم طموحٌ للمعالي لا يتنافسون فيما يمكن أنْ يتركهم أو يتركوه، لأننا قُلْنا: إن نعيمَ الدنيا إما أنْ يتركه الإنسانُ بالموت، أو يتركه النعيمُ، بأنْ يزولَ عنه ويُسلب منه، إنما هناك في الآخرة نعيمٌ لا تفوته ولا يفوتك.

إذن: هذا هو التنافس الحقيقي الذي لا بُدَّ أنْ يتنافسَ فيه المتنافسون.

هذا التنافس هو نتيجة لليقين الجازم في معنى قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرأوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وعندما تقول: زحزحت فلاناً، معناه أنه كان متوقفاً برعب وهلع، فكيف يحدث ذلك عند النار؟ فالنار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان، ومجرد الزحزحة عن النار حتى وإن وقف بينهما، لا في النار ولا في الجنة فهذا حسن، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟

فالذي يُزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى، والحق سبحانه لم يقُلْ: ومَنْ أُدخل الجنة فقد فاز، بل قال: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، لأن مجرد أن تُزحزح عن النار فوز عظيم، وفي الآخرة، وبعد الحساب يُضرب الصراط فوق جهنم ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون.

يجتاز المؤمنون الصراط المستقيم كلٌّ حسب عمله، منهم مَنْ يمرُّ بسرعة البرق، ومنهم مَن يمرُّ أكثر بُطأ وهكذا، والكافرون يسقطون في النار.

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط، واللّه سبحانه يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

فمجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى، فحين يروْنَ العذاب الرهيب الذي أنجاهم الإيمانُ منه يحسّ كل منهم بنعمة اللّه عليه أنه أنجاه من هذا العذاب، وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً، فأهل الجنة حينما يرون أهلَ النار يُحسون بعظيم نعمة اللّه عليهم إذ أنجاهم منها، وأهل النار حين يروْنَ أهل الجنة يُحسّون بعظيم غضب اللّه عليهم أنْ حرمهم من نعيمه، فكأن هذه الرؤية نعيمٌ لأهل الجنة وزيادة في العذاب لأهل النار.

فمجرد الزحزحة عن النار فضلٌ ونعمة، فمراحل الفوز أنْ يُزحزحَ الإنسانُ أولاً عن النار، ففي هذا سَلبٌ للمضرَّة وجلبٌ للمنفعة، وإنْ ظل الإنسانُ في موقعه، لا هو في الجنة ولا هو في النار، فهذا هَيِّن أيضاً، وإنْ أُدخلَ الجنة فهذا هو الخير كله.

فرؤية المؤمن للنار قبل أن يدخل الجنة تُريه مدى نعمة اللّه عليه ورحمته به، حيث نجَّاه من هذا العذاب، ويعلم فضل الإيمان عليه، وكيف أنه أخذ بيده حتى مرَّ من هذا المكان سالماً.

أما الكافر فسيُعرض على النار ويراها أولاً، فتكون رؤيته لها قبل أن يدخلها رؤيةَ الحسرة والندامة والفزع، لأنه يعلم أنه داخلها ولن يفلت منها.

لذلك قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]، ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة، يوم تُبْلَى السرائر، يوم يقوم الناسُ لربِّ العالمين، يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً، والأمر يومئذ للَّه.

وسماه المشهد العظيم، لأنه يومٌ مشهود يشهده الجميع لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كلُّ الخَلْق.

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذَّب، فربما تحمَّل هو العذاب في نفسه، أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جميعاً، ويرونه في هذه المهانة وهذه الذلة، وقد كان في الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً، لا شكَّ أن رؤيتهم له في هذه الحالة تكون أنكى له وأبلغ.

وإذا كان عباد اللَّه يذكرون اللَّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خَلْق السماوات والأرض، فإن هذا من يقينهم باللَّه عزَّ وجلَّ، وأن وعده حقٌّ وأن النارَ حقٌّ، وأن الجنةَ حقٌّ.

لذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فهم يتضرعون إلى اللَّه أنْ يقيهم ويُنجيهم من عذاب النار، ويُتبعون دعاءهم هذا بقولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

وهذه هي العظمة، فهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار، ولكنهم يذكرون خزي اللَّه لمن دخل النار، وكأن الخزيَ مرتبةٌ أشرّ من عذاب النار، فمَن الذي أعطانا كلَّ هذا الفضل، إنه سبحانه أعطانا توفيقاً لذكره وتوفيقاً لنتفكر في خلق السماوات والأرض، فهل يصحّ أن نقابله بكفران النعمة؟

وما الذي يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار؟ إنه الخزي والعياذ باللَّه.

وقد سمَّى الحق سبحانه عذاب الخزي مُسميات أخرى، فهو أيضاً عذاب الهُون، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فعذاب الهُون هو العذاب المؤلم وفيه ذلة، فمرّة يكون العذاب مُؤلماً لكن لا ذلةَ فيه، ومرّة يكون العذابُ مؤلماً وفيه ذلة، وكما أن النعمةَ فيها تعظيمٌ فالنقمة فيها ذلة.

وفي آيات أخرى يعطينا الحق سبحانه صورة حية ماثلة للأعين، للعذاب في جهنم وتنوّعه بين العذاب الحسي والمعنوي، فيقول تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩].

ويقول أيضاً: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

ويقول أيضاً: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧].

كلها تدور حول الذَّوْق والإذاقة في العذاب، فالإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً، وذلك هو العذاب المهين، والذَّوق هو الإحساس بالمطعوم شراباً كان أو طعاماً، إلا أنه تعدَّى كل مُحَسٍّ به، ولو لم يَكُنْ مطعوماً أو مشروباً.

فقوله: أي: ذُق الإهانة والمذلة، لا مما يطعم أو مما يُشرب، ولكن بالإحساس، فالإذاقة تتعدى إلى كل البدن، فالأنامل تذوق، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق، والرقبة تذوق.

وهذا اللون من إذاقة الذل والإهانة في الدنيا لهؤلاء مجرد نموذج بسيط لشدة عقاب اللَّه، وعذاب الآخرة سيكون مَهُولاً، والعذاب هو إيلام الحسِّ، إذا أحببتَ أنْ تديم ألمه فأبْق فيه آلةَ الإحساس بالألم.

لذلك قال عباد الرحمن وجلين خائفين من عذاب اللَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

هؤلاء الذين قال اللَّه فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فهم يخافون اللَّه بالغيب، مع أنهم لا يرونه بأعينهم، يخشوْنَ ربهم في خلواتهم عن الخلق، فمهابة اللَّه والأدب معه تلازمهم حتى في حال خلواتهم وانفرادهم.

بينَ البُخْل والتَّبذير

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

نشد اللَّه عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد، فقال لأحدهما: «أي فلان»، فقال: لبيك رب وسعديك. قال: «ألم أكثر لك من المال والولد؟» قال: بلى أي رب، قال: «فكيف صنعتَ فيما آتيتك؟» قال: تركته لولدي مخافةَالعيلة عليهم. قال: «أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ولبكيت كثيراً، أما إن الذي تخوفت عليهم قد أنزلته بهم».

ويقول للآخر: «أيْ فلان بن فلان»، فيقول: لبيك أي ربّ وسعديك قال: «ألم أكثر لك من المال والولد؟» قال: بلى أي رب، قال: «فكيف صنعتَ فيما آتيتك؟» قال: أنفقته في طاعتك، ووثقت لولدي من بعدي بحُسن عدلك، فقال: «أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً، أما إن الذي وثقتَ لهم قد أنزلته بهم»[(١)].

يقول الرحمن عزَّ وَجَلَّ عن عباد اللَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وموقفهم هذا هو تحقيقٌ لجانب من جوانب قِوَامة منهج اللَّه في مجال الإنفاق، وتصرُّف المرء في ماله، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً، لا تبذيرَ فيه ولا تقتير.

ولا شكَّ أن الإنسان بطبعه يحب أنْ يُثري حياته، وأنْ يرتقي بها، ويتمتع بترَفِها، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذِّراً، لا يُبْقِي من دخله على شيء، بل لا بُدَّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجدَ في جُعْبته ما يمكنه أنْ يُثريَ حياته ويرتقي بها، ويُوفِّر لأسرته كماليات الحياة، فضلاً عن ضرورياتها.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٢٠٥) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

فللإنسان في حياته طموحاتٌ تتتابع ولا تنتهي، خاصة في عصر كثرتْ فيه المُغريات، فإنْ وصل إلى هدف تطلَّع لمَا هو أكبرُ منه، فعليه إذن ألَّا يُبدِّد كل طاقته، وينفق جميع دَخْله.

وكما نهى الإسلامُ عن التبذير نهى أيضاً عن البخل والإمساك، لأن البُخْل مذمومٌ، والبخيل مكروهٌ من أهله وأولاده، كما أن البخلَ سببٌ من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع، فالمُمسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء، فيسهم ببُخله في تفاقم هذه المشاكل، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه.

إذن: فالتبذير والإمساك كلاهما طرفٌ مذموم، والخير في أوسط الأمور وهذا هو الأقوم الذي ارتضاه لنا المنهج الإلهي.

والتبذير مأخوذٌ من البَذْر، وهو ما يقوم به الفلَّاح، فيأخذ البذور التي يريد زراعتها، وينثرها بيده في أرضه، فإذا كان مُتقِناً للأمر تجده يبذر البذور بنسَب متساوية، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها، وتكون المسافةُ بين البذور متساويةً.

وبذلك يعطي الزرعُ المحصولَ المرجوَّ منه، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة، فهي كثيرة في مكان، وقليلة في مكان آخر، وهذا ما نُسمِّيه تبذيراً؛ لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب، فهي قليلةٌ في مكان، مزدحمةٌ في آخر فيُعاق نموُّها.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، لأن المبذِّر يضع المالَ في غير موضعه المناسب، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم، في حين يُمسك في الشيء الضروري.

إذن: التبذير هو صَرْف المال في غير حِلِّه أو في غير حاجة أو ضرورة.

وقد فسَّر عبد اللَّه بنُ مسعود وعبد اللَّه بنُ عباس التبذيرَ بأنه الإنفاقُ في غير حقٍّ[1]، وقال مجاهد: لو أنفق إنسانٌ ماله كله في الحق

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦).

لم يكُنْ مُبذِّراً، ولو أنفق مُدّاً[١] في غير حَقٍّ كان مُبذِّراً[٢].

فليس التبذير هو الكثرة والقلة في الإنفاق، بل هو موضع الإنفاق، ومن ثَمَّ كان المبذِّرون إخوانَ الشياطين، لأنهم ينفقون في أوجه الباطل والشرِّ والمعصية، فهم رفقاء الشياطين وصحابهم. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٧].

لأنه لا يؤدي حقَّ نعمة اللَّه كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حقَّ نعمة اللَّه عليهم وحقُّها أنْ ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين.

فالكون الذي تعيش فيه لك فيه مصالح، وتراودك فيه آمال، فإنْ شاركتَ في حركة الحياة، واكتسبتَ المال الذي هو عَصَبُ الحياة، فعليك أنْ توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك في المستقبل.

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبتَ في نفقاتك الحاضرة، فقد ضيَّعْتَ على نفسك تحقيق الآمال في المستقبل، فلن تجد ما تبني به بيتاً مثلاً، أو تشتري به سيارة أو ترتقي بمستواك ببعض كماليات الحياة، وهذا ما نسميه الإسراف.

لذلك يقعد مَلُوماً محسوراً، يلوم نفسه على ماله الذي ضيَّعه، الذي استنفد منه عمراً وجهداً وصحة، لن يعود الزمان به ليُعوِّض شيئاً منها، يتحسر على ما فرَّط في حقِّ نفسه.

ورسول اللَّه ﷺ يقول في فضيلة القصد في المعيشة وعدم الإسراف: «من فقه الرجل رفقه في معيشته»[٣].

وقال نبي اللَّه ﷺ: «ما عَالَ مَن اقتصد»[٤].

أي: ما افتقر واحتاج مَن اقتصد في معيشته، فكان وسطاً بين الإسراف

---

(١) المُد: نوع من المكاييل، وهو ربع صاع، وهو قدر مد النبي ﷺ، والصاع: خمسة أرطال. والصاع: أربعة أمداد. [لسان العرب مادة: مدد].

(٢) نقله ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٦).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٩٤) من حديث أبي الدرداء رضي اللَّه عنه.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٤٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٣٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

والتقتير، والتبذير والبخل، فيضع ماله حيث تكون الضرورة والنفع، فلا يكُنْ الإنسان جاحداً لنعمة اللَّه عليه غير آبه بها، فيضيع ماله فيما حرَّم اللَّه، أو فيما لا يفيد، ويترك أهله ومَنْ يعولهم يتكفَّفون الناس.

ولا يكُنْ قانطاً يائساً يظن أن اللَّه لن يرزقه إنْ هو أنفق، ولذلك يقول تعالى في نفس الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فليعلم العبد أن الرازق هو اللَّه، هو الذي يبسط الرزق ويُوسِعه، وهو الذي يَقْدِر الرزق ويُضيِّقه، هو الذي يعطي الرزق، فلا تخْشَ من ذي العرش إقلالاً.

والحق سبحانه يعطينا ملمحاً آخر للإسراف في مجال آخر لتوجيه القائمين على أموال اليتامى، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[(١)] [النساء: ٦].

فعندما يبلغ اليتيم الرُّشد، وقد تم تدريبه على حُسْن إدارة المال، وعرف الوصيُّ أن اليتيم قد استطاع أنْ يدير ماله، ومن فَوْر بلوغه الرشد يجب على الوصيِّ أنْ يدفع إليه ماله، ولا يصحّ أنْ يأكل الوصيُّ مالَ اليتيم إسرافاً.

فالحق سبحانه يحذرنا من الإسراف في مال اليتيم في أثناء مرحلة ما قبل الرُّشْد، وذلك خوفاً من أن يكبر اليتيم، وله عند الوليِّ شيءٌ من المال. أي أن يسرف الولي فينفق كل مال اليتيم قبل أنْ يكبر اليتيم ويَرْشُد، واللَّه سبحانه وتعالى حين يُشَرِّع فهو بجلال كماله يشرع تشريعاً لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد.

والمسرف سفيه، لا صلاحَ له في عقل، ولا يستطيع أن يُصرِّف ماله بالحكمة، مما يذهب بالمال ويفسده.

---

(١) بادر الشيء مبادرة وبداراً وابتدره وبدر غيره إليه: عاجله. [لسان العرب مادة بدر]. وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٣): «ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية (إسرافاً وبداراً) أي: مبادرة قبل بلوغهم».

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

ومثل هذا السفيه أو المُبذِّر لا سلطةَ لأيٍّ منهما في المال، بل سلطة التصرُّف تكون للوصيِّ، وينتسب المال في هذه الحالة للوصي؛ لأنه القائم عليه والحافظ له، فالسفهاء غير مأمونين على المال.

فالسفيه لا حَقَّ له في إدارة ماله حتى يرشد؛ لأن المال في الواقع هو مال كل المسلمين، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين، وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح، فإنْ لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حَجْر، ذلك لأن أيَّ شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع.

وفي المقابل، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء، فكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك، فتكنز كل ما تكتسب ولا تنفق إلا ما يمسك الرمق؛ لأنك في هذه الحالة لن تساهم في عملية الاستهلاك، فتكون سبباً في بطالة المجتمع وفساد حاله.

وقد عالج القرآنُ الكريم هذه القضية علاجاً دقيقاً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

أي: لا تمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً، فتكون مَلُوماً من أهلك وأولادك، ومن الدنيا من حولك، فيكرهك الجميع، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدِّ الإسراف والتبذير، فيفوتُك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة، وترقَّى هو في حياته، وأنت مُعْدَم لا تملك شيئاً، فكان عليك أنْ تدخر جزءاً من كَسْبك، يمكنك أن ترتقي به حينما تريد.

فالحق سبحانه يقيم في هذه الآية موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة، فلا تجعل يدك التي بها العطاء مغلولة، أي: مربوطة إلى عُنقك، وحين تُقيَّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك.

وفي المقابل قوله سبحانه: ﴿تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، فالنهي

هنا عن كل البَسْط. إذن: فيُباح بعض البَسْط، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة، وبَسْط اليد كنايةٌ عن البذل والعطاء.

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

والهداية هي الطريق المُوصَّل للغاية من أقرب وجه وبأقلّ تكلفة، وهو الطريق المستقيم الذي لا التواءَ فيه، والحق سبحانه يهدي الجميع، ويرسم لهم الطريق، فمَن اهتدى زاده هدى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

لأن المتتبِّع للمنهج القرآني يجده يُقدِّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط في كل

شيء: في العقائد، وفي الأحكام، وفي القصص.

إذن: لا تبسط يدك كُلَّ البَسْط، فتنفق كلَّ ما لديك، ولكن بعض البسط الذي يُبقي لك شيئاً تدخره، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقي بحياتك، فالإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة، ويسهم في إنمائها ورُقيِّها، على خلاف القبض والإمساك، فإنه يُعرقل حركة الحياة: وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها.

إذن: لا بُدَّ من الإنفاق لكى تساهم في سَيْر عجلة الحياة، ولا بُدَّ أن يكون الإنفاق معتدلاً، حتى تُبقي على شيء من دَخْلك، تستطيع أن ترتقي به وترفع من مستواك المادي في دنيا الناس.

فالمبذِّر والمسرف تجده في مكانه، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة، كيف وهو لا يُبقى على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة، ونُوفر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي.

وتأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ووَضْع القعود يدلُّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء، فكلمة تقعد تفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة

فيها؛ لذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

وقَوْل الحق: ﴿مَلُومًا﴾ أي: أتى بِفعْل يُلام عليه، ويُؤنَّب من أجله، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولاده وأهله، وكذلك المُمسِك البخيل، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن. ﴿مَّحْسُورًا﴾ أي: نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة، من قولهم: بعير محسور. أي: لا يستطيع القيام بحمله. وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته أو القيام بأعبائها وطموحات المستقبل له ولأولاده من بعده.

فإنْ قبضتَ كلَّ القبض فأنت مَلُوم، وإنْ بسطْتَ كلَّ البسط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها. إذن: فكِلَا الطرفين مذموم، ويترتب عليه سوءٌ لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع. إذن: فما القصد؟

القصد أنْ يسير الإنسان قَواماً، وسطاً بين الإسراف والتقتير، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً، ينظم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع، فابسُطْ يدك بالإنفاق لكي تساهم في سير عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء، لكن ليس كلَّ البسط، بل تُبقِي من دَخْلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة، وكذلك لا تمسك ولا تُقتر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك، لا تتفاعل معه، ولا تُسهم في إثراء حركته.

والحق سبحانه وتعالى هو صاحب الخزائن التي لا تنفد، وهو القائل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.. [النحل: ٩٦].

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كلَّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه، كما قال في الحديث القدسي[١]: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وحيّكم وميتكم، وشاهدكم وغائبكم، وإنسكم وجنكم، اجتمعوا في صعيد

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه وقال: حديث حسن. وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٧٧، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧).

واحد، فسألني كُلٌّ مسألته، فأعطيتُها له، ما نقص ذلك مما عندي إلا كمِغْرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر، ذلك أنِّي جواد واجد ماجد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري لشيء إذا أردته أنْ أقول له كُنْ فيكون».

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فاللَّه الذي لا تنفد خزائنه يعطي خَلْقه بقَدَر، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البَسْط، ولا يقبضه عنهم كلَّ القبض، بل يبسط على قوم، ويقبض عن آخرين لتسير حركة الحياة؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناسِ، وحدثت بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم.

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل، وصاحب العمل إلى مال، فتلتقي حاجاتُ الناس بعضهم لبعض، وبذلك يتكامل الناس ويشعر كلُّ عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة.

والحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب، بل المواهب مُوزَّعة بين

الخَلْق جميعهم، فأنت صاحب موهبة في مجال، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا، ليظلَّ الناس يحتاج بعضهم لبعض.

فالغنيّ صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوجه اللَّهُ لأقلِّ المهن التي يستنكف أنْ يصنعها، ولا بُدَّ له منها لكي يزاولَ حركة الحياة، والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أنْ يتفضَّل الناسُ على الناسِ بل لا بُدَّ أن ترتبطَ مصالحُ الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض.

فإذا كان الحق لا يبسط لعباده كلّ البَسْط، ولا يقبض عنهم كلَّ القبض، بل يقبض ويبسط، فوراء ذلك حكمة للَّه تعالى بالغة، لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده يُنظِّم حياتهم، وعلى العبد أنْ يرضى بما قُسِم له في الحالتين، وأنْ يسير في حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره اللَّه له من الرزق.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: مَنْ ضُيِّق عليه الرزق فليُنفق على قَدْره، ولا يتطلع إلى ما

هو فوق قدرته وإمكاناته، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحةَ في الدنيا، وتُوفِّر له سلامة العيش.

ورحم اللَّه امرءًا عرف قَدْر نفسه، لأن الذي يُتعب الناس في الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّق عليه في الرزق يريد أنْ يعيش عِيشَة الموسَّع عليه رزقه، ويتطلع إلى ما فضَّل اللَّه به غيره عليه.

فلو تصوَّرنا مثلاً زميلين في عمل واحد، يتقاضيان نفس الراتب:

الأول: غنيٌّ، وفي سَعَة من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه.

والآخر: فقير، ربما يساعد أباه في نفقات الأسرة.

فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما، فعلى الفقير ألَّا ينظر إلى وضعه الوظيفي بل إلى وضعه ومستواه المادي فيشتري بما يتناسب معه، ولا يطمع أنْ يكون مثل زميله؛ لأن لكلٍّ منهما قدرة وإمكانية يجب ألَّا يخرج عنها.

هذه هي النظرة الاقتصادية الدقيقة، والتصرُّف الإيماني المتزن؛ لذلك فالذي يحترم قضاء اللَّه ويرضى بما قَسَمه اللَّه له ويعيش في نطاقه غيرَ متمرد عليه، يقول له الحق سبحانه: لقد رضيتَ بقدري فيك، فسوف أرفعك إلى قدري عندك، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق.

وهذا مُشَاهَد لنا في الحياة، والأمثلة عليه واضحة، فكَمْ من أُناسٍ كانوا في فقر وضيق عيش، فلما رضوا بما قسمه اللَّه ارتقتْ حياتهم وتبدَّل حالهم إلى سَعَة وترفٍ.

فالحق سبحانه يبسط الرزق لمَنْ يشاء ويقدر؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع الإنسانُ نفسه دائماً في مقام الخلافة في الأرض، ولا ينسى هذه الحقيقة، فيظن أنه أصيلٌ فيها.

والخيبة كلّ الخيبة أنْ ينسى الإنسانُ أنه خليفةٌ للَّه في الأرض، ويظن أنه أصيلٌ في الكون، فأنت فقط خليفةٌ لمن استخلفك، ممدود مِمَّنْ أمدَّك، فإياك أن تغترَّ، وإياك أنْ تعيش في مستوى فوق المستوى الذي قدَّره اللَّه لك.

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكون كله لأن اللَّه تعالى جعل الدنيا أغياراً.

وجعلها دُوَلاً، فالذي وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً، والذي ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً.

وهذه سُنة من سُنَن اللَّه في خَلْقه لِيدُكَّ في الإنسان غرورَ الاستغناء عن اللَّه، فلو متَّع اللَّهُ الإنسانَ بالغنى دائماً لَمَا استمتع الكون بلذة: يا رب ارزقني، ولو متَّعه بالصحة دائماً لَمَا استمتع الكونُ بلذة: يا رب اشْفِني. لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه، محتاجاً إليه، داعياً إياه.

وقد قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه، وتُوصله به سبحانه. فالبَسْط والتضييق من اللَّه تعالى له حكمة، فلا يبسط لهم الرزق كلَّ البسط، فيعطيهم كلَّ ما يريدون، ولا يقبض عنهم كلّ القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون، بل يعطي بحساب وبقدر، لتستقيم حركة الحياة.

كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧].

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

فلو لم يُوزَّع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم، فمن بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه، ومَنْ ضُيِّق عليه يتمرد على الكون، ويحقد على الناس، ويحسدهم ويعاديهم.

أما إذا علم الجميع أن هذا بقَدر اللَّه وحكمته، فسوف يظل الكونُ المخلوق موصولاً بالمكوِّن الخالق سبحانه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ [الإسراء: ٣٠]، ملمحٌ لطيف، فربك يا محمد وأنت أكرم الخَلْق عليه، ومع ذلك بسط لك حتى صِرْت تعطى عطاءَ مَنْ لا يخشى الفقر، وقبض عنك حتى تربطَ الحجر على بطنك من الجوع.

فإنْ كانت هذه حاله ﷺ، فلا يستنكف أحدٌ مِنَّا إنْ ضيّق اللَّهُ عليه الرزقَ، ومَنْ مِنَّا ربط الحجر على بطنه من الجوع؟

لقد جاء القرآنُ لأمة وسط بالأمور الوسط في كل شؤون الحياة، ففي قمة المسائل وهي الأمور العقدية مثلاً يقف الإسلامُ موقف الوسطية بين مَنْ

ينكرون وجود الإله ومَنْ يقول بآلهة متعددة، فينفي هذه وهذه ويقول بوجود إله واحد أحد لا شريكَ له.

وفي الإنفاق يختار الوسط، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وبذلك ضمن لأهله نظاماً اقتصادياً ناجحاً يُثري حياة الجماعة، ويَرْقَى بحياة الفرد، وقد لخص هذا المنهج الاقتصادي في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

فالمُمسك المُقتِّر الذي يقبض يده عن الإنفاق يتسبب في ركود البضائع وتوقُّف حركة الحياة، وهذا خطر على المجتمع، وفي التبذير خطر على الفرد حيث ينفق كل ما معه، ولا يبقي على شيء يرتقي به في الحياة، فإذا لم تتبع هذا المنهج الحكيم فسوف تقعد ملوماً على الإمساك، محسوراً على التبذير الذي فوَّتَ عليك فرصة الترقي مثل الآخرين.

ويُروى أن عبد الملك بن مروان لمَّا أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة: يا عمر، ما نفقتك؟ قال: يا أمير المؤمنين، نفقتي حسنةٌ بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سيراً يضمن له ولزوجته مقومات الحياة ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع، وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دخله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده، لأنه أسرف في الإنفاق، ولم يدخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً أو يشتري سيارة.. الخ.

وقد كان من وصايا عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه لولده عاصم: كُلْ نصف بطنك، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقته (أي: أصبح قديماً بالياً)، ولا تجعل كلَّ رزقك في بطنك وعلى جسدك.

حتى إذا أردتَ أن توصي وصية من مالك فكُنْ وسطاً متوازناً، فعن سعد ابن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة. قال: يرحم اللَّه ابنَ عفراء. قلتُ: يا رسولَ اللَّه أوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت:

فالشطر؟ قال: لا. قلت: الثلث؟ قال: «فالثلث والثلث كثير، إنك إنْ تدعْ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكفَّفون الناس».

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى، فربُّك عزَّ وجلَّ خلقك وخلق لك مقومات حياتك وحدَّ لك الحلال والحرام، فإذا حاولتَ أنت أن تزيد في جانب الحلال مما حرَّمه اللَّه عليك، فهذا إسرافٌ منك وتجاوز للحدِّ الذي حدَّه لك ربك، تجاوزت الحد فيما أحل لك وفيما حرم عليك.

وقد يأتي الإسراف من ناحية أخرى، فالشيء في ذاته قد يكون حلالاً لكن أنت تأخذه من غير حله، فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن اللَّه تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء، فلا تنقل شيئاً مما حرم إلى شيء أُحلَّ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم.

قال الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

إذن: فربُّك لا يُضيق عليك وينهاك أن تُضيِّق على نفسك وتُحرِّم عليها ما أحل لها، كما يلومك على أن تحلل ما حرم عليك لأن ذلك في صالحك.

وكما يكون الإسراف في الطعام والشراب وهما من مُقومات استبقاء الحياة، يكون كذلك في استبقاء النوع بالزواج والتناسل إلى أن تقوم الساعة، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال، فمَن تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف.

وحينما ذهب عثمان بن مظعون إلى رسول اللَّه ﷺ، وقد أراد أن يذهب ويتنسك ويسيح في الكون، وقال لرسول اللَّه: يا رسول اللَّه.. إنني أريد أن أختصي. أي: أن يقطع خصيتيه، كى لا تبقى له غريزة جنسية، فقال رسول اللَّه ﷺ له: «يا عثمان خصاء أمتي الصوم».

ولذلك قال ﷺ في شأن مَنْ لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء».

وقد رُوي أن رسول اللَّه ﷺ ذكَّر الناس وخوَّفهم، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أنْ يصوموا النهار ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء ويَجُبُّوا مذاكيرهم.

فكان التوجيه النبوي أن حَمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «ما بالُ أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوَّج النساء، فمَنْ رغب عن سنتي فليس مني».

إنه خيط واحد يربط كل ذلك، وهو أن يكون الإنسان ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

العبادة والطاعة والنية لإله واحد

عن الضحاك بن قيس الفهري قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«إنَّ اللَّهَ عز وجل يقول: أنا خير شريك، فمَنْ أشرك معي شريكاً فهو لشريكي، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم للَّه عز وجل فإن اللَّه لا يقبل إلا ما أُخلص له، ولا تقولوا: هذا للَّه وللرحم، فإنها للرحم وليس للَّه منها شيء. ولا تقولوا: هذا للَّه ولوجوهكم، فإنها لوجوهكم، وليس للَّه منها شيء»(١)

ثم يَصِف الحقُّ سبحانه عباده بصفة أخرى، قد يسأل سائل عنها ويقول: أبعد كل هذه الصفات لعباد اللَّه نطلب منهم أنْ لا يدْعوا مع اللَّه إلهاً آخر، وهم ما اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم لا يشركون مع اللَّه أحداً، ولا يدعون أحداً إلا اللَّه.

إن الحق سبحانه جعل هذه القضية أساسَ الإسلام وكل دين، بل هي الركن الركين فيه، فلا يصحّ للإنسان عملٌ أو قول إلا إذا كان خالصاً للَّه وحده.

فإذا كان عباد اللَّه يمشون على الأرض هَوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ويبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً، ويقولون: ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم، وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قواماً.

كلُّ هذه الصفات يحتاج إلى إخلاص النية وصدق التوجه إلى اللَّه، وكما قال رسول اللَّه: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ امرىء ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله فهجرتُه إلى اللَّه ورسوله ومَنْ كانت

(١) أخرجه الدارقطني في سننه من حديث الضحاك، وذكره في الاتحافات السنية وعزاه للخطيب في المتفق والمفترق، وانظر مجمع الزوائد للهيثمي (١٠/ ٢٢١).

هجرته لدُنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[١].

فقد يفعل مجموعةٌ من البشر عملاً واحداً، ولكنَّ كُلًّا منهم له نية تختلف عن نية الآخر، ويعطينا الحديث الشريف مثالاً من أهم شيء حدث في تاريخ المسلمين، وهو هجرة المسلمين مع رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى المدينة.

فمنهم مَنْ هاجر قاصداً اللَّه ورسولَهُ، وابتغاءَ مرضاتهما، وهرباً بدينهم من إيذاء وفتنة المشركين لهم، ومنهم مَنْ كانت له نيةٌ أخرى، وهاجر لغرض آخر، وهو اللحاق بامرأة يحبها، ولكنها أسلمت وهاجرت، فهاجر وراءها، وقد اشتُهر في هذا قصة مهاجر أم قيس، حتى أن ابن مسعود قال: مَنْ هاجر يبتغي شيئاً فهو له[٢].

قال ابن مسعود: كان فينا رجلٌ خطب امرأة يُقال لها: أم قيس. فأبَتْ أنْ تتزوَّجه حتى يهاجر، فهاجر، فتزوجها، فكُنَّا نسميه مهاجر أم قيس.

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فَصَلاحها وفسادها بحسب النية الباعثة عليها، كالجهاد والحج، وقد سُئِل النبي ﷺ عن اختلاف نيات الناس في الجهاد وما يُقصد به من الرياء وإظهار الشجاعة والعصبية وغير ذلك: أيُّ ذلك في سبيل اللَّه؟ فقال[٣]: «مَنْ قاتل لتكون كلمةُ اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه» فخرج بهذا كلُّ ما سألوا عنه من المقاصد الدنيوية.

وروى أبو هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أولَ الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهد فأُتيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتَلتُ فيك حتى استشهدْتُ. قال: كذبْتَ، ولكنك قاتلتَ، لأنْ يُقالَ: جريء، فقد قيل. ثم أُمِر به فسُحب على وجهه، حتى أُلقِي في النار».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر. قال الشافعي: هذا الحديث ثلث الإسلام، و يدخل في سبعين باباً من أبواب الفقه. وقال ابن مهدي وغيره: ينبغي لمن صنَّف كتاباً أن يبدأ بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية.

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم ص ٢٢، وعزاه لوكيع في كتابه عن الأعمش بسنده.

(٣) أخرج البخاري في صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه، فمَنْ في سبيل اللَّه ؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة اللَّه أعلى فهو في سبيل اللَّه».

«ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأُتِي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمْتُ العلم وعلَّمته وقرأتُ فيك القرآن. قال: كذبْتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال: عالم. وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقيَ في النار».

«ورجل وسَّع اللَّهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أنْ يُنْفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبْت، ولكنك فعلْتَ ليُقال: هو جَوَاد، فقد قيل ثم أُمِر به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلْقِي في النار»[1].

لذلك كان قَوْلُ الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالناس يعملون الخير لغايات رسمها اللَّه لهم في الجزاء، ومن هذه الغايات الجنةُ ونعيمها، لكن هذه الآية تُوضِّح لنا غايةً أسمى من الجنة ونعيمها، هي لقاء اللَّه تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، فقوله تعالى: ﴿يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، يصرف النظر عن النعمة إلى المُنعِم تبارك وتعالى.

فمَنْ أراد لقاء ربه، لا مجرد جزائه في الآخرة فليعمل عملاً صالحاً، ثم لا يشرك مع اللَّه أحداً، لا في عمله، ولا في نيته.

فبعض البشر توجد عندهم صفات الأريحية والإنسانية، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصنع الخير، ويُقدم الصدقات، ويُقيم المؤسسات رعايةً للمحتاجين والعاجزين، سواء كانت صحية أو اقتصادية، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية، لا من زاوية منهج اللَّه، فيكون كلُّ ما فعله حابطاً، ولا يُعترف له بشيء؛ لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان باللَّه.

فلا تظن أن الذي يصنع الخير دون إيمان باللَّه له أجرٌ عند اللَّه، فاللَّه سبحانه يجازي مَنْ كان مؤمناً به، وكان اللَّه في بال العبد ساعة يصنع الخير فمَنْ صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٢) ومسلم في صحيحه (١٩٠٥) والنسائي في سننه (٦/ ٢٣، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

جزاءه ممَّنْ عمل له، وما دام قد صنع ذلك من أجل أن يُقالَ عنه ذلك فقد قيل، إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن اللَّه يجازي في الآخرة مَنْ كان اللَّهُ في باله ساعةَ أن عمل.

فمَنْ عمل عملاً من أعمال الخير وليس في باله الذي يعطي الثواب وهو اللَّه، بل كان في باله الخلق حبط عمله، يقول الحق سبحانه عن الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

ومعنى ﴿حَبِطَتْ﴾ أي: لا ثمرة مرجوة من العمل، إن كل عمل يعمله العاقل لا بد أن يكون لهدف يقصده، فأيُّ عمل لا يكون له مقصدٌ يكون كضربة المجنون، ليس لها هدف.

إن العاقل قبل أن يفعل أيَّ عمل ينبغي أن يعرفَ الغاية منه، وما الذي يُحققه من نفع؟ وهل هذا النفع الذي سوف يحققه هو خير النفع وأدومه؟ أو هو أقلّ من هذا؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقلُ عمله، وحينما يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنساناً قد يعمل عملاً هو في ظاهره خير، فإياك أن تغترَّ أيها المؤمن بأنه عمل خيراً، لماذا؟ لأن عمل الخير لا يُحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمَنْ يجازي.

فالإنسان إن عمل عملاً قد تصلح به دنياه فهو عملٌ حسن، فلماذا يكون عمل هؤلاء الكافرين حابطاً في الدنيا وفي الآخرة؟ إنه حابطٌ بموازين الإيمان، ويكون العملُ حابطاً لأنه لم يصدر من مؤمن؛ لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقةً بنتيجة العمل، لا ثقةً بالآمر الأعلى، أما الإنسان المؤمن فإنه حين يقوم بالعمل يقوم به ثقةً في الآمر الأعلى.

وبعضُ الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازي الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية، يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أن باستير الذي اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذي اكتشف الأشعة، وكلُّ هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار؟

لهؤلاء نقول: الحق بعدالته أراد ذلك، ولنحتكم نحن وأنتم إلى أعراف الناس، إن الذي يطلب أجراً على عمل يطلبه ممَّنْ؟ إنه يطلب الأجر ممَّنْ عمل له، فهل كان اللَّهُ في بال هؤلاء العلماء وهم يعملون هذه الأعمال؟

إن بالهم كان مشغولاً بالإنسانية، وقد أعطتْهم الإنسانية التخليد، وغير ذلك من مكاسب الدنيا. إذن: فإذا كان الجزاء من اللَّه، فَلَنَا أن نسأل: هل كان اللَّهُ في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم؟

لم يكُنْ في بالهم اللَّه، والذي يطلب أجراً فهو يطلبه مِمَّن عمل له، ولم يُضِع اللَّهُ ثمرةَ عملهم، بل درَّتْ عليهم أعمالهم الذِّكْرَ والجاه والرفعةَ، ولم يُضِع اللَّه أجرَ مَنْ أحسن عملاً.

يقول الحق سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فاللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ لن يُضيّع أجر أعمالهم الحسنة، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا، لكن حَرْث الآخرة ليس لهم، فهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالاً حسنة، ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة، وقد يوجد مَنْ عمل عملاً حسناً نافعاً للناس، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاءً للَّه، بل للشهرة لينتشر ذكْره ويذيع صيته، ويُثني الناسُ عليه، أو للجاه والمركز والنفوذ.

ولذلك حين سُئِل رسول اللَّه ﷺ: مَنِ الشهيد؟ قال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه»[1]. لأن الرجل قد يقاتل حميةً، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع، فقتالُ الرجل دائماً بحَسْب نيته، فالقتال مرّة يكون في سبيل اللَّه، ومرّة يكون في سبيل النفس، ومرّة يكون في سبيل الشيطان.

فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته، أو أي انتماء آخر، وكلُّ هذه الانتماءات في عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج اللَّه، لتكون كلمةُ اللَّه هي العليا. والحق سبحانه يقول: ﴿قُلْ

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٣)، وكذا مسلم (١٩٠٤).

أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٥٣].

وقد يطرأ سؤالٌ على خاطر المؤمن؛ ألَا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير؟ وألَا يأتي إليهم أدنى خير؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير.

فنقول: شَرْط تقبُّل اللَّه لأيِّ عمل إنما يأتي بعد الإيمان باللَّه، إما أنْ تعمل وليس في بالك اللَّه، فَخُذْ أجرك ممَّنْ كان في بالك وأنت تعمل؛ لذلك ضرب اللَّه مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

فَمنْ فعل شيئاً وليس في باله اللَّه سيُفاجأ يوم القيامة بأن اللَّهَ تعالى الذي لم يكُنْ في باله موجودٌ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذي سيحاسبه، فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ويطمئن إلى جزائه، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فإنه يأخذ من اللَّه الحياةَ فيفنيها فيما لا ينفع، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

وقد صوَّر الحقُّ موقفهم التصويرَ الرائع في هذه الآية. إنه سرابٌ ناتج عن تخيُّل الماء في الصحراء، يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء، فيظلّ السائرُ متجهاً إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً، ويُفَاجأ بوجود اللَّه، فيندم ويتلقَّى العذاب.

كذلك لن يُقبل منه ملءُ الأرض ذَهَباً لو أنفقه في أيِّ خير في الدنيا، ولن يقبل اللَّهُ منه مِلءَ الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه في الآخرة، إنْ كان سيجد ملءَ الأرض ذهباً، وعلى فرض أنه قد وجده فهل يجد مَنْ يقبل ذلك منه؟

لا، إنه في الحقيقة لن يجد الذهب؛ لأنه في الآخرة لم يَعُدْ يملك شيئاً، فمَنْ فعل وليس في باله اللَّه، بل كان في باله المجد وتخليد الذكْر، فقد أعطتْهم الإنسانيةُ ما يريدون، فخلَّدتْ ذكراهم وأقامتْ لهم التماثيل، ومنحتهم الأوسمة، ووضعتْ فيهم المؤلفات لتمدحهم.

هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس، فأنت إذا صنعتَ معروفاً تقصد به وجهَ اللَّه عز وجل جزاك اللَّهُ عنه خيراً، ولكن إنْ عملتَ معروفاً لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك، أو تأخذ بها شهرة، فلا جزاءَ لك عند اللَّه.

ولا بُدَّ أنْ يصنع الإنسانُ المؤمنُ كلَّ عمل، وفي باله اللَّه خالقه والمتفضِّل عليه بالنعم، فإذا أطعمتَ فقيراً فَلْتُطْعمه لوجه اللَّه، وعليك ألَّا تفعل المروءةَ من أجل أنْ يُقال عنك: إنك صاحبُ مروءة.

وعلى سبيل المثال، تلك اللافتات التي تُوضَع على المساجد بأسماء مَنْ قاموا بتأسيسها، واللَّه عليمٌ بكل شيء، يعلم اسم مَنْ أقام البناء، وعليك إذا بنيتَ مسجداً أنْ تُسميَه بأيِّ اسم لا يمتُّ لك بصلة حتى لا تدخلَ في دائرة «عملتَ ليُقال وقد قيل».

وحتى المقاتل الذي يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أنْ يعقد النية للَّه، لا أنْ يقاتل من أجل أنْ يُقال: إنه شجاع، لأنه إنْ فعل حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شَابَهُ الرياء والسمعة.

ولا يهزّ المجتمعات ولا يُزلزلها ويهدّها إلا هذه المراءاة؛ فالحق يحب أنْ يؤدي المسلمُ كلَّ عمل جاعلاً اللَّه في باله وهو الذي لا تخفى عليه خافية.

ولذلك تجد الرسول ﷺ ينقل لنا حال المُرائي للناس، فيقول: إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه؟ قال: الرياء. يقول اللَّه تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء[1].

وقال ﷺ: «إن المُرائي يُنَادَى عليه يوم القيامة: يا فاجر، يا غادر، يا مُرائي، ضَلَّ عملك، وحَبط أجرُك، فخُذْ أجرك ممَّنْ كنتَ تعمل له».

فالمُرائي إنما يخدع نفسه، فهو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس، ويُزكِّي ليراه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩) من حديث محمود بن لبيد أن رسول اللَّه (قال: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللَّه ؟ قال: الرياء. يقول اللَّه عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟

الناس، ويحجّ ليراه الناس، هو يعمل ما أمر اللَّه به لكنه لا يعمل للَّه.

والحق سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) [البقرة: ٢٦٤].

فالذي يتصدَّق ويُتْبع صدقته بالمَنِّ والأذى إنما يُبطِل صدقته، وخسارته تكون خسارتين:

الخسارة الأولى: أنه أنقص ماله بالفعل؛ لأن اللَّه لن يُعوِّض عليه؛ لأنه أتبع الصدقة بما يُبطلها من المَنِّ والأذى.

والخسارة الأخرى: هي الحرمان من الثواب، فالذي ينفق ليقول الناسُ عنه إنه ينفق، عليه أنْ يعرف أن الحقَّ يُوضِّح لنا: أنه يعطي الأجر على قاعدة أن الذي يدفع الأجر هو مَنْ عملتَ له العمل.

إن الإنسان على محدودية قدرته يعطي الأجر لمَنْ عمل له عملاً، والذي يعمل من أجل أنْ يقول الناس؛ أنه عمل فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر، فالذي يفعل الحسنة أو الصدقة ليُقال عنه: إنه فعل، فإنه يأتي يوم القيامة، ولا يجد أجراً له.

وإياك أنْ تقول: أنا أنفقتُ ولم يُوسِّع اللَّهُ رزقي؛ لأن اللَّه قد يبتليك ويمتحنك، فلا تفعل الصدقة من أجل توسيع الرزق، فعطاءُ اللَّه ليس في الدنيا فقط، ولكن اللَّهَ يريد ألَّا يُعطيك في الفانية، وأبقى لك العطاءَ في الباقية وهي الآخرة، وهو خَيْرٌ وأبقى.

والحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاءَ الناس: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ [النساء: ٣٨].

إنه يريد بالإنفاق مراءاةَ الناس؛ ولذلك يقول العارفون بفضل اللَّه: اختر مَنْ يُثَمِّن عطاءك فأنت عندما تعطي شيئاً لإنسان فهو يُثَمِّن هذا الشيء بإمكاناته

(١) الوابل: المطر الشديد الضخم القَطْر. [لسان العرب مادة: وبل].

وقدراته، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك، لكن العطاء للَّه كيف يُثَمِّنه سبحانه؟ لا بُدَّ أنْ يكون الثمنُ غالياً.

إذن: فالعاقل ينظر لمن سيعطي النعمة ولنا الأُسْوة في سيدنا عثمان رضي اللَّه عنه عندما علم التجار أن هناك تجارةً آتية له، جاء كلُّ التجار ليشتروا منه البضاعة، ثم يبيعوها ليربحوا، وقال لهم: جاءني مَنْ يعطيني أكثر من ثمنكم. وفي النهاية قال لهم: أنا بعتُها للَّه.

إذن: فقد تاجر سيدنا عثمان مع اللَّه، فرفع من ثمن بضاعته فالذي يعطي رئاءَ الناس نقول له: أنت خائب؛ لأنك ما ثمَّنتَ نعمتك، بل ألقيتَها تافهةَ الثمن، ماذا سيفعل لك الناس؟ هم قد يحسدونك على نعمتك، ويتمنَّوْنَ أنْ يأخذوها منك، فلماذا تُرائيهم؟

إذن: فهذه صفقة فاشلة خاسرة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام سبحانه هو الذي اشترى فلا بُدَّ أن الثمن كبير؛ لأنه يعطي النعيم الذي ليس فيه أغيار، ففي الجنة لا تفوت النعمةُ مؤمناً ولا هو يفوتها، فالذي يُرائي الناسَ خاسر، ولا يعرف أصول التجارة؛ لأنه لم يعرف طَعْم التجارة مع اللَّه.

ولذلك شبّه عمله في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والصفوان هو المروة، وجمعه مَرْو. وهي حجارة بيض براقة، والمروة ناعمة وليست خشنة، لكن بها بعض الثنايا يدخل فيها التراب، ولأن المروةَ ناعمةٌ جداً فقليلٌ من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب.

والذي ينفق ماله رئاءَ الناس هو مَنْ تتضح له قضية الإيمان، ولكن لم يثبت الإيمانُ في قلبه بَعد، فلو كنتَ تعلم أنك تريد أنْ تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمناً أعلى، فلماذا تعطيها للأقلِّ ثمناً؟

إنْ فعلتَ فقد خبْتَ وخسرتَ فأوضح لك الحق: ما دُمْتَ تريد رئاء الناس فأنت لست مؤمناً بمن يشتري بأعلى، فتكون في عالم الاقتصاد تاجراً فاشلاً.

ولذلك قُلْنا: ليحذر كلُّ واحد حين يعطي أنْ يخاف من العطاء، فالعطاء يستقبله اللَّه بحُسْن الأجر، ولكن عليه ألَّا يعطي بضجيج ودعاية تفضح عطاءه؛ ولذلك ذكر النبي ﷺ ضمن السبعة الذين يُظلهم اللَّه في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظلّه: «رجل تصدَّق بصدقة، فأخفاها، حتى لا تعلمَ شماله ما تنفق يمينه»، [أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة].

إن العبد الصالح حين يعطي فهو يعلم أن يده هي العليا، ويده خير من اليد السُّفلى، فليستر على الناس المحتاجين سُفْلية أيديهم ولا يجعلها واضحة.

ولكن الحق سبحانه لا يريد أنْ يُضيِّق مجال الإعطاء، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فإبداء الصدقات لا مانعَ منه، إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون أُسْوة، المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة، فالحق يوضح: إياك أن تنفقَ وفيك رئاء، أما مَنْ يُخرج الصدقة، وفي قلبه رياء، فاللَّه لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْطٍ؛ لأنه سبحانه يؤكد: خُذوا منه وهو الخاسر، لأنه لن يأخذ ثواباً، لكن المجتمعَ ينتفع.

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم الذين لا يؤمنون باللَّه، لأنه سبحانه هو المعطي، وهو يحب أنْ يضع المسلمُ عطاءه في يده؛ ولا يؤمنون باللَّه ولا باليوم الآخر، فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لاستحضروا الجزاء الباقي، فأنت إذا كنتَ تحب نعمتك، فَخُذْ النعمة، وحاول أنْ تجعلها مثمرة، أي: كثيرة الثمار.

أما الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضات اللَّه، فيُقَرِّب اللَّه لهم مثلاً، فيقول الحق سبحانه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إن ابتغاءَ مرضاة اللَّه في الإنفاق تعني خروجَ الرياء من دائرة الإنفاق، فيكون خالصاً لوجهه سبحانه، وأما التثبيت من أنفسهم فهو لأنفسهم أيضاً، فكأن النفسَ الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس

الإيمانية أيَّ شيء، فإن النفس الشهوانية تحاول أنْ تمنعها، وتتغلَّب النفسُ الإيمانية على النفس الشهوانية، وتنتصر للَّه.

والمراد بـ ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هو أنْ يتثبت المؤمن على أن يحب نفسه حُباً أعمق، لا حُباً أحمق.

إذن: فعملية الإنفاق يجب أنْ تكون أولاً إنفاقاً في سبيل اللَّه، وتكون بتثبيت النفس بأنْ وهب المؤمن أولاً دمه، وثبَّت نفسه ثانياً بأنْ وهبه المال، وهكذا يتأكد التثبيت، فيكون كما تُصوّره الآية الكريمة: ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والجنة كما عرفنا تُطلق في اللغة على المكان الذي يُوجد به زرع كثيف أخضر، لدرجة أنه يستر مَنْ يدخله، ومنها «جَنَّ» أي: ستر. ومَنْ يدخل هذه الجنة يكون مستوراً.

إن الحق سبحانه يريد أنْ يضرب لنا المثل الذي يُوضح الصنف الثاني من المنفقين في سبيل اللَّه ابتغاءَ مرضاته، وتثبيتاً من أنفسهم الإيمانية ضد النفس الشهوانية، فيكون الواحدُ منهم كمَنْ دخل جنةً كثيفةَ الزرع، وهذه الجنة توجد بربوة عالية.

وعندما تكون الجنةُ بربوة عالية، فمعنى ذلك أنها مُحاطة بأمكنة وطيئة ومنخفضة عنها، فماذا يفعل المطرُ بهذه الجنة التي توجد على ربوة؟

إن الحق يخبرنا أن مَنْ ينفق ماله ابتغاءَ مرضاة اللَّه وتثبيتاً من أنفسهم كمثل هذه الجنة التي تُروى بأسلوب رباني، فإنْ نزل عليها وابلٌ من المطر أخذتْ منه حاجتها، وانصرف باقي المطر عنها. ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾.. [البقرة: ٢٦٥]، والطَّل هو المطر والرذاذ الخفيف يكفيها لتؤتي ضِعْفَيْن من نتاجها، وإذا كان الضِّعف هو ما يساوي الشيء مرتين فالضِّعْفان يساويان الشيء أربع مرات.

والحق سبحانه يقول عن القتال في سبيل اللَّه: ﴿ ۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤].

فالقتال إنما جاء ليسيطر منهج اللَّه سبحانه، وحينما يقول تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فهذا يدلُّنا على أن هناك قتالاً في غير سبيل اللَّه، كأنْ يقاتل الرجلُ حميةً، أو ليُعلَمَ مكانه من الشجاعة، فقتال الرجل دائماً حَسْب نيته.

ولذلك تساءل بعض الناس: مَن الشهيد؟ فقيل: هو مَنْ قاتل لتكونَ كلمة اللَّه هي العليا فيكون شهيداً. إذن: فالقتال مرّة يكون في سبيل اللَّه، ومرّة يكون في سبيل النفس، ومرة يكون في سبيل الشيطان.

والحق سبحانه يؤكد على أن القتال يجب أنْ يكون في سبيل اللَّه؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يضع حَدّاً لجبروت البشر، فلا بُدَّ أن تكون نيةُ القتال في سبيل اللَّه، لا أنْ يكون القتالُ بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادي، وإنما القتال لإعلاء كلمة اللَّه، ونُصْرة دين اللَّه، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والحق ينهى عن الاعتداء. أي: لا يقاتل مسلم مَنْ لم يقاتله ولا يعتدي، ففي قتال النساء والصبيان والعجزة اعتداءٌ، وهو سبحانه لا يحب المعتدين.

ويقول الحق سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وما دام اللَّه قد اشترى من المؤمن نفسَه فيجب على المؤمن ألَّا تُهمه نفسه فيدخل المعركةَ بالصفقة الإيمانية، فإذا أهمَّتْهُ نفسه يبدأ القلق والبلبلة والاضطراب وتوهُّم الأشياء.

وما دام سبحانه هو الذي اشتراه فلا بُدَّ أن الثمنَ كبيرٌ، فالمؤمن هنا يعطي الدنيا ليأخذَ الآخرة التي تتمثل في الجنة والجزاء ومنزلة الشهداء.

تلك هي الصفقة التي يعقدها الحق مع المؤمنين، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة، فكلٌّ منا في حياته يحب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأن يعطي شيئاً، ويأخذ شيئاً أكبر منه.

لذلك يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، فالحق سبحانه يُنمِّي فينا قيمة الصفقة الإيمانية، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه، فلا يظنَّ أحدٌ أن الدين جاء ليسلبه الحرية أو ليستذلَّه، فالدِّين إنما جاء ليُرتِّبَ للمؤمن النفعية ويُنميها له.

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة، عملية بيع وشراء، وإذا كان هذا مِلْكاً للَّه، فاللَّه هو المشتري، واللَّه هو البائع. وما الثمن؟ يأتي التحديد من الحق سبحانه ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

هذا هو الثمن الذي لا يفنى ولا يَبْلَى، ونعيمك فيها على قدر إمكانات اللَّه التي لا نهايةَ لها، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكاناتك أنت في أسباب اللَّه، وهكذا يكون الثمنُ غالياً.

والثمن هو الجنة، وهو وَعْد بشيء يأتي من بعد، ولكنه وَعدٌ ممَّن يملك إنفاذه، فالوعد الحق هو مِمَّن يملك ويقدر، وحيّ لا يموت.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١].

والمؤمن يستقبل هذا بأنه سوف يحدث حتماً، وما دام الحق قد أعطى الوعد، فلن يوجد مَنْ هو أَوْفى منه، فالعهد الحقيقي إنما يُؤخذ من اللَّه، فلا أحدَ أوْفى من اللَّه بالعهد، وما دام الوعد بالجنة فالجنةُ لا يملكها إلا هو سبحانه، ووَعْده حق.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع، وأن الأموال سوف تُنفق، وهذا يُقبض النفس، فهذا فيه الموت وخسارة للمال، وكان من الطبيعي أنْ يشحب وجهُ الإنسان ويفزع ويخاف.

ساعةَ يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ﴾ تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبِشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق، مع أنه هنا سيأخذ نفسه، لكن

المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة.

إذن: قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تُصيبنا بالخوف، بل علينا أنْ نستقبلها بالاستبشار، فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً. ولذلك فقضية الإيمان باللَّه واليوم الآخر هو مطلوبُ الحق سبحانه من أنْ يكون العملُ خالصاً للَّه ابتغاءَ مرضاته، لا ابتغاءَ السمعة والصيت بين الناس، لا رياء ونفاقاً.

فالرياء مُحبط للعمل ومَاحِقٌ للثواب ودليلٌ على ضَعْف إيمان صاحبه، وحين يرجع لربه لن يجد له شيئاً من ثواب الآخرة، لأنه أخذ ما أراده في الدنيا من المجد والصيت والذكر بين الناس فليس له في الآخرة من نصيب.

فعباد اللَّه يبتغون بأعمالهم وجه اللَّه، فنياتهم خالصةٌ للَّه، لا يبتغون من خَلْقه ذكراً ولا صِيتاً ولا مجداً، فتواضعهم ومَشْيهم على الأرض هَوْناً، ومخاطبتهم الجاهلين بالحسنى، وبياتهم لربهم سُجَّداً وقياماً، ودعاؤهم للَّه أن يصرف عنهم عذاب جهنم، وإنفاقهم، كل هذا لا يرجون رضا أحد إلا اللَّه، فلا يدعون مع اللَّه إلهاً آخر، بل إله واحد.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

وقد جاء النهي في الآية نتيجة خروج الإنسان عن مراد ربه سبحانه، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً ـ يعني الثقلين ـ هم المختارون في الكون كله، اختيار في أشياء، وقَهْر في أشياء أخرى، ومع ذلك لم يشذ من خَلْق اللَّه غيرهما.

فالسماوات والأرض كان لها اختيار، وقد اختارتْ التسخير، وانتهت المسألة في بداية الأمر، ومع ذلك فهي مُسخَّرة وتؤدي مهمتها لخدمة الإنسان، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض، فهي تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر، وكذلك الهواء والأرض والدابة، وكل ما في كَوْن اللَّه مُسخَّر للجميع.

فكل هذه الأشياء لها مهمة وتؤدي مهمتها على أكمل وجه؛ يقول تعالى

في حَقِّ هذه الأشياء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

هكذا بالإجماع، لا يتخلَّف منها شيءٌ عن مراد ربه، فما الحال في الإنسان؟ يقول تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: والناس ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

هذا هو الحال في الإنسان المُكرّم الذي اختاره اللَّه وترك له الاختيار، أما كل الأجناس فهي مؤدية واجبها لأنها أخذت حظها من الاختيار الأول فاختارتْ أنْ تكونَ مُسخّرة، وأن تكون مقهورة.

فالإنسان.. أحدهم يقول: لا إله في الوجود، العالم خُلقِ هكذا بطبيعته. وآخر يقول: بل هناك آلهة متعددة فالعالم به مصالحُ كثيرة وأشياء لا ينهض بها إلهٌ واحد. يعني: إلهٌ للسماء، وإله للأرض، وإله للشمس.. الخ.

فيا مَنْ تشفق على الإله الواحد أن يتعب من إدارته للكون بشتى نواحيه، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر، لأن اللَّه تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون، وإنما يباشره بكلمة «كُنْ».

إذن: إلهٌ واحد يكفي، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد، فإياك أنْ تقول بتعدُّد الآلهة، وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفي إلهين اثنين، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى، واثنان أقلّ صُور التعدُّد.

ومعنى ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ أي: معبودين، فيكون لهما أوامر ونَوَاهٍ، والأوامر والنواهي تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنه يحتاج إلى مساعد؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد، فهذا نقصٌ فيه، ولا يصلح أنْ يكون إلهاً.

وكذلك إنْ تخصَّص كلٌّ منهما في عمل ما، هذا لكذا، وهذا لكذا، فقد أصبح أحدهما عاجزاً عما يقوم به الآخر، وأيُّ ناحية إذن من نواحي الحياة تكون هي المسيطرة؟ ومعلوم أن نواحي الحياة مشتركة ومتشابكة.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً، وأراد الآخر ألَّا يكون هذا الشيء؟ فإنْ كان الشيءُ كان عَجْزاً في الثاني، وإنْ لم يكُنْ كان عجزاً في الأول. إذن: فقوة أحدهما عجزٌ في الآخر.

ونلحظ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١]، عِظَة بليغة، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى توحيده يقول لنا: أريحوا أنفسكم بالتوحيد، وقد أوضح الحق هذه الراحة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

يعني: رجل خُلَّص لسيد واحد، ورجل أسياده كثيرون، وهم شركاء مختلفون، فإنْ أرضى هذا أغضب ذاك، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخرز فهو دائماً مُتعب مُثقل، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة.

ففي أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا، وكأنه سبحانه يقول: لكم وجهة واحدة تكفيكم كل الجهات، وتضمن لكم أن الرضا واحد وأن البُغْض واحد.

إذن: فطلبه سبحانه راحةٌ لنا؛ لذلك قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته تعالى، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

فلو قال معترض: كيف يشهد لذاته؟ نقول: نعم، يشهد لذاته سبحانه، لأنه لا أحدَ غيره، لا أحدَ معه، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي وكأنه سبحانه يقول: لا أحدَ غيري، وإنْ كان هناك إلهٌ غيري فَلْيُرني نفسه، وليفصح عن وجوده.

أنا اللَّه خلقتُ الكون وأخذتُه وفعلتُ كذا وكذا، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة، وإما أنْ أكون غير صادق، وهناك إله آخر هو الذي خلق، فأين هو؟ لماذا لا يعارضني؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع اللَّهَ في خَلْقه أحدٌ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلم لصاحبها، فإنْ قال قائل: لعل الآلهة الأخرى لم تدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلحون

للألوهية لعدم درايتهم، وإنْ دروا ولم يعارضوا فهم جبناء لا يستحقون هذه المكانة.

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق، لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره، فإذا قال «كُنْ» فهو واثق أنه سيكون؛ ولذلك ساعة يحكم اللَّه حكماً غيبياً يقول: أنا حكمتُ هذا الحكم مع أنكم مختارون في أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون، وما دُمْت حكمتُ بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا، ولكن ما فعلتم، فهذا دليل على أنه لا إلهَ غيري يعينكم على أنْ تفعلوا.

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات، وشهد أولوا العلم شهادةَ الاستدلال كما قال سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

والحق سبحانه له ما في السماوات وما في الأرض، فليس لأحد غيره ملكية مستقلة، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة. إذن: فليس له ذاتية وجود؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له، وما به قيام وجوده موهوبٌ له، لذلك يقولون: مَنْ أراد أن يعاند في الألوهية يجب أنْ تكون له ذاتيةُ وجود، وليست هذه إلا للَّه تعالى.

لذلك نقول لمن يعاند في الألوهية: أنت لا تقدر، لأن وجودك هبة، وقيام وجودك هبة، كل شيء يمكن أن يُنزع منك، لذلك فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

فهذا الذي رأى نفسه استغنى عن غيره من وجهة نظره إنما هل استغنى حقاً؟ لا، لم يَسْتَغْنِ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٥٢]، الذي له ما في السماوات والأرض، وبه قيامُ وجوده بقيومته، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك: أنا قيُّوم يعني: قائم على أمرك، ليس قائماً فقط، بل قَيوم بالمبالغة في الفعل، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عدم، وإمداداً من عُدْم. إذن: يجب أنْ تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره.

والحق سبحانه له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً، ومُلْك اللَّه دائم، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكه لأحد، ولا تزال يد اللَّه في مُلْكه، وما دام الأمر هكذا، فالحق سبحانه يسألهم: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ، فلا يجوز أنْ تتقي غير اللَّه، لأنه حُمْق لا يليق بك، وقد علمتَ أن للَّه ما في السماوات وما في الأرض، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض، ومنه سبحانه الإيجاد من عدم والإمداد من عُدْم.

إذن: فمن الحُمْق أن تتقي غيره، وهو أَوْلَى بالتقوى، فإن اتقيتُم غيره فذلك حُمْق في التصرف يؤدي إلى العَطَب والهلاك، إن اغتررتُم بأن اللَّه تعالى أعطاكم نِعماً لا تُعَدُّ ولا تُحصى.

رَبِّ هذا قتلني

عن ابن عباس رضي اللَّه عنه قال:

سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«يأتي المقتول متعلقاً رأسه بإحدى يديه مُتلبباً قاتله بيده الأخرى تشْخُبُ أوداجه دماً حتَّى يأتي به العرش، فيقول المقتول للَّه: رَبِّ هذا قتلني. فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ للقاتل: تَعسْتَ ويُذهَبُ به إلى النار»(١).

عباد اللَّه الذين عبدوا ويعبدون إلهاً واحداً لا شريكَ له هم الذين يحترمون ما خلق اللَّه، ويحترمون النفس البشرية، فلا يعتدون عليها، بل يُحقِّقون مراد اللَّه بصيانتها والحفاظ عليها؛ لذلك قال الحق سبحانه عنهم: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الأداء القرآني هنا يأخذ لفظ (تَعَالَ) بفهم أعمق من مجرد الإقبال، كأن الحق يقول: أقبل عليّ إقبالَ مَنْ يريد التعالي في تلقِّي الأوامر. فأنت تُقبل على أوامر اللَّه لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية، فلا تأخذْ قوانينك من حضيض تشريع البشر؛ لأن الشرط الواجب في المشرِّع ألَّا يكون مُساوياً لمَنْ شرَّع له، وألَّا يكون منتفعاً ببعض ما شرَّع، وأنْ يكون مُسْتوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شيء، والمشرِّع من الخَلْق لا يُشرِّع إلا بعد اكتمال عقله ونُضْجه.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٠٧٤٢) بهذا اللفظ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢١٤٢، ٢٦٨٣، ٣٤٤٥) بنحوه وقال الشيخ أحمد شاكر في هذه المواضع جميعاً: إسناده صحيح.

ولا يقدر مُشرِّع البشر أنْ يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع، فالرأسمالي مثلاً يُشرِّع ليستفيد، والماركسي يُشرِّع ليستفيد، فكل واحد يُشَرِّع وفي نفسه هوى، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحتْ لا تفِي ولا تغطي أمور الحياة، فكأن المشرِّع الأول لقصور علمه غابتْ عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا، فنظر في قانونه فلم يجد شيئاً يغطي هذه القضايا، فيقول: نُعدِّل القانون ونستدرك، ومعنى استدراك القانون أيْ أن هناك ما جهله ساعة شرِّع وقنَّن.

إذن: يُشترط في المُقنِّن ألَّا يكون مساوياً للمُقَنَّن له، وألَّا تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يستدرك عليه، وألَّا يكون منتفعاً بالتشريع، ولا يوجد ذلك في بشر أبداً، فأوضح الحق: اتركوا حضيض التشريع البشري، وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها.

فحين ينادي اللَّه: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ فمعناها: ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى، لتأخذوا منه تقنيناتكم التي تحكم حركة حياتكم، فهو لا ينتفع بما شرَّع، بل أنتم الذين تنتفعون، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه، وهو خالق، هو أَوْلَى أنْ يُشرِّع لكم.

لذلك قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كلَّ الأحكام، إيجاباً وسَلْباً، نَهْياً وأمراً فوضَّح لهم أنه يجب عليكم أنْ تتبعوا الصراط المستقيم، لتقُوا أنفسكم آثارَ صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى، وأول جنودها النار، فلتمشُوا على صراط اللَّه ومنهجه معتدلين، فلا تنحرفوا يمنة أو يسرة، لأن الميل يبعدكم عن الغاية.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أي: أقبلوا لتسمعوا منِّي التكليف الذي نزل لكم ممَّنْ هو أعلى منكم ولا تظلُّوا في حضيض الأرض وتشريعاتها، بل تسامَوْا وخُذُوا الأمر ممَّن لا هَوَى له في أموركم، وهو الحق الأعلى، فلا تضعوا لأنفسكم القوانين، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم، إنما تعالوا إلى اللَّه، وخُذوا منه سبحانه منهج حياتكم، فهو الذي خلقكم، وخلق لكم هذه الحياة.

اتركوا حضيض تشريع الأرض، وأقبلوا على رِفْعة تشريع السماء، ولا تهبطوا إلى مستوى الأرض، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث، لأن الذي يُشرِّع لكم بشرٌ أمثالكم، وإنْ كانوا حتى حَسَني النية، فهم لا يعلمون حقائق الأمور، فإنْ أصابوا في شيء أخطأوا في أشياء، وسوف يُضطرون لتغيير هذه التشريعات وتعديلها. إذن: فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى، لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم.

فشَرْع اللَّه يستوعب كلَّ نواحي حياتك وأقضيتها، وهذه المواصفات لا تكون إلا عند الحق تبارك وتعالى وهو سبحانه أرحمُ بك من الوالدة بولدها، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع، كما نرى في تشريعات البشر للبشر.

لذلك قال الحق سبحانه في كتابه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وهذا توضيح لإرادة الحق سبحانه في تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيماني رابطةً يُوضِّحها قَوْل رسول اللَّه فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً»(١).

وإياك أنْ تنظر إلى مُجترئ على غيرك بالباطل وتقف مكتوفَ اليدين، لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائر الأعضاء بالسهر والحُمى، فإنْ قتل إنسانٌ إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقفَ العاجز فهذا إفساد في الأرض؛ لذلك يجب أنْ يقابل المجتمعُ مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفساً واحدة، بل كأنه قَتْلٌ للناس جميعاً ما لم يكُنْ قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض.

ويكمل الحق سبحانه الشقَّ الثاني من تلك القضية الإيمانية ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وهذه هي الوحدة الإيمانية فمَنْ

(١) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضه بعضاً» وشبَّك رسولُ اللَّه بين أصابعه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٦)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٨٥).

يعتدي على نفس واحدة بريئة كمَنْ يعتدي على كل الناس، والذي يُسعف إنساناً في مَهْلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

وفي التوقيع التكليفي يكون التطبيقُ العملي لتلك القاعدة، فالذي يقتل بريئاً عليه لعنة اللَّه وغضبه ويُعذِّبه اللَّه، وكأنه قتل الناس أجمعين، وإنْ نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد.

وسبحانه وتعالى يريد ألَّا يستقبل المجتمع الإيماني مجترئاً بباطل على حق، إلَّا أنْ يقف كل المجتمع أمامه، فلا يقف المُعتدَى عليه بمفرده؛ لأن الذي يُجرِّئ أصحاب الشر هو أنْ يقول بعضُ الناس كلمة «وأنا مالي».

و«الأنانية» هي التي تُجرِّئ أصحاب الشرور، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة: الثور الأسود، والثور الأحمر، والثور الأبيض، فقد احتال أسدٌ على الثورين الأحمر والأسود، فَسَمحَا له بأكل الثور الأبيض، واحتال الأسد على الثور الأسود، فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر، وجاء الدور على الثور الأسود، فقال للأسد: أُكِلْتُ يوم أُكِل الثورُ الأبيض.

كأن الثور التفت إلى أن «أناماليته» جعلتْه ينال مصرعه، لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه، وها هو ذا الحديث النبوي الشريف الذي يمثل القائم على حدود اللَّه والواقع فيها:

عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم في حدود اللَّه والواقع فيها كمثَلِ قوم استهموا على سفينة فصار بعضُهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خُرْقاً ولم نؤذ مَنْ فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإنْ أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعاً»[(١)].

كذلك مَثَل القائم على حدود اللَّه ومَثَل الواقع فيها، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا: لا تنظر إلى أن نفساً قتلتْ نفساً بغير حَقٍّ، ولكن انظر إليها كأن القاتلَ قتل الناسَ جميعاً؛ فالناسُ جميعاً متساوون في حق الحياة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٦٨) والبخاري في صحيحه (٢٤٩٣) والترمذي في سننه (٢١٧٣) عن النعمان بن بشير. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وما دام القاتل قد اجترأ على واحد، فمن الممكن أنْ يجترئَ على الباقين أو أن يكون فِعْله أُسْوةً لغيره، وما دام قد استنَّ مثل هذه السُّنة، سنجد كل مَنْ يغضب مِنْ آخر يقتله، وتظل السلسلة من القَتَلة والقَتْلى تتوالى.

وقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٢]، فيه من الاحتياط والدقة والقيد، فلو كان التشريع تشريعاً بشرياً لمرَّتْ عليه هذه المسألة، ولاستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل، ولكن المشرّع الأعلى سبحانه لا يستدرك.

فكأن مَنْ قتل نفساً بنفس، أو بفساد في الأرض لا يُقال عنه: إنه قتل الناس جميعاً، بل أحيا الناسَ جميعاً؛ لأن التجريم لأيِّ فعل يعني مجيء النص الموضِّح أن هذا الفعلَ جريمةٌ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة.

لذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]، وللقصاص في الإسلام حكَمٌ عالية، فليس الهدف منه أنْ يُضخِّم هذه الجريمة بل يهدف إلى حِفْظ حياة الناس كما قال اللَّه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فمَنْ أراد أنْ يحافظ على حياته فلا يُهدِّد حياة الآخرين.

وحينما يعطي ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ حقَّ القصاص لوليّ المقتول ويُمكِّنه منه تبرد ناره، وتهدأ ثورته، فيفكر في العفو وهو قادرٌ على الانتقام، وهكذا ينزع هذا الحكم الغِلَّ من الصدور، ويُطفئ نارَ الثأر بين الناس.

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عادة الثأر، يأتي القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولي المقتول، ويضع نفسه بين يديه معترفاً بجريمته: ها أنا بين يديك اقتلني وهذا كفني.

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ووليّ الدم، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام، دين الوسطية والاعتدال، هذا العفو من وليّ الدم أداةُ بناء، ووسيلةُ محبة، فحين نعطيه حقَّ القصاص، ثم هو يعفو، فقد أصبحتْ حياةُ القاتل هَبةً من وليِّ الدم، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه، وهذا جميلٌ يحفظه أهلُ القاتل، ويقولون: هذا حقن دم ابننا.

فمقصود الإسلام هو المحافظة على الأرواح فلا يعتدي أحدٌ على أحد، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وحُكْم القصاص يجعل الإنسانَ حريصاً على نفسه، ويمنعه أنْ يُقدِمَ على القتل، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أنْ يقتصَّ منه، فإنْ أخذتنا الشهامة وتشدَّقنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة، وعارضنا إقامةَ الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات فكل مَن اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله؛ لأنه لا يوجد رادع يردعه عن القتل.

إذن: لكي نمنع القتل لا بدَّ أن ننفذ حكم اللَّه ونقيم شرعه ولو على أقرب الناس، لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى فقط، بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا، ويحمي سلامة مجتمعنا.

لذلك، جعل الحق سبحانه تنفيذ هذه الأحكام علانيةً أمام الجميع، وعلى مَرْأىً ومَسْمع المجتمع كله، ليعلموا أن أحكام اللَّه ليستْ شفوية، بل هي تُطبق أمامهم، وصدق اللَّه تعالى حين قال: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، ولا بُدَّ أنْ نستقبل أحكام اللَّه بفهم واعٍ ونظرة متأملة، فليس الهدف من تشريع اللَّه للقِصَاص كثرة القتل، إنما الهدفَ ألَّا يقع القَتْل، وألَّا تحدث هذه الجريمة من البداية.

فحين يخبرك الحق سبحانه أنك إنْ قتلتَ فسوف تُقتل، فهو يحمي حياتك وحياة الآخرين، وليس لدى الإنسان أغلى من حياته، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة، وقتل من أجلها مَنْ قتل؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته وربما لأنه عدو له أقوى منه.

ولا شكَّ أن حياته أغلى من هذا كله، فحين نقول له: إنْ قتلتَ ستُقتل، فنحن نمنعه أن يُقدم على هذه الجريمة، ونُلوِّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة ولذلك قالوا: القَتْل أَنْفي للقَتْل.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وهذا نداءٌ لأصحاب الأفهام والعقول الواعية، ليس القصاص

كما يظن البعض بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء.

ويجب أنْ تكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام اللَّه؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم، ويجب أيضاً أنْ ننظر إلى حكم القصاص نظرةً موضوعية، لأنه كما حمى غيري من قَتْلي له حماني أيضاً من قَتْل غيري لي، وما دامتْ المسألة: لك مثل ما عليك، وحظُّك منها كحظِّ الناس جميعاً فلماذا الاعتراض؟

وهذا نلاحظه في أمر السرقة أيضاً، فحينما يقول لك: لا تسرق، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك، والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد، لأنها تقيِّد حريته وهو فرد واحد، وتُقيِّد من أجل حرية المجتمع كله.

إن في تشريع القصاص استبقاءً لحياتكم؛ لأنكم حين تعرفون أنكم عندما تقتلون بريئاً، وستقتلون بفعلكم فسوف تمتنعون عن القتْل، فكأنكم حقنتم دماءكم، وذلك هو التشريع العالي العادل.

وفي القصاص حياةٌ؛ لأن كلَّ واحد عليه القصاص، وكل واحد له القصاص، إنه التشريع الذي يخاطب أصحاب العقول وأُولي الألباب الذين يعرفون الجوهر المراد من الأشياء والأحكام، أما غير أُولي الألباب فهم الذين يجادلون في الأمور دون أنْ يعرفوا الجوهرَ منها، فلولا القصاص لَمَا ارتدع أحدٌ، ولولا القصاص لغرقتْ البشريةُ في الوحشية.

إن الحكمة من تقنين العقوبة ألَّا تقعَ الجريمة، وبذلك يمكن أنْ تتوارى الجريمة مع العقوبة، ويتوازن الحقُّ مع الواجب، إن عدل الرحمن هو الذي فرض علينا أن نتعامل مع الجريمة بالعقاب عليها، وأنْ يشاهد هذا العقاب آخرون ليرتدعوا.

فإياكم أن تجترئوا على دماء الناس ولا على حياتهم.

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن أحكام وعقوبات القاتل، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

وضع التشريع الإسلامي للقاتل عن سبق إصرار وترصُّد عقاباً هو القتل وبذلك يحمي التشريعُ الحياةَ ولا ينمي القتل بل يمنع القتل، فإذا ما اجترأ إنسانٌ على إنسان ليُنهي حياته في غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف؟

يقول التشريع: إنه يقتل، وكان يجب أن يكون في بالك ألَّا تجترئ على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك، ولكن إن أنت فعلتَ خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل، فماذا يكون الأمر؟

صحيح أن الأمر وقع خطأ ودون قصد أو تعمُّد، ولكن حياة هذا الإنسان الذي أزهقتَ روحه لها ارتباطاتٌ شتَّى في بيئته الإيمانية العامة، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته، العائلة له، أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع، فكم دائرة إذن؟

عدة دوائر: دائرة إيمانية عامة، ودائرة الأهل في عمومها الواسع، ودائرة الأسرة، ودائرة خصوصية الأسرة في الأصل والفرع. وحين تُنهي حياة إنسان في البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج اللَّه ومفيد في حركته لأن الدائرة الإيمانية فيها نفعٌ عام، وكل دائرة من هذه الدوائر لها نفعٌ خاص بها.

فإذا جاء خبرُ موت أحد الناس في مجلس يجلسون فيه، تجد كلَّ واحد منهم سينفعل بالقدر الذي يصله ويربطه بمَنْ مات، فواحدٌ يقول: يرحمه اللَّه. وثانٍ يتساءل بفزع: كيف حدث ذلك؟ وثالثٌ يبكي بُكاء مُرّاً. ورابع يبكي جارياً ليرى الميت.

فالخبر واحد والانفعالات متعددة حتى أولاده تجد انفعالاتهم مختلفة، فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذي يدرس أو البنت التي ما زالت تتلقى التعليم عن الابنة التي تزوجت ولها أسرة.

فعندما يُفجع المجتمع في واحد فالهزَّة تكون على قدر نفعه وتأثيره فيمن حوله وارتباطهم به، فعندما يُفاجأ الناسُ بواحد يُقتل عن طريق الخطأ، فالفاعل معذور، ولكن عذره لم يمنع أنه قد تعدَّى بفعله، وأن الآخر قد قُتل؟

فالأثر قد وقع، ولأنه قَتْلٌ خطأ فلن يكون هناك قصاصٌ من القاتل، ولكن عليه أن يدفع ديةً، هذه الدية تُوزَّع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته.

فبالدية يتم علاجُ الأثر الحادث عن القتل الخطأ، وهي بحكم الشرع تدفعها العاقلة بشرط ألَّا تُؤخذ من الأصول والفروع، فمن أجل إشاعة المسؤولية فالقاتل لا يدفعها ولكن تدفعها العاقلة، لأن العاقلة إذا ما علمت أن مَنْ يجني من أهلها جناية وأنها ستتحمل معه فإنها تُعلِّم أفرادها فنَّ صيانة حقوق غيرهم لأن كل واحد منها سيدفع وبذلك يحدث التوازن في المجتمع.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢]، لكي تصنع البسط في نفوس أهله ليعقب القبض الواقع عليهم نتيجة خبر القتل ولذلك نجد أسرة قد فُجعَتْ في أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض، مما يدل على أن في ذلك شيئاً من السَّلْوَى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض.

ولو كانت المسألة مَزْهُوداً فيها لقالوا: «نحن لا نريد ذلك» ولكن ذلك لا يحدث، فنجد الذي فقد حياة حبيب لا يظل في حالة حزن ليفقد حياة نفسه.

بعد ذلك يريد الحقُّ سبحانه أن يشيع التعاطف بين الناس، فإذا قال أهل القتيل لأهل القاتل: نحن لا نريد دية، لأن مصيبتكم في القتيل مثل مصيبتنا فيه وكلنا إخوة، فما مردود هذا على المجتمع؟

الذي يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية. إذن: فهو تربيبٌ للدِّية، فساعة يعرف الطفل في العائلة أنه كان مطلوباً منه دية لأن أباه قد قتل، وأن أهل القتيل قد عَفوْا فلم يأخذوا الدية، هذا الطفل سيعرف عندما يشبّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتجٌ من هذا العفو وهذه العفة، فيحدث الود.

إذن: الحق سبحانه يريد أنْ يُربِّب إشاعة المودة والصفاء والنفعية، فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع، وإنْ لم

يأخذها فهو ينتفع أكثر، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ [النساء: ٩٢].

وهنا شيء آخر غير الدِّيَة وهو ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وهنا قد نسأل: وماذا يستفيد أهل المجني عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة؟ هل يعود ذلك على أهل القتيل ببَسْط في النفعية؟

قد لا تفيدهم في شيء لكنها تفيد المجتمع، لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأَمَة هو مملوكٌ لسيده والسيد يملك حركة العبد، ولكن عندما يكون العبد حُراً فهو حُرُّ الحركة، فحركة العبد مع السيد محدودة، وفي حريته حركةٌ مفيدة للمجتمع.

وكانت تصفية الرِّقِّ من أهداف الإسلام، لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد، وبعض الناس يدَّعون أن الإسلام جاء بالرِّقِّ وأقرَّه. ونقول: لم يأت الإسلام بالرق، لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية، وجاء الإسلام بالعتق ليصفي الرقَّ، فجعل من فكِّ الرقبة كفارةً لبعض الذنوب، وجعل من مصارف الزكاة عتقَ العبيد.

فإذا ما قتلَ مؤمنٌ مؤمناً خطأ في بيئة إيمانية فحُكْمه ديةٌ مُسَلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فحكم هذه الحالة تحريرُ رقبة مؤمنة، وذلك للتعويض الإيماني فينطلق عبدٌ كان محدودَ الحركة، لأن هناك مَنْ مات وانتهت حركته، وفي هذا تعويضٌ للمجتمع عندما تشيع حركة العبد. وماذا نفعل في الدية؟ لا يأخذون الدية لأن الدية موروثة وهم من الكفار، وليس بين الكفار والمسلمين توارثٌ أي: فليس هنا دية. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.. [النساء: ٩٢]. فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بُدَّ من الوفاء، هذا الوفاء يقتضي تسليمَ دية لأهله، لأن هذا احترامٌ للعهد، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.. [النساء: ٩٢].

أي: فمَنْ لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل

أيامهما، فلا يفصل بينهما إلا فاصل مُعذر كأن يكون القاتلُ ـ دون قصد ـ على مرض أو على سفر، وبمجرد أن ينتهي المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم.

أما القتل العمد، فقد قال الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

يشّع لنا الحقُّ سبحانه جريمة القتل العمد، فجزاؤه جهنم وليس له كفارة أبداً، لأن التعمُّد يعني أن القاتل قد عاش على فكرة أن يقتل، لذلك يقال في القانون: «قتل عَمْد مع سَبْق الإصرار».

أي: أن القاتل قد عاش القتل في تخيُّله ثم فعله، وكان المفروض في الفترة التي يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الديني، وهذا يعني أن اللَّه قد غاب عن باله طوال مدة التحضير للجريمة، وما دام الإنسانُ قد غاب باله عن اللَّه فاللَّه يُغيِّبه عن رحمته.

وهنا نجد أكثر من مرحلة في العذاب: جزاء جهنم، خلود في النار، غضب من اللَّه، لعنة من اللَّه، إعداد من اللَّه لعذاب عظيم.

وهنا وقفة وقف العلماء فيها: هل لهذا القاتل توبة؟ واختلف العلماء في ذلك، فعالم يقول: لا توبة لمثل هذا القاتل. وعالم آخر قال: لا، هناك توبة. وجاء ابن عباس وجلس في جماعة وجاء واحد وسأله: أللقاتل عمداً توبة؟ قال ابن عباس: لا. وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن عباس: أللقاتل عمداً توبة؟ فقال ابن عباس: نعم.

فقال جلساؤه: كيف تقول ذلك وقد سبق أنْ قلت: لا. واليوم تقول: نعم؟ فقال ابن عباس: سائلي أولاً كان يريد أنْ يقتل عمداً. أما سائلي ثانياً فقد قتل بالفعل، فالأول أرهبته، والثاني لم أُقنِّطْه من رحمة ربه.

وتشريع التوبة هو تضييقٌ شديد لنوازع الشر، فلو لم يشرع اللَّه التوبة لكان مَن ارتكب ذنباً يعيث في الأرض بالفساد، فحين شرع اللَّهُ التوبةَ عصم المجتمع من الأشرار.

والحق سبحانه عليم حكيم، عليم بالتقنيات فشرع التوبة لعلمه جلَّ شأنه

بأنه لو لم يشرع التوبة لَكَان المذنب لمرة واحدة سبباً في شقاء العالم، لأنه حينئذ يكون يائساً من رحمة اللَّه.

وهو سبحانه حكيم، فإياك أنْ يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضاً، وهذا مطلق الحكمة.

أنتَ عندي كبعض ملائكتي

عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«ما من شاب يدعُ لذةَ الدنيا ولهوها، ويستقبل بشبابه طاعة اللَّه إلا أعطاه اللَّهُ أجر اثنين وسبعين صدِّيقاً، ثم قال:

يقول اللَّه تعالى:

أيها الشاب.. التارك شهوتَه لي.. المبتذل شبابهُ لي.. أنت عندي كبعض ملائكتي»(١).

يصف الحقُّ سبحانه عباده، وخاصة الشباب منهم بالعِفَّة والاستعفاف والبُعْد عن مواضع الشبهات، ويصبرون عن شهواتهم، فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

فالإنسان الذي كرَّمه اللَّه وجعله خليفةً له في الأرض أراد له الطُّهْر والكرامة، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون اللَّه، فلا يُدخِل في عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون، لأن اللَّه تعالى يريد أن يبني المجتمع المؤمن على الطُّهر، ويبنيه على عناية المُربِّي بالمُربَّى.

فالحق تبارك وتعالى جعل له خليفةً في الأرض لتظهر عليه سماتُ قدرته تعالى وصفات كماله، فاللَّه تعالى قادر، اللَّه عالم، اللَّه حكيم، اللَّه غنيٌّ، اللَّه رحيم، اللَّه غفور.

وهو سبحانه يعطي من صفاته ويفيض منها على خَلْقه وخليفته في أرضه بعضاً من هذه الصفات، فيعطيك من قدرته قدرة، ومن رحمته رحمة، ومن غَنائه غِنىً، لكن تظل الصفة في يده تعالى، إنْ شاء سلبها، أَلَا ترى القويَّ قد يصير ضعيفاً، والغني قد يصير فقيراً.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ١٣٨)، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٥/ ح ٤٣١٠٦).

ذلك لنعلم أن هذه الصفات ليستْ ذاتية فينا، وأن هذه الهِبَات ليست أصلاً عندنا، إنما هي فَيْض من فيض اللَّه، وهِبَة من هِبَاته سبحانه؛ لذلك علينا أنْ نستعملها وفق مراده تعالى، فإنْ أعطاك ربُّك القدرةَ، فإنما أفاض بها عليك لتفيض أنت بها على غيرك، أعطاك العلم لتنشره على الناس، أعطاك الغنى لترعى حقَّ الفقير.

إذن: فالحق تبارك وتعالى يريد من خليفته في أرضه أنْ يكون جماعاً لصفات الكمال التي تُسعِد الخَلْق بآثار الخالق فيهم، وهذه هي الخلافة الحقة.

فالحق تبارك وتعالى يريد لخليفته في أرضه أنْ يكون طاهراً شريفاً كريماً عزيزاً؛ لذلك وضع له من القوانين ما يكفل له هذه الغاية، وأوَّل هذه القوانين وأهمها قانون التقاء الرجل والمرأة التقاءً سليماً في وضح النهار، لينتج عن هذا اللقاء نَسْل طاهر جدير بخلافة اللَّه في أرضه.

فلا بُدَّ أنْ لا يلتقي رجل وامرأة إلا على نور من اللَّه، وهدى من شريعته الحكيمة؛ لأنه عزَّ وجلَّ هو خالق الإنسان، وهو عالم بما يُصلحه، وهو خالق ذراته، ويعلم كيف تنسجم هذه الذرات مع بعضها البعض، وهو سبحانه خالق مَلَكات النفس، ويعلم كيف تتعايش هذه الملَكات ولا تتنافر.

فمن الطبيعي أنْ يضطرب الكون وتتصارع فيه مَلَكات البشر إنْ أردتَ أنْ تنشئ خليفة في الكون على غير مراد اللَّه وعلى غير مواصفات الحق، وماذا تنتظر من هذا الخليفة إنْ جاء في الظلام؟

فلن تستقيمَ هذه المسألة إلا حين يأتي الخليفة وفق مواصفات ربه عزَّ وجَلَّ، وأنْ يلتقيَ الزوجان على ما شرع اللَّه في وضح النهار، لا أنْ يندسَّ كل منهما على الآخر في ظلمة الإثم، فيحدث المحظور الذي تختلط به الأنساب، ويتفكك رباط المجتمع.

إن من أقسى تجارب الحياة على المرء أنْ يشكّ في نِسْبة ولده إليه، وأنْ تعتصره هذه الفكرة، فيهمل ولده وفلذة كبده، وينفق هنا وهناك ويحرمه، على خلاف النسل الطاهر حيث يتلهَّف الأبُ على ولده، ويجوع ليشبع، ويتعرّى ليلبس.

فالحق سبحانه يريد النسل المحضون بالأبوين في أُبوَّة صحيحة شرعية، وأمومة صحيحة شرعية، اجتمعا على نور اللَّه.

ولك أن تُجري مقارنة بين امرأة حملت سفاحاً، وأخرى حملت حملاً شرعياً طاهراً، ستجد الأولى تحمله على مَضَض وكُره، وتود أن تتخلص منه، وهو جنين في بطنها، فإن تحاملت على نفسها إلى حين ولادته تخلصتْ منه في ليلتها، ولو بإلقائه على قارعة الطريق.

أما صاحبة الحمل الشرعي فتتلهف على الولد وإن تأخر بعض الوقت صارت قلقة تدور بين الأطباء، فإنْ أكرمها اللَّه بالحمل طارت به فرحاً وفخراً وحافظت عليه في مَشْيها وحركاتها ونومها وقيامها إلى حين الوضع فتتحمل آلامه راضيةً، ثم تحتضنه وترضعه وتعيش حياتها في خدمته ورعايته.

فاللَّه يريد أن يأتي خليفته في أرضه من إخصاب طاهر على أعين الناس جميعاً، وفي نور اللَّه المعنوي، يريد للزوج أن يأتي من الباب في ضوء هذا النور، لا أن يتلصصَ في الظلام من باب الخدم.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

الإنسان منا حين يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً، ويُؤثره على نفسه، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده، ويسعى جاهداً ليُوفِّر له رفاهية العيش، ويُؤمِّن له المستقبل المَرْضي.

لكن هذا النظام التكافلي الذي جعله الحق سبحانه وتعالى عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دبَّ الشكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه، فتتحول حياته إلى جحيم لا يُطاق، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به، لأنه طَعْنٌ في ذاته هو.

لذلك يحذرنا الحق تبارك وتعالى من هذه الجريمة النكراء، ليحفظ على الناس أنسابهم، ويطمئن كلُّ أب إلى نسبة أبنائه إليه، فيحنو عليهم ويرعاهم ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم.

يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقد قال النبي ﷺ: «مَن حام حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه»[(١)].

فالحق سبحانه خالق الإنسان ـ وهو أعلم به ـ لا يريد له أن يقترب من المحظور، لأن له بريقاً وجاذبية، كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها، لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب، وفَرْق بين الفعل وقُربان الفعل، فالمُحَرَّم المحظور هنا هو الفعل نفسه، فلماذا إذن حرَّم اللَّه الاقتراب وحذَّر منه؟

نقول: لأن اللَّه تعالى يريد أن يرحم عواطفك في هذه المسألة بالذات، مسألة الغريزة الجنسية، وهي أقوى غرائز الإنسان، فإن حُمْتَ حولها تُوشك أن تقعَ فيها، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلمُ لك.

وحينما تكلم العلماء عن مظاهر الشعور قسَّموها إلى ثلاث مراحل: الإدراك، ثم الوجدان، ثم النزوع.

فلو فرضنا أنك تسير في بستان، فرأيتَ به وردة جميلة، فلحظة أن نظرت إليها، هذا يُسمَّى [الإدراك] لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر، ولم يمنعك أحدٌ من النظر إليها والتمتُّع بجمالها.

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرُها واستقرَّ في نفسك حُبُّها، هذا يُسمَّى [الوجدان] أي: الانفعال الداخلي لمَا رأيتَ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا [نزوع] أي: عمل فعل.

ففي أيِّ مرحلة من هذه المراحل الثلاث يتحكم الشرع؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع، ولا يمنعك من الإدراك، أو من الوجدان، إلا في هذه المسألة [مسألة الغريزة الجنسية] فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان، ولا الوجدان عن الإدراك، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة، بحيث لا تَقْوَى النفسُ البشرية على الفَصْل بينها.

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولد إعجاباً

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١)، وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير، ولفظه: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى اللَّه محارمه».

وميلاً ثم عشقاً وغريزة عنيفة تدعوه أن تمتدَّ يده ويتولد النزوع الذي نخافه، وهنا إما أن ينزع ويُلبي نداء غريزته، فيقع في المحرم، وإما أن يعفَّ ويظل يعاني مرارة الحرمان.

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر، لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب، بل حرَّم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

لأنك لو أدركتَ وجدتَ، ولو وجدتَ لَنزعتَ، فإن أخذتَ حظك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشقاً لن تناله، وليس لك صبر عنه.

إذن: الأسلم لك وللمجتمع، والأحفظ للأعراض وللحُرمات أن تغضَّ بصرك عن محارم الناس، فترحم أعراضهم، وترحم نفسك.

لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان، فيغشّ الإنسان نفسه بالاختلاط المُحرَّم، وإذا ما سُئلَ ادعى البراءة وحُسْن النية، وأخذ من صلة الزمالة أو القرابة أو الجوار ذريعةً للمخالطة والمعاشرة، وهو لا يدري أنه واهمٌ في هذا كله، وأن خالقه سبحانه أدرى به وأعلم بحاله، وما أمره بغضِّ بصره إلا لمَا يترتب عليه من مفاسد ومضارّ، وإما تعود على المجتمع، أو عليه نفسه.

لذلك قال ﷺ: «النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، مَنْ تركها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(١).

فمسألة غَضِّ البصر التي يأمرنا بها ربُّنا عزَّ وجلَّ هي صمام الأمان الذي يحمينا من الانزلاق في هذه الجرائم البشعة ويسدّ الطريق دونها، فهذا الاحتياط وهذه الحدود التي وضعها اللَّه عز وجل وألزمنا بها، إنما هي لمنع جريمة الزنا البشعة؛ لأن النظرَ أولُ وسائل الزنا، وهو البريدُ لما بعده.

ألا ترى شوقي رحمه اللَّه حين تكلم عن مراحل الغَزَل، قال:

---

(١) الحاكم في مستدركه (٤/ ٣١٤) عن حذيفة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه قال الذهبي في تلخيصه: «إسحاق وَاهٍ، وعبد الرحمن هو الواسطي ضعَّفوه».

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلامٌ فَكَلامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءٌ

فالأمر بغَضِّ البصر ليسدّ منافذ فساد الأعراض، ومنع أسباب تلوث النسل؛ ليأتي الخليفةُ للَّه في الأرض طاهراً في مجتمع طاهر نظيف شريف لا يتعالى فيه أحدٌ على أحد، بأن له نسباً وشرفاً، والآخر لا نسبَ له.

ذلك ليطمئنَ كلُّ إنسان على أن مَنْ يليه في الخلافة من أبناء أو أحفاد، جاءوا من طريق شرعيٍّ شريف، فيجتهد كلُّ إنسان في أنْ يُنشِّئَ أطفاله تنشئةً فيها شفقة وحنان ورحمة، لأنه واثقٌ أنه ولده ليس مدسوساً عليه، وأغلبُ الظنِّ أن الذين يهملون أطفالهم ولا يُراعون مصالحهم يشكُّون في نسبهم إليهم.

ولا يصل المجتمع إلى هذا الطُّهْر إلا إذا ضُمنَتْ له الصيانةُ الكافية، لئلا تشرُدَ منه غرائز الجنس، فيتعدي كل نظر على ما لا يحل له، لأن النظر بريدٌ إلى القلوب والقلوب بريدٌ إلى الجنس، فلا يعفّ الفرج إلا بعفاف النظر.

وحفظ الفروج يكون بأن نقصرها على ما أحله اللَّهُ وشرعه فلا أنيله لغير محلل له سواء كان من الرجل أو المرأة؛ لأن رؤيته تهيج إلى الشر والفتنة. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.. [النور: ٣٠]. يعني: أطهر وأسلم وأدعى لراحة النفس؛ لأنه إما أن ينزع فيرتكب مُحرماً، ويلج في أعراض الناس، وإما ألَّا ينزع فيكدر نفسه، ويؤلمها بالصبر على ما لا تطيق.

ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يَقُلْ: لا تزنوا؛ لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها، فاحذر أن تجعل نفسك على مقربة منها؛ لأن مَنْ حامَ حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ودَعْكَ ممَّنْ ينادون بالاختلاط والإباحية؛ لأن الباطل مهما علا، ومهما كَثُرَ أتباعه فلن يكون حقاً في يوم من الأيام.

واحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه، وهو ابن خالها، وهما تربَّيَا في بيت واحد، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تغير من وجه الحرام شيئاً، فطالما أن الفتاة تحلّ لك، فلا يجوز لك الخلوة بها.

في الحديث النبوي: «لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطانُ ثالثهما»[(١)].

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (١/ ١١٤) من حديث ابن عمر، وقال: صحيح على شرط =

إذن: ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر، وما حرَّم الخُلوة في ذاتها، ولكن حرَّمهما؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، أبلغُ في التحريم وأحوطُ وأسلمُ من: لا تزنوا.

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

هذا النصُّ الكريم جعلنا نبتعد عن الأماكن التي فيها الخمور، فلا نجلس مع مَنْ يشربونها، ولا نتاجر فيها، حتى لا نقعَ في المعصية، فإذا رأيتَ مكاناً فيه خمر فابتعد عنه في الحال، حتى لا يُغريك منظرُ الخمر وشاربها بأن تفعلَ مثله، والحقُّ جلَّ جلاله يقول في المحرمات: لا تقربوا أي: اجتنبوا.. أي: لا تحوموا حولها؛ لأنها إذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها.

واجتنابها يكون بألَّا تُوجد معه في مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك، فعندما تكون مثلاً في منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق: اجتنبها. أي: لا تذهب إليها؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى مَنْ يشربون وهم مستريحون مسرورون، فقد تشربها، ولكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع في براثنها وإغرائها.

ولذلك قلنا: إن الاجتناب أبلغ من التحريم، ولكن طلع علينا مَنْ يقول: ليس هناك نصٌّ في التحريم؛ لأنه لم يقُلْ: حُرِّمت عليكم، فهي مجرد موعظة ونصيحة.

ونقول: لو فهم معنى ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ لَعَلِمَ أنها أقوى في التحريم من: حُرِّمت عليكم؛ لأن معنى حُرِّمت عليكم الخمر يعني: لا تشربوها. أما (فاجتنبوه) فيعني: ابتعدوا عنها كلية شرباً، أو بَيْعاً، أو شراء، أو نقلاً، أو حتى الجلوس في مجالسها.

= الشيخين. وأشار إليه الترمذي في سننه (١١٧١) وأخرجه موصولاً مرفوعاً (٢١٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

والحق سبحانه يقول عن الزنا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والفاحشة هي الشيء الذي اشتدَّ قُبْحه، وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشةً؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين الذكر والأنثى، وقدَّر أن يكون منهما التناسلُ والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها، ومظلة لا يتم الزواج إلا تحتها، ولم يترك هذه المسألة مشاعاً يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للناس الأنسابَ، ويحمي طهارةَ النسل، فيطمئن كلُّ إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده.

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القران الذي يجمعهما بكلمة اللَّه وعلى سنة رسوله ﷺ، وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها، أو يحاول الاقتراب منها أو ما شابه ذلك، ماذا سيكون موقفك؟ لا شكَّ أن نارَ الغيرة ستشتعل بداخلك، وربما تعرضتَ لهذا الشاب، وأقمتَ الدنيا ولم تُقعدها.

لكن، إذا ما طرقَ هذا الشابُّ بابك، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترحاب، وتسعد به، وتدعو الأهل، وتُقيم الزينات والأفراح. إذن: فما الذي حدث؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟ الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام؛ لذلك قيل: «جدعَ الحلالُ أنفَ الغيرة».

فالذي يغار على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يجهز ابنته، ويُسلمها بيده إلى زوجها، لأنهما التقيا على كلمة اللَّه، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب.

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة: زوَّجتك ابنتي. ويقول الزوج: وأنا قبلتُ. تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً، وتُحدث فيها انبساطاً وانشراحاً، لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان، ولها أثرٌ في انسجام ذراته، وفي كل قطرة من دمه.

ومن آثار كلمة اللَّه التي يلتقي عليها الزوجان، أنها تُحدث سيالاً بينهما، هو سيالُ الاستقبال الحسن، وعدم الضجر، وعدم الغيرة والشراسة، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء.

هكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي ويسكن كلٌّ منهما للآخر، لأن

ذراتهما انسجمتْ وتآلفتْ، ويفرح الأهل ويسعد الجميع، وصدق رسول اللَّه ﷺ حين قال في وصيته بالنساء: «إنما استحللتم فُرُوجَهنَّ بكلمة اللَّه»[(١)].

وهذه الكلمة من اللَّه تعالى الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يُصلحه، ولك أنْ تتصوَّرَ الحال إنْ تمَّ هذا اللقاء فيما حرَّم اللَّه، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونَكَد، ومرارة لا تنتهي، ما بقيتْ فيهما أنفاسُ الحياة.

لذلك سماه القرآنُ فاحشةً، والدليلُ على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألَّا يُعرف، وأنْ تظلَّ جرائمه خلسة من المجتمع، وأن الذي يقترف هذه الفاحشة يكره أنْ تُفعلَ في محارمه، ويكفيها فحشاً أن اللَّه تعالى سماها فاحشةً، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانيةً أمام أعين الجميع.

وقد عالج رسول اللَّه ﷺ هذا الداء حينما أتاه شابٌّ يشتكي ضعفه أمام غريزته الجنسية، ويقول له: يا رسول اللَّه، ائذن لي في الزنا، والنبي ﷺ أتى بقضايا دينية عامة للجميع، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه.

فكيف استقبل رسولُ اللَّه ﷺ هذا الشابَّ الذي جاءه يقول: يا رسول اللَّه إنني أصلي وأصوم، وأفعل كلَّ أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة؟

هل نهره واعتبره شاذاً وأغلق الباب في وجهه؟ لا واللَّه، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية.

هذا الشاب ما جاء لرسول اللَّه إلا وهو كارهٌ لمرضه، وأول ظاهرة في العافية أنْ تعترفَ بمرضك، ولا تتكبَّر عليه، فإنْ تكبَّرت عليه استفحل واستعصى على العلاج.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) كتاب الحج ـ باب حجة النبي ﷺ (١٩) وفيه: «فاتقوا اللَّه في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان اللَّه، واستحللتم فروجهن بكلمة اللَّه، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشكم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف».

اعتبر النبي ﷺ شكوى هذا الشاب ظاهرةً صحية في إيمانه لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ويجد لها شيئاً في نفسه، وانظر كيف عالجه ﷺ.

انظر إلى منهج الدعوة، كيف يكون؟ وكيف استلَّ رسول اللَّه ﷺ الداء من نفس هذا الشاب؟ فلم يزجره ولم ينهره ولم يُؤذه، بل أخذه وربَّت على كتفه في لطف ولين، ثم أجلسه وقال له: «يا أخا العرب، أتحبّ هذا لأمك؟ فانتفض الشاب وتغيَّر وجهه، وقال: لا يا رسول اللَّه، جُعلت فداك فقال: أتحبه لأختك؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لبناتك؟ والشاب يقول في كل مرَّة: لا يا رسول اللَّه، جُعلت فداك. ثم قال ﷺ: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، ولا لأخواتهم، ولا لزوجاتهم، ولا لبناتهم»، ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له: «اللَّهم نَقِّ صدره، وحَصِّن فَرْجَهُ».

وانصرف الشاب وهو يقول: لقد خرجتُ من عند رسول اللَّه وليس أكره عندي من الزنا، واللَّه ما هممتُ بشيء من ذلك إلا وذكرتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي[(١)].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عن سبيل الفاحشة: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، والسبيل هو الطريق المُوصِّل لغاية، وغايةُ الحياة أننا مُستخلفون في الأرض، خلقنا اللَّه لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعاً، ويعود علينا بالخير والصلاح، فإذا ضلَّ الإنسانُ وانحرف عمَّا رسمه له ربُّه أفسد هذه الخلافة، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها.

وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال من الانحراف، وما امتدّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً، وساء طريقاً ومسلكاً، يقضي على سلامة المجتمع وأمنه وسعادته.

ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٦، ٢٥٧) والطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١٩٠، ٢١٥) من حديث أبي أمامة، وفيه أن رسول اللَّه قال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء.

مكان، في الحجرة التي تدخلها، وفي السرير الذي تنام عليه، وفي دورة المياه التي تستعملها، الجميع في رعب وفي هلع، والإيدز ينتشر انتشارَ النار في الهشيم، وأصبح لا يَسْلم منه حتى الأسوياء الأطهار.

وما حدث هذا الفزع إلا نتيجةً لخروج الإنسان عن منهج اللَّه خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها، فأحدث اللَّهُ لهم من الأمراض والبلايا بقدر فُجورهم وعصيانهم، وما داموا لم يأتوا بالحُسْنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين.

فالعالم كله الآن يباشر مشروعات عفة وطهارة، لا عن إيمان بشرع اللَّه، ولكن عن خوف وهلع من أمراض شتى لا ترحم، ولا تفرق بين واحد وآخر.

إذن: الزنا فاحشة وساء سبيلاً، وها هي الأحداث والوقائع تثبت صدق هذه الآية، وتثبت أن أيَّ خروج من الخلق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نكدُ الدنيا قبل ما ينتظرهم في الآخرة.

لذلك يتوعد الحقُّ سبحانه وتعالى مَنْ يخالف هذا المنهج ويريد أنْ يفسدَ شرف الخلافة التي يريدها اللَّهُ طاهرة، ويُدنس النسل، ويُوغر الصدور بالأحقاد والعداوات، ويزرع الشكَّ في نفوس الخَلْق، وجرائم العرض لا يقتصر ضررها على العداوات الشخصية، إنما تتعدى هذه إلى الإضرار بالمجتمع كله.

وانظر إلى الإيدز الذي يهدد المجتمعات الآن، وهو ناتجٌ عن الالتقاء غير

الشرعي، وخطر الإيدز لا يقتصر على طرفيه إنما يتعداهما إلى الغير.
إذن: من صالح المجتمع كله أن نقيم حدَّ الزنا حتى لا يستشريَ هذا الداء.

ونعجب من هؤلاء الذين يهاجمون شرع اللَّه في مسألة الحدود، حين تقضي برجم الزاني المُحْصَن حتى الموت، ألَا يعلم هؤلاء أننا نُضحي بواحد لنحفظ سلامة الملايين في صحة وعافية؟ ألَا يرونَ ما يحدث مثلاً في وباء الطاعون الذي أعجز العلماء حتى الآن، ولم يجدوا له علاجاً، وكيف أن الشرع أمرنا إنْ نزل الطاعونُ بأرض ألَّا نذهب إليها، وأمر مَنْ فيها ألَّا يخرجوا

منها[١]، لماذا؟ لنحصرَ هذا الوباء حتى لا يستشريَ بين الناس.

كذلك الحال في مسألة الزنا؛ لأن الزاني لا يقتصر شرُّه عليه وحده، إنما يتعدَّى شرُّه إلى المجتمع كله، مع مراعاة أن الشرع فرَّق بين الزاني المُحْصَن وغير المُحْصَن، وكذلك الزانية، ففي الإحصان تتعدد الماءات في المكان الواحد؛ وقد سُئلنا في سان فرانسيسكو: لماذا أبحتُم تعدد الزوجات، ولم تبيحوا تعدد الأزواج؟ هذا منهم على سبيل قياس الرجل على المرأة: لماذا لا تتزوج المرأة وتجمع بين أربعة رجال؟

قلتُ: اسألوهم، أليس عندهم أماكن يستريح فيها الشباب جنسياً يعني: بيوت للدعارة؟ قالوا: نعم في بعض الولايات، قلت: فبماذا احتطتُم لصحة المجتمع وسلامته؟ قالوا: نُجري عليهم كشفاً دورياً كل أسبوع، قلت: وهل هذا الكشف الدوري يستوعب الجميع؟ أم أنه مجرد عينات عشوائية.

إذن: من الممكن أن يتسرَّب المرضُ بين هؤلاء الشباب، وهَبْ أنك أجريتَ على إحداهن الكشف يوم الأحد مثلاً، وفي يوم الاثنين جاءها المرض، فإلى كم واحد سينتقل المرض إلى أن يأتي الأحد القادم؟ فهذه مسألة لا تستطيع السيطرة فيها على الداء.

ثم أتُجرون هذه الفحوصات على المتزوجين والمتزوجات؟ وهل اكتشفتم بينهم مثل هذه الأمراض؟ قالوا: لا. لم يحدث أن اكتشفنا هذا بين المتزوجين.

قلت: إذن كان عليكم أن تنتبهوا إلى سبب هذه الداءات، وأنها تأتي من تعدُّد ماءات الرجال في المكان الواحد؛ لأن لكل ماء سياله، وله ميكروبات تتصارع، إن اجتمعتْ في المكان الواحد ينشأ منها المرض.

لكن حين يكون للزوجة زوجٌ واحد، فلن نرى مثل هذه الداءات في المجتمع، ومن هنا يأتي دور الوازع الديني، فإن فُقد الوازع الديني فلا بُدَّ من

---

(١) عن أسامة بن زيد قال: قال النبي ﷺ في الطاعون: «هو عذابٌ أو رجز أرسله اللَّه على طائفة من بني إسرائيل، أو ناس كانوا قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها عليه، وإذا دخلها عليكم فلا تخرجوا منها فراراً». أخرجه البخاري في صحيحه (٥٧٢٨) وكذا مسلم (٢٢١٨) كتاب السلام باب الطاعون (٣٢).

الوازع الحسِّي ليزجر مثل هؤلاء، ويُوقفهم عند حدود اللَّه رغماً عنهم، حتى وإن لم يكونوا يؤمنون بها.

إذن: هذه أقضية ومشاكل وداءات حدثت للناس بقدر ما أحدثوا من الفجور، وبقدر ما انتهكوا من حرمات اللَّه، وانظر مثلاً لمن يُضطر للسفر إلى مثل هذه البلاد، كم يكون حذراً مُفزَّعاً حين يقيم مثلاً في فندق، فيأخذ أدواته الشخصية، ويخاف أن يستعمل أشياء غيره، ويحرص على نظافة المكان وتغيير الفراش قبل أن ينام عليه.. الخ كل هذه الاحتياطات.

فالشرع حين يأمر بقتل الزاني أو الزانية إنما فعل ذلك ليسلم المجتمع بأَسْره، لذلك منع الحق سبحانه الرأفة بالزاني والزانية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].

فالرأفة لا تكون في حدود اللَّه، ارأفوا بهم في مسائلكم الخاصة فيما بينكم، وعجيبٌ أن تدَّعوا الرأفة في مسائل الحدود وأنتم من ناحية أخرى تضربون وتسرقون أموال الناس، وتنتهكون حُرماتهم، وتثيرون بينهم الفتنة والحروب.

فأين الرأفة إذن؟

إذن: لا مجالَ للرحمة وللرأفة في حدود اللَّه، فلسْنا أرحمَ بالخلق من الخالق، فلا تأخذكم بهم رأفة، لأن الرأفة قد تُغري بالذنب، فنحن بالعقوبة نحمي المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم، فلو أخذتكم الرحمة في هذه اللحظة فأنتم تشجعون الجريمة.

وإذا كنتم تريدون الرأفة والرحمة حقاً بهذا المجتمع وبأفراده، فلتلزموا أمر الحق سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن مسألة حفظ الفروج، ودعا إلى الحفاظ على طهارة الأنساب، أراد أن يتكلم عن هؤلاء الرجال والنساء الذين لم يتيسَّر لهم أمر الزواج، ذلك ليعالج الموضوع من شتى نواحيه؛ لأن المشرِّع لا بدَّ أن يستولي بالتشريع على كل ثغرات الحياة، فلا يعالج جانباً ويترك الآخر.

والأيامى جمع أيِّم، والأيِّم من الرجال مَنْ لا زوجةَ له، والأيم من

النساء مَنْ لا زوجَ لها، والمراد أمر أولياء الأمور ومَن عندهم رجال ليس لهم زوجات، أو نساء ليس لهن أزواج: عَجِّلوا بزواج هؤلاء، ويسِّروا لهم هذه المسألة، ولا تتشددوا في نفقات الزواج حتى تعفّوا أبناءكم وبناتكم، وإذا لم تعينوهم فلا أقلَّ من عدم التشدد والمغالاة.

وفي الحديث الشريف: «إذا جاءكم مَنْ ترضوْنَ دينه وخلقه فزوِّجوه، إلَّا تفعلوا تكُنْ فتنة في الأرض وفساد كبير»(١).

ومع ذلك ففي مجتمعاتنا الكثير من العادات والتقاليد التي تعرقل زواج الشباب، أخطرها المغالاة في المهور وفي النفقات، والنظر إلى المظاهر.. إلخ، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لأولياء الأمور: يسِّروا للشباب أمور الالتقاء الحلال، ومَهِّدوا لهم سبيلَ الإعفاف.

وقد أعطانا القرآنُ نموذجاً لمَا ينبغي أن يكون عليه وليُّ الأمر، فقال تعالى عن سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ [القصص: ٢٧].

ذلك لأن موسى عليه السلام سيكون أجيراً عنده، وربما لا يتسامى إلى أنْ يطلب يد ابنته؛ لذلك عرضها عليه، وخطبه لها، وشجَّعه على الإقبال على زواجها، فأزال عنه حياء التردد، وهكذا يجب أن يكون أبو الفتاة إنْ وجد لابنته كفؤاً، فلا يتردد في إعفافها.

وفي الأمثال نقول: (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك)؛ ذلك لأن كبرياء الأب يمنعه أن يعرضَ ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح ـ وإنْ كان القلة يفعلون ذلك ـ وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة، فكثيراً ما نجد الشاب سويَّ الدين، سويَّ الأخلاق، لكن مركزه الاجتماعي ـ كما نقول ـ دون مستوى البنت وأهلها، فيتهيَّب أن يتقدَّم لها فيُرفض.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٠٨٤) وابن ماجه في سننه (١٩٦٧) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه، ورجح الترمذي إرساله، ثم أخرجه (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني وحسَّنه.

وفي هذه الحالة، على الأب أنْ يُجرِّئَ الشاب على التقدُّم، وأن يُلمِّح له بالقبول إن تقدَّم لابنته، كأنْ يقول له: لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن، وألف بنت تتمناك؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع.

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾، فهذا شيء آخر، وأدب عَالٍ من العارض، ومن المعروض عليه، وفي مجتمعاتنا كثيرٌ من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجُرْأة، وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

ففي حالة إذا لم ننكح الأيامى ولم نُعنهم على الزواج ولم يقدروا هم على القيام بنفقاته يصف لهم الحق سبحانه العلاجَ المناسب وهو الاستعفاف، وقد طلب اللَّه تعالى من المجتمع الإسلامي ـ سواء تمثَّل في أولياء الأمور أو في المجتمع العام ـ أن ينهضَ بمسألة الأيامى، وأنْ يُعينهم على الزواج، فإنْ لم يَقُم المجتمع بدوره، ولم تكُنْ لهؤلاء الأيامى قدرةٌ ذاتية على الزواج فليستعفف كلٌّ منهم حتى يُغنيهم اللَّه.

أي: بأن يحاول كلٌّ منهم العفاف، ويطلبه ويبحث عن أسبابه، بل يجاهد أنْ يكون عفيفاً، وأول أسباب العفاف أنْ يغضَّ بصره حين يرى، فلا يوجد له مُهيِّج ومثير، فإنْ وجد في نفسه فتوة وقوة، فعليه أن يُلجمها ويضعفها بالوسائل الشرعية، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءةَ ـ يعني: نفقات الحياة الزوجية ـ فليتزوج، ومَنْ لم يَجد فعليه بالصوم، فإنه له وجاءٌ[(١)]»[(٢)].

والصوم يعمل على انكسار هذه الشهوة، ويهدئ من شراسة الغريزة؛ ذلك لأنه يأكل فقط ما يُقيم أَوْدَهُ، ولا يبقى في بدنه ما يثير الشهوة، كما جاء

(١) الوجاء: هو أن تُضرب الخصيتان ضربة شديدة تُذهب شهوةَ الجماع وينزل منزلة الخَصْي. وقال ابن منظور في (اللسان ـ مادة: وجأ) أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٦٥) ومسلم في صحيحه (١٤٠٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

في الحديث الشريف: «بحَسْب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلبه»[(١)].

أو: أن يُفرِّغ الشاب نفسه للعمل النافع المفيد الذي يشغله ويستنفد جهده وطاقته، التي إنْ لم تُصرف في الخير صُرِفَتْ في الشر، وبالعمل يثبت الشاب ذاته ويثق بنفسه، ويكتسب الحلال الذي يُشجعه مع الأيام على الزواج وتحمُّل مسؤولياته.

وقد أعطانا الحق سبحانه مثلاً لعبد من عباده الذين عصموا أنفسهم من الوقوع في هذه الفحشاء، فحدَّثنا الحق سبحانه عن ذلك النبي الشاب يوسف عليه السلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فيوسف عليه السلام راودتْه سيدة القصر عن نفسه، ومن قبل كان يوسف يخدمها، وكانت تنظر إليه كطفل، أما بعد أن بلغ أشُدَّه فقد اختلف الأمر، وهو لن يستطيع الفكاك؛ لأنه في بيتها وهي مُتمكِّنة منه، فهي سيدة القصر.

فالأمر مجموعٌ عليه من عدة جهات، فهو قد تربَّى في بيتها، وهي التي تتلطف وترقّ معه، وفَهِمَ هو مرادها.

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب، فقصورُ العظماء بها أكثر من باب، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء في بيته لتجده في استقبالك بعد أول باب، بل يجتاز الإنسانُ أكثرَ من باب ليلقي العظيم الذي جاء ليقابله، فامرأة العزيز قد غلَّقتِ الأبواب؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْحَ ما يفعل، ويحاول أنْ يستر فعله، وهي قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون في القصر، وحدثتِ المراودة وأخذتْ وقتاً، لكنه فيما يبدو لم يستجب لها. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾.. [يوسف: ٢٣]، أي: أنها انتقلت من مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح في طلب الفعل، بأنْ قالت: تهيأتُ لك، وكان ردّ يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

والمَعاذ هو مَنْ تستعيذ به، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) والترمذي في سننه (٢٣٨٠) عن المقدام بن معد يكرب وتمامه: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمنَ صلبه، فإنْ كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفَسه».

الحدث الذي تمرُّ به، عَلَّكَ تجد مَنْ ينجدك، فكأن المسألة قد عزَّتْ عليه، فلم يجد مَعَاذاً إلا اللَّه.

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يتصرفَ هكذا إلا مَنْ حرسه اللَّهُ بما أعطاه له من الحكمة والعلم، وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وأعطانا هذا القولُ معنيين اثنين:

الأول: أنه لم يوافق على طلبها بعد أنْ أوضحتْ ما تريد.

الثاني: أنه طلب المعونة من اللَّه، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ونجَّاه من الجُبِّ، وهيأ له أفضلَ مكان في مصر ليحيا فيه، ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه.

وبعد كل هذا، أيستقبل كلَّ هذا الكرم بالمعصية؟ طبعاً لا.

أو: أنه قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١]، ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

لا تأتي الصعوبة فقط من أنها تدعوه لنفسها، بل الصعوبة تزداد سوءًا؛ لأن لها زوجاً، هذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف، وتختار له مكانَ إقامة يليق بابنه، ولا يمكن أن يستقبل ذلك بالجحود والخيانة. ﴿رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦].

الحق سبحانه يريد أن يُوضِّح لنا أن يوسفَ كان طبيعياً، وهو قد بلغ أشُدَّهُ ونُضْجه، ولولا أنْ رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، ولو نظرتَ إلى كل أبطال القصة تجدهم تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء.

فيوسف نفسه قال: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢].

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدقة لما قال: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وقالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: ٥٢].

والنسوة اللاتي دَعتْهُنَّ امرأةُ العزيز ليشاهدوا جماله وليعذروها قُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وقد قُلْنَ فيما بَعْد: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ . .﴾ [يوسف: ٥١].

والعزيز نفسه أدرك ما وقعتْ فيه امرأته، فقال بعد ظهور براءة يوسف بعد شهادة شاهد من أهلها: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فكلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر، وتسابقا في هذا الاستباق، وهذا يدلُّ على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير، وهي قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير؛ لأنها تريد أنْ تغلقَ الباب لتسدَّ أمامه المنفذ الأخير، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل، فهي تريده عن نفسه، وهو يريد الفرار من الموقف، ثم قدَّتْ قميصه من دُبُر.

وهذا دليلٌ على أنه قد سبقها إلى الباب، فشدَّته من قميصه من الخلف، وتمزَّق القميص في يدها.

وهنا حدثتِ المفاجأة، وهي ظهور زوجها عزيز مصر أمامهما وصار المشهد ثلاثياً: امرأة العزيز، ويوسف، وزوجها. وهنا ألقتِ المرأةُ الاتهامَ على يوسف عليه السلام في شكل سؤال تبريري للهروب من تبعية الطلب، وإلقاء التُّهم على يوسف. ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ . . [يوسف: ٢٥]، ثم حددتِ العقاب ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، وهنا قال يوسف عليه السلام مُدافعاً عن نفسه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْن مختلفيْن، قولها هي باتهام يوسف وقوله هو باتهامها، ولا بدَّ أنْ يأتي بمَنْ يفصل بين القولين، وأن تكون له دقةُ استقبال وفَهْم الأحداث. ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٦ ـ ٢٨].

وعندما أيقن عزيزُ مصر براءة يوسف قال: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٩].

وبهذا القول من الزوج أنهى الحق سبحانه هذا الموقف عند هذا الحدِّ، الذي جعل عزيز مصر يُقرُّ أن امرأته قد أخطأتْ، ويطلب من يوسف أن يُعرضَ عن هذا الأمر ليكتمه.

وهذا يُبيِّن لنا سياسة بعض من أهل الجاه مع بيوتهم، وهو أمرٌ نشاهده في عصرنا أيضاً، فنجد الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أنْ يرى أهله في خطيئة ويتأبَّى أكثر من ذلك، فيرفض أن يرى الغيرُ أهله في مثل هذه الخطيئة، ويحاول كتمان الأمر في نفسه، فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف، ولا يريد أنْ يشمتَ به خصومه أو أعداؤه.

لكن الخبر شاع في المدينة ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٠].

قَوْل النسوة هذا لم يَكُنْ غضباً للحق، ولا تعصُّباً للفضيلة، ولكنها الرغبةُ للنكاية بامرأة العزيز، وفضحاً للضلال الذي أقامتْ فيه امرأة العزيز وأردْنَ أيضاً أنْ يُنزلنَ امرأة العزيز عن كبريائها وينشرْن فضيحتها، فأرَدْنَ أنْ تصير مُضغة في الأفواه لأنها راودتْ فَتَاها وخادمها عن نفسه، وهو بالنسبة لها في أدنى منزلة، وتلك فضيحة مُزْرية مُشينة.

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مقصدهن: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾ [يوسف: ٣١].

وهُنَّ حين آذيْنَ امرأة العزيز بتداول خبر مراودتها له عن نفسه تخيَّلْنَ له صورة ما من الحُسْن، لكنهنَّ حين رأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنها عنه، فحدث لهُنَّ انبهار، فذهلوا عما في أيديهم، فقطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التي أعطتْها لها امرأةُ العزيز لتقطيع الفاكهة. ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [يوسف: ٣٠]، فَهُنَّ قد نزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة

العزيز، أو أن يوسف لا بُدَّ أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التي يعرفْنها، فقُلْنَ: لا بُدَّ أنه مَلَكٌ كريم.

ومعنى قولهن أن يوسف هو الصورة العليا في الجمال التي لا يُوجد لها مثيلٌ في البشر(١).

وهنا تقول امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأتْ تأثير رؤيتهنَّ ليوسف وأعلنتْ أنه [استعصم]، وهذا يعني أنه قد تكلَّف المشقة في حجز نفسه عن الفعل، وهو قولٌ يثبت أن رجولةَ يوسف غيرُ ناقصة، فقد جاهد نفسه ليكبتها عن الفعل.

بل إنها تصدر الحكم عليها إنْ لم يوافقها فيما تريده من فعل الفاحشة، فتُعلن للنسوة أنه إنْ لم يُطعْها فيما تريد فلسوْفَ تسجنه، وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته.

أما النسوة اللاتي سمعنها، فقد طمعتْ كلٌّ منهنَّ أن تطرد امرأةُ العزيز يوسفَ من القصر، حتى تنفرد أيٌّ منهنَّ به؛ ولذلك يُورد لنا الحق سبحانه قَوْل يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ولعلَّ أكثر من واحدة قد نظرتْ إليه في محاولة لاستمالته وللعيون والانفعالات وقَسمات الوجه تعبيرٌ أبلغ من تعبير العبارات، وقد تكون إشاراتُ عيونهن قد دلَّتْ يوسفَ على المراد الذي تطلبه كلُّ واحدة منهن، وفي مثل هذه الاجتماعات تلعب لغةُ العيون دوراً هاماً.

فيوسف عليه السلام، السجن أفضل وأحبُّ إليه من أن يوافق امرأة العزيز على فعل الفحشاء، أو يوافق النسوة على دعوتهنَّ له أنْ يُحرِّرَ نفسه من

---

(١) عن أنس رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: «أُعطي يوسف وأمه شطر الحُسْن»، أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٨٦) والحاكم في مستدركه (٢/ ٥٧٠) وأورد السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٣٢) عن ابن مسعود قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتتْ لحاجة ستر وجهه مخافةَ أنْ تُفتتن به، وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني.

السجن بأنْ يستجيبَ لها، ثم يخرج إليهن من القصر بعد ذلك.

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فيوسف أراد أنْ يدعو ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه؛ لأنه هو جلَّ وعلا مَنْ ربَّاه وتعهده، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألَّا يتخلى عنه في هذا الموقف.

فيوسف عليه السلام يعرف أنه من البشر، وإنْ لم يصرف اللَّهُ عنه كيدهُنَّ لاستجاب لغوايتهن، ولأصبح من الجاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور، وعلى الرغم من أن السجن أمرٌ كريهٌ، إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه، ولأنه لجأ إلى المُربِّي الأول، لتأتي الاستجابةُ منه سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

وهكذا تفضَّل عليه اللَّه الذي خلقه وتولَّى تربيته وحمايته، فصرف عنه كيدهُنَّ، الذي تمثَّل في دعوتهن له أنْ يستسلم لمَا دعتْه إليه امرأة العزيز، ثم غوايتهن له بالتلميح دون التصريح.

تلك الغواية التي تمثلتْ في قَوْل الملك بعد ذلك: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، وهكذا أنجاه اللَّه من مَكْر النسوة، وهو جلَّ وعلا له مطلق السمع ومطلق العلم، ولا يخفى عليه شيء، ويستجيب لأهل الصدق في الدعاء.

وقد رفض يوسفُ الخروجَ من السجن إلا بعد أنْ يُحقق الملك في قضيته لتظهر براءته، فقال للساقي: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

وهكذا حرص يوسفُ على ألَّا يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذي هو فيه، إلا إذا برئتْ ساحته، وظهرتْ براءته، فقد يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك.

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يحقق الملك في ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتي قَطَّعن أيديهنّ، ودعوْنَهُ إلى الفحشاء، واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

ويُخفي هذا القول في طيَّاته ما قالتْه النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز في طلبها للفحشاء.

وهكذا نجد القصص القرآني وهو يعطينا العبرة التي تخدمنا في واقع الحياة فليست تلك القصص للتسلية بل هي للعبرة التي تخدمنا في قضايا الحياة.

وبراءة ساحة أيِّ إنسان هو أمر مهم، كي تزول أيُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أيُّ عمل، وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته، حتى لا يقولنَّ قائل في وشاية أو إشاعة «همزاً أو لمزاً»: أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز، وهو مَنْ راودته عن نفسه؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول: «عجبتُ لصبر أخي يوسف وكرمه ـ واللَّه يغفر له ـ حيث أُرسلَ إليه ليُستفتى في الرؤيا، وإنْ كنتُ أنا لم أفعل حتى أخرج، وعجبتُ من صبره وكرمه ـ واللَّه يغفر له ـ أُتيَ ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره، ولو كنتُ أنا لَبادرتُ الباب، ولكنه أحبَّ أن يكون له العذر»[(١)].

وشاء نبينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة، فقال ﷺ: «إن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. قال: لو لبثتُ في السجن ما لبثَ، ثم جاءني الرسول أجبتُ ثم قرأ (: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٠]»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٤٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): (فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك)، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من طرق عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (٣١١٦)، وقال: «حديث حسن» وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبي هريرة. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة»، وسكت عنه الذهبي.

وهكذا بيَّن لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة، وخشيته أنْ يخرج من السجن فَيُشار إليه: هذا مَنْ راود امرأة سيده.

وكان أنْ استدعى الملكُ النسوةَ، ونحن نعلم أن المراودةَ الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز واستعصم يوسف، ثم دَعَتْ هي النسوة إلى مجلسها، وقطَّعنَ أيديهن حين فُوجئن بجمال يوسف عليه السلام، وصدرت منهن إشارات ودعوات إثارة وانفعال. ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.. [يوسف: ٥١]، فهُنَّ لم يذكرنَ مسألة مراودتهنّ له، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك.

وقولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٥١]، أي: نُنزِّه يوسف عن هذا، وتنزيهنا ليوسف أمرٌ من اللَّه.

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

أي: أنها أقرَّت بأنه لم يَعُدْ هناك مجالٌ للستر، ووضح الحقُّ بعد خفاء، وظهرتْ حصَّة الحق من حصَّة الباطل، ولا مفرَّ من الاعتراف بما حدث، ولا بُدَّ من تبرئة يوسف، وهو في الحقيقة بريءٌ، بل هو في القمة من العفة والطهارة والنزاهة والاستعفاف عن الحرام رغم جماله وشبابه وفُتوته.

أحضروا حُجَّتكم

عن معاذ بن جبل رضي اللَّه عنه قال:

قال رسول اللَّه ﷺ:

«يَحْشُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ.. ثُمَّ يُنَادِي:

يَا عبَادي أَحْضرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ، فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْؤُولُونَ، يَا مَلائِكَتي.. أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب»(١)

يُحدِّثنا اللَّه تبارك وتعالى في هذا الحديث القدسي عن حَشْر الخَلْق للوقوف بين يديْ اللَّه، لن يتخلف أو يفرّ منهم أحدٌ، يقول تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ويقول تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

أي: أن الحقَّ جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أنْ نفرَّ من علمه، ولا من قدره، ولا من عذابه.. وأن الطريق المفتوح أمامنا هو أن نفرَّ إلى اللَّه، وأنه لا منجاةَ من اللَّه إلا إليه، ولذلك لا يظن كافر أو عَاصٍ أنه سيفلت من اللَّه، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة، أو أنه لن يُحاسب أو أنه يستطيع أنْ يختفي.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من اللَّه، وأنهم لن يُلاقوه. نقول لهم: إنكم ستُفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق، والجنة حق، والنار حق، ستُفاجأون بما سيحدث لكم، ومَن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيبقي له الخزي والعذاب الأليم.

إن اللَّه ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجو من عذاب اللَّه،

---

(١) أورده المتقي الهندي بنحوه من حديث معاذ في كنز العمال (ج ١٤/ حديث ٣٨٩٩٢)، وهو في الإتحافات السنية (٤٢٥)، وهو مما يشير إليه السيوطي بالضعف.

ويقول لنا: لن يفلتَ واحدٌ منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي اللَّه للحساب.

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، أي: أن اللَّه سبحانه وتعالى لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج عن طاعته شيء.. إنه سبحانه على كل شيء قدير.

وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى صوراً متعددة ومشاهدَ مختلفة ليوم القيامة، فأعطانا صورة للمعبود الباطل، وللعابدين للباطل، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش، وأعطانا صورة لمَنْ تعاونوا على الشر، ولمَنْ تعاونوا على الخير.

ومن هذه الصور التي ذكرها الحق سبحانه هي صورة حَشْر المتقين، فيقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

والوفد هم الجماعة تردُ على الملك لأخْذ عطاياه، وجمعها وفود، والواحد وافد، وهذه حال المتقين حين يجمعهم اللَّه تعالى يوم القيامة وَفداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى، ولا تظن أنهم يُحشرون ماشين مثلاً، لا بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها، رَحْلها من ذهب، وأزمّتها من الزبرجد.

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

فهناك مَنْ يدفعهم إلى النار دَفعاً، ونجد في حياتنا ـ وللَّه المثل الأعلى ـ الشرطيَّ يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن.. ذلك هو الدَّع، وهكذا يكون قول الحق سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، بضم التاء وفتح الجيم، أي: أنه مدفوعٌ بقوة قاهرة إلى النهاية، فهم يُدفعون إلى النار، ويُضربون على أقفائهم، ويُساقون سَوْقَ الدواب.

والحق سبحانه يقول: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، فالآخرة ما كانت إلا للحكم وللفَصْل في الخصومات، حيث يعرف كلٌّ ما له وما عليه، فلا تظن أن الذين آذوْكَ وظلموك سيُفلتون من قبضتنا.

فهم يُرجعون للحساب وفي قراءة تَرْجعُونَ بفتح التاء، لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم، كأنهم مضبوطون على ذلك، كالمُنبه تضبطه على الزمن، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم دون أنْ يسوقهم أحدٌ.

وعلى قراءة: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، فإياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أنْ تتأبَّوْا علينا، كما تأبيتم على رسلنا في الدنيا، لأن الداعي في الدنيا كان يأخذكم بالرِّفق واللين، أما داعي الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورغماً عنكم، ولا تستطيعون منه فكاكاً ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

ويُحدِّثنا تعالى عن الحشر، فيقول: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، والصُّور هو البوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية، فإذا جاءت النفخة الثانية نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً، والزرقة هي لونهم كما ترى شخصاً احتقن وجهه، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل، فهو انفعالٌ داخليٌّ يظهر أثره على البشرة الخارجية، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدثُ لهم هذه الزُّرقة.

وانظر إليهم ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، أي في هذه الحال التي يُحشرون فيها زُرقاً ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [طه: ١٠٣]، أي: يُسرُّون الكلام ويهمس بعضهم إلى بعض، لا يجرؤ أحدٌ منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى، والخائف حينما يُلاقي من عدوه مَا لا قبلَ له به يُخفي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه. أو: لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام، فليس في وسعه أكثر من الهمس.

فما وجه التخافت؟ وبمَ يتخافتون؟

يُسرُّ بعضهم إلى بعض ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، يقول بعضهم لبعض: ما لبثنا في الدنيا إلا عشرةَ أيام، ثم يُوضح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي، بدليل قوله في الآية بعدها: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

فانتهت العشرة إلى يوم واحد، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله سبحانه وتعالى حكايةً عنهم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، فكلُّ ما ينتهي فهو قصير.

إذن: أقوال متابينة تميل إلى التقليل، كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وما هذا التقليلُ لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقلَّة الخير الذي قدَّموه فيها، لقد غفلوا فيها فخرجوا منها بلا ثمرة، لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث، كأنه لم يكُنْ لديهم وقتٌ لعمل الخير.

حينها تخشع الأصواتُ للرحمن مصداقاً لقول الحق: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أن تضبط فيه جلبة الصوت، فما بالك بجمع كجمع القيامة من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة، ومع ذلك: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالت ما تحب، وطالما كان لها جَلبة وضجيج؟

الموقف الآن مختلف، والهَوْل عظيم، فلا يجرؤ أحدٌ من الهَوْل على رفْع صوته، والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله، مُفكِّر فيما هو قادم عليه، فإنْ تحدَّثوا تحدَّثوا سراً ومخافتةً: ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

واستمع إلى الحق سبحانه، وهو يصف اللحظة التي يخرج فيها الناس من قبورهم عند البعث والنفخ في الصور النفخة الثانية، فيقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٣].

والصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل، وهذه هي نفخة البعث، وتسبقها نفخة الصعق التي تُميتهم وتخمدهم، لذلك يقول سبحانه: ﴿فِي ٱلصُّورِ

فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]، فإن قلت: النفخة واحدة، فكيف تُميت الأولى وتُحيي الثانية؟ نقول: النفخة في الصور ما هي إلا علامةٌ فقط للحدث، أما الفاعل على الحقيقة فهو اللَّه سبحانه وتعالى، فهو الذي يميت في الأولى، ويُحيي في الثانية.

ومعنى﴿ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾: القبور. ومعنى قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١]، أي: يُسرعون، فإذا ما خرجوا من قبورهم ورأوا الحقيقة التي طالما كذَّبوها قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢]، هم الذين يقولون ويدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور لا أحدَ يقول لهم: ويلكم. إنما يقولونها هم لأنفسهم وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم.

والمعنى: يا ويلنا احضر، فهذا أوانك لأن الأمر فوق ما نحتمل ولا نستطيع دفعه، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم، بل قد يضربها ويعذبها.

وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ فيعترفون بأن الموتَ كان مجرد مَرْقد، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة. عندما يرد عليهم أي: ما ترونه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، ويجوز أنْ يكون اسمُ الإشارة إشارة إلى في ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾.. [يس: ٥٢].

الحق سبحانه أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريبَ فيه، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التي يعيشون فيها، فإن اللَّه مُدَّخر له عذاباً من نوع أشد، لأن الذين قاموا بالدعوة إلى اللَّه أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا، منهم مَنْ مات في الاضطهاد قبل أن يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين، وقبل أن يرى انتقام اللَّه من أعدائه، فإذا كان الأمرُ كذلك فلا بُدَّ أن يُري اللَّه هؤلاء المؤمنين عاقبة الكافرين وما نزل بهم من العذاب. ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣]، فإذا هنا فجائية، فبمجرد الصيحة أُحضروا جميعاً رغماً عنهم وبدون اختيارهم، ومُحضر اسم مفعول من أحضر. يعني: أُجبر على الحضور والمُثول بين يدي اللَّه للحساب.

وهذا في حَدِّ ذاته آيةٌ من آيات اللَّه سبحانه وتعالى، يقول ربُّ العزة

سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، فحين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة، وهذا هو الفارق بين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة، فميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة بل على مَهل، فالمرأة قبل أن تلد نشاهد حملها عدة أشهر، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر فلا فجأة إذن.

ويوم القيامة هو أيضاً يوم الجمع، يُجمع له الناس، يقول ربُّ العزة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

فالمؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شكَّ فيه، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شكٌّ فيه، لأنه لو كان هناك ريبٌ فيه لكان الذين انحرفوا في الحياة الدنيا وولغُوا في أعراض الناس، وأخذوا أموال الناس، وعاثوا في الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا في سذاجة.

فالمنطق يقتضي أنه ما دام قد وُجدَ أناسٌ قد ظلموا واعتدوا، وأناسٌ أُعتدي عليهم، فلا بُدَّ أن يكون هناك حسابٌ، ولا يكون هناك حسابٌ إلا إذا انتهتْ حكاية الموت، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء اللَّه.

ودليلُ هذا من الجاحدين أنفسهم، كيف؟

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتُها القوانين التي تكفل حماية حركة المجتمع، هم يضعون مثل هذه القوانين، ومَنْ يخالفها يتم حسابه وعقابه، فإذا كان العقابُ يمنع المجاهرةَ بالجريمة، فماذا يكون الموقف؟ إن الماهر إذن هو مَنْ يفلح في المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب.

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع القوانين لحماية نفسها، فماذا تفعل هذه المجتمعات في الذين ستروا أنفسهم؟ هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا، وكان يجب أنْ تقولوا أنتم إنَّ هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقابُ مَنْ أفلت منا.

فأنت أيها الملحد قد قننتَ لمَنْ خالف تقنينك عقوبة، وهذا إنْ وقعت عليه

عينك، وقبضت عليه يدك، فما قولك فيمن لم تقع عليه يدك؟

وسبحانه الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة الذي لا ريبَ فيه ولا شكّ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتي الكافر على رغم أنفه، والمؤمن يبغي رحمةَ اللَّه وفضله ويفرح بلقاء ربه.

والجمع في هذا اليوم يكون من عدة وجوه: البعث حيث يجمع بين الجسم والروح، ويجمع الملائكة في الملأ الأعلى بالبشر، ويجمع الظالم والمظلوم والتابع والمتبوع.

وهو أيضاً يوم الحساب، فيحشر اللَّه عزَّ وجلَّ الناس كل الناس ويجمعهم للحساب، كما في الحديث القدسي الذي نحن بصدده: «أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب».

وقد وصف الحقُّ نفسه بأنه سريعُ الحساب، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالحق سبحانه يحذرك أن تستبطئ حسابه، لماذا؟ لأنه من الجائز أن يأتي لك الحساب من اللَّه في الدنيا وهَبْ أن اللَّه لم يَبتلِ هذا الإنسانَ ببلاء كبير في الدنيا، فإن هذا الإنسانَ سيكون له الحسابُ العسير في الآخرة.

وقد يقول قائل: إن الحساب في الدنيا قد يُؤجله اللَّه إلى الآخرة، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر.

لمثل هذا القائل نقول: هناك فرقٌ بين الحدث في ذاته وبين الحدث فيمَنْ يُجري عليه الحدث، هناك فرقٌ بين أن تقوم القيامةُ على الناس جميعاً، وبين أنْ تُختصر حياة الإنسان بحادثة ليست في حسبانه، فقد تأتي له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب.

إن استبطأ إنسانٌ الحساب فعليه أن يعرفَ أن الآخرة قد تجيء له أسرعَ من مسائل الدنيا فالإنسانَ لا يقدر على أن ينقل إليه من يريد في أيِّ وقت.

وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطئ للحساب أسرعَ من حساب الدنيا، وكلمة﴿ٱلْحِسَابِ﴾ كلمة تُطمئن المؤمن إلى أن اللَّه قائمٌ بالقسط لا

يتخلى حتى عمَّن كفر به أو عصاه، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه.

ويقول الحق سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، والجزاء أمرٌ طبيعي في الوجود، وحتى الذين لا يؤمنون بإله، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها.

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالقُ الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً، ولو لم يضع الحقُّ سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب لَنَال كل مفسد بُغْيته من فساده، ولأحسَّ أهل القيم أنهم قد خُدعوا في هذه الحياة.

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً فلا ظلمَ فيه إذن، لأنه صادر عَمَّنْ قال: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، فلا نجامل صاحب الحسنة، ولا نظلم صاحب السيئة.

و لا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة، والجزاء إنما هو بما كسبتْ كلُّ نفس ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١]، يعني أن المؤمن أو الكافر سيلقى جزاء ما فعل إنْ ثواباً أو عقاباً.

والكسب كما نعلم هو أن تأخذ زائداً عن الأصل، فأنت حين تحرم نفسك من شيء في الدنيا ستأخذ جزاءً هو الثواب وما يزيد عن الأصل، ومن كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها، ويُقال: كسب السيئة. ولا يُقال: اكتسبها. ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية، ويفرح بارتكابها، ولا بُدَّ إذن من الجزاء، والجزاء يحتاجُ حساباً، والحساب يحتاج ميزاناً.

والحق سبحانه يُطمئن عباده فيقول: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، فوزن الأعمال إبطالٌ لحجة الذين يخافون النار ولم يُؤدوا حقوقَ اللَّه في الدنيا، وكلُّ ذلك يؤكد الحجة ويُظهر الإنصاف ويقطع العذر.

وهو مقتضى قوله هنا: «يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْؤُولُونَ»، فوزن أعمالكم عليكم واقع لا مفرَّ منه

فأعدّوا أنفسكم للحساب، وأحضروا حُجتكم وبرهانكم، ولكن لا تخشوا فاللَّه يقول: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فهذه الموازين هي عَيْنُ العدل، وليستْ مجرد موازين عادلة، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عَدْلٌ في ذاتها. فالقسط صفةٌ للموازين، وهي مصدر بمعنى عدل، كما تقول في مدح القاضي: هذا قاض عادل. أي: موصوفٌ بالعدل، فإذا أردتَ المبالغة تقول: هذا قاض عدل، كأنه هو نفسه عَدْل أي: معجون بالعدل، لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه: الحكم العدل. ولا نقول: العادل.

فموازينُ اللَّه غير موازين البشر، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأنْ يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخُدع، لكن الحقَّ هو العادل الحق، وهو صاحب الميزان الأعدل، فالعدل عند اللَّه أكثر دقة وله مُطلق الدقة.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، فهل هي موازين متعددة أم هو ميزان واحد؟

الخلق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كلٌّ منهم دوره، بل سيقفون صفوفاً كما ذكر الحديث القدسي هنا: «أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً»، فيُحاسبون جميعاً في وقت واحد، لذلك لمَّا سُئلَ الإمام علي كرَّم اللَّه وجهه: كيف يُحاسب اللَّهُ الخلقَ جميعاً في وقت واحد؟ قال: كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد. فالمسألة صعبةٌ بالنسبة لك، أما بالنسبة للحق سبحانه فهي سهلةٌ ميسورة.

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً في ظاهر الآيات، فجعلوا منها مأخذاً على كتاب اللَّه، من ذلك قولهم بالتناقض بين الآيتين: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، حيث أثبت الميزانَ في الأولى، ونَفاه في الثانية.

فهؤلاء لا يملكون المَلَكة اللغوية التي تُمكِّنهم من فهم كلام اللَّه، ولو تأملنا اللام في ﴿نُقِيمُ لَهُمْ . . .﴾ [الكهف: ١٠٥]، لانْحَلَّ هذا الإشكال، فاللام للملك والانتفاع، كما يقولون في لغة البنوك: له وعليه. والقرآن يقول: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمعنى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، أي: وزناً في صالحهم، إنما نُقيم عليهم وندينهم، كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل في اللغة: إما لوزن المادي أو لوزن المعنوي، كما نقول: فلانٌ لا وزنَ له في الرجال.

وعلى هذا يكون المعنى: أنهم لا وزنَ لذواتهم ومادتهم، إنما الوزن لأعمالهم، فلا نقول: كان من الأعيان، كان أصله كذا وكذا، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، فالبُنوة هنا بُنوَّة عمل وإيمان، لا بُنوة ذات.

وقد ظنَّ الكفار والعصاة أن لهم وزناً عند اللَّه، ومنزلة ستكون لهم في الآخرة، كما كانت لهم في الدنيا، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

لكن هيهات أنْ يكون لهم وزنٌ في الآخرة، فالوزنُ في القيامة للأعمال لا للأعيان. إذن: المعنى لا نقيم لذواتهم إنما نزن أعمالهم، لذلك قال النبي ﷺ لقرابته: «لا يأتيني الناسُ بأعمالهم، وتأتوني بأحسابكم»(١).

وقال ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد، اعملي فإنِّي لا أُغني عنك من اللَّه شيئاً»(٢).

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول اللَّه قال: (إن أوليائي يوم القيامة هم المتقون، وإنْ كان نسبٌ أقرب من نسب، لا يأتي الناسُ بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، وتقولون: يا محمد، فأقول هكذا، وأعرض في عطفيه) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٤).

(٢) عن حذيفة قال: جئتُ إلى النبي ﷺ والعباس جالسٌ عن يمينه وفاطمة رضي اللَّه عنها عن يساره. فقال: «يا فاطمة بنت رسول اللَّه، اعملي لله خيراً، فإنِّي لا أغني عنك من اللَّه =

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها في هذا الموقف، بل الأعمال هي مقياس التفاضل والجزاء، ولن يظلم اللَّهُ أحداً مثقال ذرة، يقول تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أي: لهم أو عليهم، فإنْ كانت لهم علموا أن اللَّهَ لا يظلمهم، ويبحث لهم عن أقلّ القليل من الخير، وإنْ كانت عليهم علموا أن اللَّه يستقصي كل شيء في الحساب، وحبة الخردل تدل في صغرها على الحجم، وكلمة مثقال تدل على الوزن، فجمع فيها بين الحجم والوزن.

ثم يعقِّب الحق سبحانه على هذه المسألة: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فلا أحدَ يجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن، فليستْ عندنا غفلة، بل دقة وضبط لمعايير الحساب.

ولا تظن أن مسألةَ الحساب والميزان مسألةٌ سهلة يمكن أن تصلَ فيها إلى الدقة الكاملة، مهما أخذت من وسائل الحيطة، فأنت بشر لا تستطيع أن تزن الوزن المضبوط لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضةٌ للزيادة والنقصان.

فقد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت، وبمرور الوقت يزيد المعيار ولو شيئاً ضئيلاً، وهذا في صالح المَوزون له، وقد يحدث العكس فينقص الميزان نتيجةَ الملامسة للأشياء، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكرة) الباب تراها لامعة على خلاف ما حولها. إذن: أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها.

حتى في الموازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة، فبشرية الإنسان لا يمكن أن تعطي الدقة المتناهية، وهذا معنى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، لأن معياره تعالى لا يختلف، ولا ينسى شيئاً، ولا يغفل عن شيء.

حتى أنهم يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٦]، أي: لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٦]، فكل ما فعلوه مُسجَّلٌ مُسطَّرٌ في كتبهم. ﴿وَلَا يَظْلِمُ

= شيئاً يوم القيامة» أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٩) وعزاه للبزار.

﴿رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يُؤاخذهم إلا بما عملوه. ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.. [الكهف: ٤٩]، فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به. وما عملوه سيجدونه مُسطراً في كتبهم، ويُقال لكل واحد منهم: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فالحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة، حيث يقف العبدُ بين يديْ ربِّه عزَّ وجلَّ، فيدعوه إلى أنْ يقرأ كتابه بنفسه، ليكون هو حُجة على نفسه، ويُقرّ بما اقترف، والإقرار سيد الأدلة.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

فهذا موقفٌ لا مجالَ فيه للعناد أو المُكابرة، ولا مجالَ فيه للجدل والإنكار، فإن حدث منه إنكار جعل اللَّهُ عليه شاهداً من جوارحه، فيُنطقه الحق سبحانه بقدرته يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

فالحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وجعله سيدَ هذا الكون، وسخَّر له كلَّ شيء، ومما سخَّر له سخَّر أبعاضه لإرادته، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته، فإنْ كان مؤمناً قال: اللَّه واحد. وإنْ كان غير ذلك قال: اللَّه ثالثُ ثلاثة. كذلك سخَّر له العينَ تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم، كذلك الرِّجْل.

فكلُّ جوارحك سخَّرها اللَّهُ لك إنْ أردتَ منها طاعةً أطاعتْ، وإن أردتَ منها معصيةً عصتْ، فالإرادةُ هي التي تُملي ما تريده، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة.

ونمثِّل لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة في مهمة ما، فعلى الكتيبة أن تطيعَ أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء، حتى لو كانت هذه الأوامر في غير صالحهم، وليس لهم أن يعترضوا عليه، حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكوْا له ما كان من قائدهم المباشر، كذلك طاعةُ الجوارح لإرادة الإنسان في الدنيا.

أما في الآخرة فسوف تُسْلب منه هذه القيادةُ لجوارحه، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق العليِّ سبحانه، ففي الآخرة لا سلطانَ

لأحد إلا اللَّه. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

فهم يتعجَّبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهي منهم، والسؤال هنا كان ينبغي أن يكونَ عن الكيفية: كيف شهدتُم علينا؟ لا عن السبب، فالسؤال بهذه الصيغة غيرُ وارد ليدلّ هذا على التضارب في الكلام.

وكان الجواب: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، فالسؤال عن شيء والجواب عن شيء آخر، فلو أجابوا عن السؤال: لم شهدتم علينا. لقالوا: شهدنا عليكم، لأننا أقوى حارس عليكم في جميع الأوقات. ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

يعني: الأمر ليس بملكنا فنحن لم نشهد من عندنا، فستنطق الأرجل والجلود وتشهد، لأنها كانت في الدنيا مقهورة لإرادتي، كنت أقول ليدي: افعلي كذا. ولرجلي: اسعي كذا. وللساني: سُبّ فلاناً.

فاللَّه سخَّر الجوارح وأمرها: يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك في الدنيا، لكن في يوم القيامة: أيكون لي إرادةٌ على جوارحي؟ لا، ستتمرد عليَّ جوارحي، وتقول لنا: أنتم استخدمتمونا في الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها.

فبيده يضرب ويعتدي، وبيده ينفق ويقيل عثرة المحتاج، وبرجْله يسعى إلى بيت اللَّه، أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد.

ولكن فعل جوارحك ما تأمرها به ليس دليلاً على الرضا عنك وعمَّا تأمرها به، بل هي تفعل ما تريده أنت وهي كارهةٌ ولاعنة له، وهي مُبْغضةٌ لك ولفعلك، فإذا كان يوم القيامة انحلَّتْ من إرادتك وخرجتْ من سيطرتك، وشهدتْ عليك بما كان منك.

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة: لقد أتعبتني في الدنيا وأكرهتني على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأنني عابدةٌ مُسبِّحة للَّه، وإن ما أمرتني به يخرج عن طاعة اللَّه عز وجلَّ.

فمادة الإنسان خاضعةٌ لإرادة صاحبها في دنيا الأغيار، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثيرَ له على المادة، وتتحرر المادةُ من طاعة صاحبها في المعصية وتتمرد عليه، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها في المعصية.

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين، وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزومَ له، لذلك نجدهم يسألون جوارحهم: لمَ شهدتم علينا؟ لأن الجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم، لأن اليد هي التي امتدت لتسرق، واللسان هو الذي نطق قَوْلَ الزُّور، والقلب هو الذي حقد، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية.

والإنسان كما نعلم مُركَّب من جوارح، وهذه الجوارح لها أجهزة تُكوِّن الكل الإنساني، ومدير كل الجسم هو العقل، فهو الذي يأمر اليد لتمتدَّ وتسرق، أو تمتد لتُربِّت على اليتيم، والعين تأخذ أوامرها من العقل، فإما أنْ يأمرها بأنْ تنظرَ إلى جمال الكون، وتعتبر بما تراه من أحداث، أو يأمرها بأنْ تنظر إلى الحرام.

إذن: الجوارح خادمةٌ مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته، لكن الأمر يختلف في الآخرة، حيث لا أمرَ لأحد إلا اللَّه، فالجوارح تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

فدعونا اليوم لنشهد، إنها تُخرج أسرارها لأن المُلْك الآن للواحد القهار: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير اللَّه إرادةٌ على الأبعاض.

لذلك يُقال للإنسان: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، أي: كفانا أنْ تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك، فكتابك حجة عليك، فها هو تاريخك، وها هي قصتك، ليس كلاماً من عندنا، وإنما هو فعلك والحجةُ عليك.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، فالمراد هنا كتاب أعمالنا الذي سجّل فيه كل شيء قدَّمته

الأيدي، لكن: ما الحكمةُ من تسجيل الأعمال؟ وهل يكذّب العباد ربهم عزَّ وجلَّ فيما سُجِّلَ عليهم؟

قالوا: الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجةً على صاحبها وليعلم أن اللَّه ما ظلمه شيئاً، لذلك سيقول له ربه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤]، يعني: بنفسك حتى تُقام عليك الحجة، ولا يكون عندك اعتراضٌ.

فهل للإنسان قدرةٌ على الردِّ رغم أن اللَّه عزَّ وجلَّ يقول هنا في الحديث القدسي: «يَا عبَادي أَحْضرُوا حُجَّتَكُمْ».

فهذا يوم السؤال، يوم نُسأل عما فعلنا، يقول تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ويقول الحق سبحانه عن موقف السؤال هذا: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، أي: احبسوهم للسؤال والحساب، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً، فكلُّ واحد مهم سيُسأل وسيُناقش. قالوا: في السؤال تبكيتٌ النفس للنفس قبل أنْ يُبكِّتهم اللَّه. يعني ساعة يُعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم، ويندمون ساعة لا ينفع الندم.

وكلمة موازين جمع ميزان، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها، لأن التقدير يقع على عدة أشياء: على الكثافة بالوزن، وعلى المسافات بالقياس.. الخ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت، فمثلاً: المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل، وهو موضوع الآن تقريباً في باريس، وكذلك الياردة، وجعلوا للوزن معايير من الحديد: الكيلو والرطل.. الخ.

كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أما المؤمن الواثق فهو يُهرول إلى آخرته مُشتاقاً لوجه ربه.

وربُّ العزة سبحانه وتعالى يقول هنا في الحديث القدسي:

«أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب».

ولك أن تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل قدميْه، لأن ثقلَ الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف، وعلى المقعدة

في حال الجلوس، وعلى الجسم كله في حال النوم، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها، فإنْ تركَّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين فلا شكَّ أنه وضْعٌ مؤلمٌ وشاقٌّ يصعب على الناس، حتى إنهم لَيتمنوْنَ الانصراف ولو إلى النار.

والحق سبحانه وتعالى يبرز لنا هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

فالعرْض على اللَّه سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي، ولن يكون لأحد منه مفرٌّ، وهم واقفون صفوفاً متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه، فالجميع واضحٌ بكل أحواله.

فالعرْض أن يستقبل العارضُ المعروضَ استقبالاً مُنظَّماً يدل على كل هيئاته، كما يستعرض القائدُ الجنودَ في العرض العسكري مثلاً، فيرى كل واحد من جنوده أي: صفوفاً منتظمة، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

ثم يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

أي: على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك، وقد فُصِّلَ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أي: أن كلّاً منكم يأتي إلى اللَّه فَرْداً عما كان له في دُنياه من مال أو ولد أو أتباع، جاء كلٌّ منهم للَّه وليس معه الأصنام التي ادَّعى أنها شركاءُ للَّه، واتخذهم شفعاءَ له. و«فرادى» جمع «فرْدان» أو فريد، مثل سكارى جمع سكران، وأسارى جمع أسير، إنهم يأتون إلى اللَّه زُمراً وجماعات، ولكن كلّاً منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع، بدليل أنه قال: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهم حين يُفاجَأون بالنفخ في الصُّور، وتداهمهم القيامةُ بأهوالها التي كانوا غير مؤمنين بها على الحقيقة، بُهتوا ودُهشوا، وخرستْ ألسنتهم عن

الكلام من شدة دهشتهم، كيف وما كانوا ينكرونه ماثلٌ أمامهم فجأة، ثم يتدرجون من هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مفرَّ منه، فيبدأون بالكلام، ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه، وعمَّا نزل بهم.

لا يستطيع أحد منهم الكلام في هذا الموقف إلا بإذنه سبحانه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

وهنا في هذا الحديث القدسي يقول: «يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ».

ولكنهم على الحقيقة لن يتكلموا إلا بإذن منه سبحانه، رغم أنهم كانوا يتكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم إياها اللَّهُ سبحانه، حين أخضع لهم جوارحهم، وجعل الحقُّ سبحانه الجوارحَ مؤتمرةً بأمر الإنسان، وشاء سبحانه أنْ يجعل بعضاً من خَلقه نماذجَ لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح، فتجد الأخرسَ الذي لا يستطيع الكلام، وتجد المشلولَ الذي لا يستطيع الحركة، وتجد الأعمى الذي لا يبصر، وغير ذلك.

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من اللَّه تعالى، وليست ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، يُبيِّن لنا سبحانه تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا، فهي ترضخ لإرادتنا، لأنه سبحانه شاء أنْ يُسخِّرها لأوامرنا ولانفعالاتنا، ولا أحدَ فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أنْ تنفعلَ لها الجوارحُ.

وقد يسلب اللَّهُ سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارحُ للإرادة، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وليس هذا فقط، فإن الحق سبحانه يبعث الناسَ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً، وقد نطق بهذا حديثُ رسول اللَّه ﷺ عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «يبعث اللَّهُ الناسَ يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً. فقالت

عائشة: يا رسول اللَّه.. فكيف بالعورات؟ قال: لكلِّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يغنيه»[1].

وقد أصاب هذا القولُ السيدةَ عائشة بالاستغراب والذهول، فهي رضي اللَّه عنها عندما سمعت سيدنا رسول اللَّه وهو يُحدِّثهم عن القيامة، ويذكر أن الشمسَ تدنو من الرؤوس، والخَلْق يقفون عرايا، استاءتْ وسألتْ رسول اللَّه: كيف يقف الناسُ عرايا ينظر بعضُهم إلى عورة بعض؟

فأجابها رسول اللَّه ﷺ أن كلَّ امرئ مشغولٌ بنفسه، وأن الأمرَ أعظمُ من أن ينظرَ أحدٌ لعورة أحد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

فالعرْض على اللَّه سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي، ولن يكون لأحد منه مَفَرٌّ، وهم واقفون صفوفاً متداخلةً بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه، فالجميع واضحٌ بكل أحواله.

فكان ردّ رسول اللَّه ﷺ أن الأمر أخطر وأكبر من أن ينظرَ الناسُ إلى بعضهم البعض، فكلٌّ منهم مشغولٌ بما ينتظره من حساب ووزن لأعمالهم والاطلاع على كتاب الحسنات والسيئات والسير على الصراط.

لكل منهم ما يشغله، أنْ ينجوَ من النار حتى ولو بالزحزحة عنها، وأن يدخل الجنة ولو وراء بابها، ولو في موضع سوط (كرباج) منها، فهو خيرٌ من الدنيا وما فيها.

يقول الحق تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فالفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة، ولكن على درجتين، أولى درجات الفوز أن يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوزٌ عظيم، يكفي أنك تمرّ على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهَوْل كله.

يكفي ذلك ليكون فوزاً عظيماً، لأن الكافرَ في هذه اللحظة يتمنى لو كان

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٧/ ٢٢٤) كتاب البعث، وأحمد في مسنده (حديث ٢٣٤٤٧) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها.

تراباً حتى لا يدخلَ النارَ، فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمةٌ لأنه يُحسُّ بما نجا منه، فإذا تجاوز النارَ ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيماً خالداً كان هذا فوزاً آخر.

لذلك حرص اللَّهُ تبارك وتعالى أنْ يعطينا المرحلتين، فلم يَقُلْ: مَنْ زُحزح عن النار فاز، ولم يقل: من أُدخل الجنةَ فاز. بل قال: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كُنْ فَيَكُون

قال الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي:

«يَا عِبَادِي.. لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا في صَعيدٍ وَاحد، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَان منْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَتُهُ.

فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِل منْكُمْ مَا سَأَلَ، مَا نَقَصَ ذَلكَ منْ مُلْكي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بالبَحْر فَغَمَسَ فيه إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْه.

ذَلكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ، أَفْعَلُ مَا أُريدُ، عَطَائي كَلَامٌ، وَعَذَابي كَلَامٌ، إِنَّمَا أَمْري بشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ:

كُنْ فَيَكُونُ»[(١)].

القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت، ولا تحتاج إلى مجهود وعمل، بل في حقِّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ.. كُنْ كذا وانتهتْ المسألة.

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضي أجهزةً كثيرةً لإدارته، فاعلم أن اللَّه تعالى لا يباشر تدبيرَ أمر الكون بعلاج، يفعل هذه ويفعل هذه كما يزاول البشرُ أعمالهم، بل يفعلها بـ [كُنْ].

فيا مَنْ تُشفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتَّى نواحيه، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر، لأن اللَّهَ تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون، وإنما يباشره بكلمة [كُنْ].

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ٧٧، ١٥٤) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه. قال الترمذي: حديث حسن. في إسناده شهر بن حوشب، ضعَّفه بعضهم، وقد حسَّن البخاريُّ حديثه وقوَّى أمره.

فإلهٌ واحدٌ يكفي، فمعنى [إلهين]، أي: معبودين، فيكون لهما أوامرُ ونَوَاه والأوامر تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنه يحتاج إلى مساعد؟ إنْ كان بحتاج إلى مساعد فهذا نقصٌ فيه، ولا يصلح أن يكون إلهاً.

وكذلك إنْ تخصَّص كلٌّ منهما في عمل ما، هذا لكذا وهذا لكذا، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر. وأيُّ ناحية من نواحي الحياة تكون هي المُسيطرة؟ ومعلومٌ أن نواحيَ الحياة مشتركةٌ ومتشابكة.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فكيف الحال إذا أراد الأولُ شيئاً، وأراد الآخرُ ألَّا يكونَ هذا الشيء؟ فإنْ كان الشيءُ كان عَجْزاً في الثاني، وإنْ لم يكُنْ كان عَجْزاً في الأول. إذن: فقوةُ أحدهما عَجْزٌ في الآخر.

لذك قال الحق سبحانه عن نفسه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فبعد أنْ بيَّنَ اللَّهُ تبارك وتعالى.. أن قولهم: اتخذ اللَّهُ ولداً هو افتراءٌ على اللَّه.. أراد الحقُّ سبحانه أن يلفتنا إلى بعض من قدراته، فقال جل جلاله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾.. [البقرة: ١١٧].

أي: خلق السماوات والأرض وكلَّ ما فيها من خَلق على غير مثال سابق.. أي: لم يكُنْ هناك سماءٌ أو أرضٌ أو ملائكةٌ أو جنٌّ أو إنسانٌ.. ثم جاء اللَّهُ سبحانه وتعالى وأوجد متشابهاً لهم في شكل أو حجم أو قدرة.. أي: أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب.

إن الذي يصنع كوبَ الماء يصنع أولاً قالباً يصُبُّ فيه خام الزجاج المنصهر.. فتخرج في النهاية أكوابٌ متشابهةٌ.. وكلُّ صناعة لغير اللَّه تتم على أساس صنع القالب أولاً ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج.. ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورةً لما نريد.

والذي يخبز رغيفاً مثلاً قد لا يستخدم قالباً ولكنه يقلد شيئاً سبق.. فشكل الرغيف وخامته سبق أنْ تمَّ وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة.. ولكنه لا يستطيع أنْ يعطي التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة.. بل هناك اختلافٌ في التقليد ولا يوجد كمالٌ في الصناعة.

وحين خلق اللَّه جلَّ جلاله الخَلْق من آدم إلى أن تقوم الساعة.. جعل الخلق متشابهين في كل شيء.. في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين.. وغير ذلك من أعضاء الجسم.. تماثلاً دقيقاً في الشكل وفي الوظائف.. بحيث يؤدي كلُّ عضو مهمته في الحياة.. ولكن هذا التماثلَ لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كُنْ.

ورغم التشابه في الخَلْق فكلٌّ منا مختلفٌ عن الآخر اختلافاً يجعلك قادراً على تمييزه بالعلم والعين.. فبالعلم كلٌّ منا له بصمةُ إصبع وبصمةُ صوت يمكن أنْ يُميِّزَها خبراءُ التسجيل.. وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تُميزها الكلابُ المدربة.. فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر.. وبصمة شفرة تجعل الجسدَ يعرف بعضه بعضاً.. فإن جئتَ بخلية من جسد آخر لفظها، وإنْ جئتَ بخلية من الجسد نفسه اتحدَّ معها وعالج جراحها.

وإذا كان هذا بعضُ ما وصل إليه العلم.. فإن هناك الكثيرَ مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص.. فإن لكلِّ واحد ما يُميِّزه وحده ولا يتكرر مع خَلْق اللَّه كلِّهم.

وهذا هو الإعجازُ في الخلق ودليلٌ على طلاقة قدرة اللَّه في كونه، واللَّه سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدثْ مصادفةً ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو مُعَدٌّ بقدرة اللَّه سبحانه.. فيقول جل جلاله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

هذا الاختلاف يُمثل لنا طلاقةَ قدرة اللَّه سبحانه في الخَلْق على غير مثال.. فكلُّ مخلوق يختلف عَمَّنْ قبله وعمَّنْ بعده وعمَّنْ حوله.. مع أنهم في الشكل العام متماثلون.. ولو أنك جمعتَ الناسَ كلهم منذ عهد آدم إلى

يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة.. وكلٌّ واحد منهم مختلفٌ عن الآخر.. فلا يوجد بشران من خلق اللَّه كلٌّ منهما طبق الأصل من الآخر.

هذه دقةُ الصُّنع، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ﴾.. والدقة تعطي الحكمة.. والإبراز في صور متعددة يعطي القدرة.. ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا اللَّهُ يوم القيامة.. والإعجاز في هذا الجمع هو أن كلَّ إنسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التي كان عليها في الدنيا.

ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [سورة ق: ٤].

إذن: اللَّه سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا.. وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يُحيينا بعد الموت.. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا.. هل هناك دقة بعد ذلك؟

لو أننا أتينا بأدقِّ الصُّناع وأمهرهم وقلنا له: اصنع لنا شيئاً تجيده. فلما صنعه قلنا له: اصنع مثله. إنه لا يمكن أن يصنع نموذجاً مثله بالمواصفات نفسها؛ لأنه يفتقد المقاييسَ الدقيقة التي تُمدّه بالمواصفات نفسها التي صنعها. إنه يستطيع أن يعطينا نموذجاً متشابهاً، ولكن ليس مثل ما صنع تماماً.

لكن اللَّه سبحانه وتعالى يتوفَّى خَلْقه وساعة القيامة أو ساعة بَعْثهم يُعيدهم بمُكوِّناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص. وذلك لأن اللَّه جلَّ جلاله لا يخلقُ وفق قوالب معينة، وإنما يقول للشيء: كُنْ فيكون.

تقول الآية الكريمة: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وردتْ كثيراً في القرآن الكريم.. وفي اللغة شيءٌ يُسمَّى المشترك اللفظ يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق.. فمثلاً كلمة قضي لها معاني متعددة، ولها معنىً يجمع كلَّ معانيها.. مرة يأتي بها الحقُّ بمعنى فرغ أو انتهى.. في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾.. [البقرة: ٢٠٠].

ومعناها: إذا انتهيتُم من مناسك الحج.. ومرة يقول سبحانه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

والمعنى: افعل ما تريد.

وفي آية أخرى يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمعنى: أنه إذا قال اللَّه شيئاً لا يترك للمؤمنين حقَّ الاختيار.

ومرَّة يُصوِّر اللَّهُ جَلَّ جلاله الكفارَ في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت.. واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ هنا معناها يُميتنا.

ومعنى آخر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء.

وفي موقع آخر يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، قضي الأجل هنا بمعنى: أتمَّ الأجل.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، أي: حكم وفصل بينهم.

وقوله جلَّ جلاله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، بمعنى: أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم.

إذن: [قَضَى] لها مَعَان متعددة يُحدِّدها السياق.. ولكن هناك معنىً تلتقي فيه كلُّ المعاني.. وهو قضى أي: حكم. وهذا هو المعنى الأم.. إذن: معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾.. أي: إذا حكم بحكم فإنه يكون.

على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].. معنى أن الأمرَ موجودٌ عنده.. موجودٌ في علمه.. ولكنه لم يصلْ إلى علمنا.

أي: أنه ليس أمراً جديداً.. لأنه ما دام اللَّه سبحانه وتعالى قال:. كأنه جلَّ جلاله يخاطب موجوداً.. ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئاً.. وإنما هو موجودٌ في علم اللَّه سبحانه وتعالى.. ولذلك قيل: إن

للَّه أموراً يُبديها ولا يبتديها.. إنها موجودةٌ عنده لأن الأقلامَ رُفعتْ، والصحف جفَّتْ.. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها.

فالحق سبحانه يخلق بلا أسباب، لأنه أنشأ العالم أولَ ما أنشأ بلا أسباب، بل بقوله: كُنْ. وقد أكد الحق هذا في مواضع كثيرة من قرآنه، نحو قوله تعالى في شأن خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فقال على لسان أمه مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

إنها طلاقةُ القدرة في الإنسال أو الإنجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان، وهي لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، ولو كانت طلاقةُ القدرة متوقفةً على إيجاد ذكورة وأنوثة، فكيف خُلقَ آدم أولَ الخَلْق؟

إن طلاقةَ القدرة في الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلقَ دون ذكورة أو أنوثة، كخَلْقه لآدم عليه السلام، ويخلق الحقّ سبحانه بواحد منهما كخَلْقه سبحانه لحواء وخَلق عيسى عليه السلام، ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة، وهذه تتضح في خلق جمهرة الناس، ولا تظنوا أن باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلقُ، فقد توجد الذكورةُ والأنوثةُ ولا يوجد إنجابٌ.

هاهو ذا القول الحق: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

هذه إرادة الحق.

إذن: فلا تقلْ: إن اكتمال عُنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يُحدث الخَلْق، لأن الخَلْق يحدث بإرادة الحق. ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. فأنتم أيها المُحدثون تفعلون بالأسباب، لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أنْ يُوجد بلا أسباب، لأنه أنشأ العالمَ أول ما أنشأ بدون أسباب.

ولا يوجد عندنا أقصر في الأمر من كلمة [كُنْ] فقدرته قادرةٌ بطلاقتها أن

تسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من كُنْ، ولكن الحق سبحانه يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور، و [كُن] هي مجرد إظهار الأمر للخلق، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم عليها السلام بـ ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

لذلك، فالحق سبحانه حين يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألَّا يكون، والدليل قوله تعالى عن الأرض: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، أي: أصغت السمع، وحقَّ لها ذلك، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره.

والأمر هو نتيجة لما يشاؤه اللَّهُ من حياة للناس على الأرض، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر متعددة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود، فهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له: كُنْ فيكون، وإذا أراد منهجاً فهو يُنزله، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعة، فهو القائل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وهكذا نفهم أن معنى هو. أي: إخراج المعدوم إلى حيِّز الوجود، سواء كان معدوماً جزئياً أو معدوماً كلياً، أو معدوماً أزلياً.

كل ذلك اسمه أمرٌ، ولحظة أن يأمر اللَّهُ فنحن نثق أن مأمورَ اللَّه يبرز، لذلك قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

أي: أنها لم تسمع الأمر فقط، بل نفَّذته فَوْرَ صدوره، دون أدنى ذرة من تخلُّف، فأمرُ اللَّه يُنفذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه، أما أمرُ البشر فهو عُرْضةٌ لأنْ يُطاع، وعُرْضةٌ لأنْ يُعْصَى.

حتى أمْر البعث ليس علاجاً لجزئيات كلِّ شخص وضَمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة، بل المسألة منضبطةٌ تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) وبمجرد صدوره ودون حاجة لوقت ومزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً، كلٌّ واحد منتظرٌ دوره، منتظرٌ الإشارةَ.

فهو سبحانه فعَّالٌ لما يشاء، كما قال هنا في الحديث القدسي: (أفعل ما أريد).

ورسول اللَّه ﷺ يقول في هذا الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه وتعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر».

فالحق سبحانه وتعالى عنده من السعة ما يعطي الكلَّ، وسبحانه واسع عليم، فخزائنُ اللَّه ملأى لا تنفد، وسعة الحق مطلقة، فالحق سبحانه هو صاحب الخزائن التي لا تنفد.

وهو القائل سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦].

فقدرته سبحانه تتسع لعطائنا جميعاً، دون أن ينقص شيءٌ من عنده، فهو يعطيك ويعطي الآخرين ولا ينقص مما عنده شيءٌ، فعطاؤه سبحانه لواحد لا يمنع أن يعطيَ الآخر.

لذلك لا يشعر المؤمنُ بحسد أو حقد في قلبه لإنسان أنعم اللَّهُ عليه، لأنه يعلم تماماً أن هذا لن ينقص من رزقه شيئاً، فبعضُ الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبةً في أن يكون ذلك لهم وحدهم، فإنك إنْ كان عندك كمٌّ من المال ثم اتصل بك قومٌ في حاجة فأعطيتهم منه، ربما قال الآخرون ممَّنْ يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك: إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تعطي هؤلاء، لأن ما عندك محدودٌ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده.

يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣].

فاللَّه واسعُ العطاء، بمعنى أنه قادرٌ على إعطاء الفضل لكل الخَلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئاً، ففضلُ اللَّه يؤتيه سبحانه وتعالى مَنْ يشاء، وتتسع قدرته لكلِّ مطلوب.

فعطاء اللَّه دائم لا ينقطع، لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص، فهو سبحانه يعطي العطاء الواسع.

الذينَ لا يشهدونَ الزُّور

عن علي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه:

يقول اللَّه تعالى:

«اشتدَّ غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد ناصراً غيري»(١)

من صفات عباد اللَّه أنهم لا يشهدون الزُّور، وهي صفة لها شأن كبير عند اللَّه؛ لأنها ميزانٌ عادلٌ للمجتمع، ولأن بها يسود العدلُ بين الناس، وينتظم أمرُ الناس، ويعلم الضعيف والمظلوم أنه لن يضيع حقهما؛ لذلك كان من عباد اللَّه أولئك ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

والحق سبحانه قرن بين قَوْل الزُّور وعبادة الأوثان والشرك باللَّه، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فقرنَ سبحانه عبادةَ الأوثان بقوْل الزُّور، كأنهما في الإثم سواء؛ لذلك سلَّم النبي ﷺ يوماً من صلاة الصبح، ثم وقف وقال: «ألَا وإن شهادةَ الزور جعلها اللَّهُ بعد الأوثان»(٢).

لماذا؟ لأن في شهادة الزور جماعاً لكل حيثيات الظلم، فساعةَ يقول: ليس للكون إلهٌ فهذه شهادة زور، وقائلها شاهدُ زور، وساعة يقول: الإله له

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير (١/ ٣٠)، وذكره المنذري في الترغيب (٣/ ٣٢٨) ونسبه الطبراني في الصغير والأوسط ورمز له بالضعف.

(٢) عن خريم بن فاتك الأسدي رضي اللَّه عنه قال: «صلى رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف قائماً قال: عدلتْ شهادةُ الزور الإشراكَ بالله (قالها ثلاثاً)، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٢١) وأبو داود في سننه (٣٥٩٩)، والترمذي في سننه (٢٣٠٠). قال الترمذي: هذا عندي أصحّ من حديث أيمن بن خريم»، وخُرَيْم بن فاتك له صحبة.

شريكٌ، فهذه شهادةُ زور، وقائلها شاهدُ زور، كذلك حين يظلم أو يُغيِّر في الحقيقة، أو يذم الآخرين، كلها داخلةٌ تحت شهادة الزور.

ولما عدَّد النبي ﷺ الكبائر، قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول اللَّه. قال: الإشراك باللَّه وعقوق الوالدين ـ وكان مُتكئاً فجلس ـ فقال: ألا وقوْل الزور، ألَا وقول الزور، قال الراوي: فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت، أو حتى ظننا أنه لا يسكت»[(١)].

ويقولون في شاهد الزور: يا شاهد الزور، أنت شرٌّ منظور، ضللتَ القضاةَ، وحلفتَ كاذباً باللَّه.

ومن العجيب في شاهد الزور أنه قبل أن يسقط من نظر الناس، يسقط أولاً من نظر مَنْ شهد لصالحه، فرغم أنه شهد لصالحك ورفع رأسك على خصمك، لكن داستْ قدمُك على كرامته وحقَّرته، ولو تعرَّض للشهادة في قضية أخرى، فأنت أولُ مَنْ تفضحه بأنه شهد زُوراً لصالحك.

فمَن يشهد الزور يسقط حتى في عين ذلك الذي شهد له، فإنْ جاء يشهد أمامه في قضية، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار، وكان يجب على كلِّ مَنْ يطلب من إنسان شهادةَ زور أنْ يضربه؛ لأنه يريد أن يسقط في نظر الناس، وفي نظر هذا الذي شهد من أجله؛ لأن شاهدَ الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه، فالكلُّ ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار.

والزور هو الشيء الكذب، ويُزور في الشهادة أي: يثبت الحق لغير صاحبه، لكن نلاحظ أن الآية لم تَقُلْ: والذين لا يشهدون بالزور، مما يدل على أن للآية معنىً أوسع من النطق بقوْل الزُّور في مجال التقاضي، حيث تقول عند القاضي: فلانٌ فعل، وهو لم يفعل.

فللشهادة معنى آخر. أي: لا يحضرون الزور، والزور كلُّ ما خالف الحق، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٦)، وكذا مسلم في صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان من حديث أبي بكرة.

فمعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: لا يحضرون الباطل في أيِّ لوْن من ألوانه، قوْلاً أو فعلاً أو إقراراً، وكل ما خالف الحق.

ومعلوم أن قوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرّ بالمجتمع؛ لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحقَّ من صاحبه وتعطيه لغيره، وهذا يؤدي إلى تعطُّل حركة الحياة، وتجعل الإنسانَ لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه، فيُحجم الناسُ عن السعي والعمل، ما دامتْ المسألةُ زوراً في النهاية؟

لماذا؟ لأن شهادةَ الزور تهدم كلَّ قضايا الحقِّ في المجتمع.

والحق سبحانه يقول في كتابه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا يكفي أن يكون المؤمنُ قائماً بالقسط فقط، بل لا بدَّ أن تكون الشهادةُ للَّه والشاهد في العادة هو مَنْ يشهد لمصلحة واحد ضد آخر، وعندما يقرُّ الشاهدُ بذنب فهو قد شهد على نفسه.

والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم، والشاهد على نفسه يُقرُّ بما فعل، والإقرار سيد الأدلة، وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليلَ الذي يُرتب عليه الحكم، وهكذا يشهد المؤمنُ على نفسه.

وهناك معنىً آخر: أنه يشهد على نفسه، ولو كانت الشهادةُ تجرُّ وبالاً عليه، وهذه المعاني من معطيات الإشعاعات القرآنية، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار، وقد لا تكون الشهادةُ على النفس، بل قد تكون الشهادةُ واجبةً عليه يُؤديها لمصلحة غيره، ولا يخاف فيها الشاهدُ من السلطان، وحتى وإنْ جارَ السلطان على المؤمن وأصابه بوبال في نفسه أو ماله.

ومن الناس مَنْ أصابه وبالٌ في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلتْ، فالسلطان قد لا يأخذ الإنسانَ فقط بذنبه، بل قد يأخذ أهلَ الإنسان بهذا الذنب. والحق سبحانه يوضح للعبد: لا تهتم بذلك ولا تقولنَّ: سيعذبون العيال، أو سيأخذون كل شيء، إنني أنا الموجود المتكفل بعبادي.

وحين يشهد الإنسانُ على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحدُ أقاربه أعزَّ منه.

ثم يدخل بنا الحقُّ إلى أن العدالة تدخل فيها الأهواء، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع، فالمرجح هو هوى النفس، ومنشأ الهوى أن يكون المشهودُ عليه غنياً، فيخافُ الإنسانُ أن يشهدَ عليه، فيمنعه من خير ما.

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة للَّه، ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب، ولا يصح أن يضع أحدٌ من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال، بل يجب أن يكون البالُ مع اللَّه فقط.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد يقول القائل: إن الهوى قد ينحاز إلى الغني طمعاً في ثرائه، فلماذا يذكر اللَّهُ الفقير أيضاً؟ ونقول: قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير، فيحدِّث الشاهد نفسه «أنه فقير ويستحق الرحمة»؛ لذلك يُحذِّرنا الحق من الانحياز إلى الغنيّ، أو إلى الفقير.

ولا دخلَ للشهادة بثراء الثريِّ أو بفقر الفقير، لأن العبدَ المؤمن ليس أَوْلَى أو أحقّ برعاية مصالح الناس من خالقهم ـ جلّ شأنه ـ ولذلك جاء بالحيثية الملجمة ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

أي: أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما، ولكن اللَّه خالقُ الاثنين، وهو أَوْلَى بهما، فليس لك أن تقيمَ شهادتك على الثراء أو على الفقر؛ لأنك لستَ القيِّم على الوجود.

والذي يفسد ويُشوِّش على العدل هو الهوى، والمثل العربي يقول: «آفة الرأي الهوى». وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل، وتجنحوا بعيداً عنه. ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

الليُّ هو التحريف، أي: إنْ تلووا في الشهادة وتُحرِّفوها وتُغيِّروها فإن اللَّهَ بما تعملون خبيرٌ، أو: أنْ يُعرض الشخصُ عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه؛ لذلك يُقال: إنه خائفٌ من المشهود عليه؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له؛ لهذا فهو يُعرض عن الشهادة، وإنْ جاء للشهادة فهو (يلفّ) الكلمات ويلوي لسانه بها.

والشهادة ـ كما نعلم ـ تُطلق على متلازمات متعددة، يجمعها كلها كلمة (الحضور)، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، أي: أن نداء الحج يسمعه الناسُ، فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل، وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم.

ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة، فتسأله النيابةُ فيقول ما رأى، ويسأله محامي الخصم فيقول ما رأى، ويسأله محامي الدفاع فيقول ما رأى، ومادام الشاهدُ صادقاً فلن يخشى محاورةَ أيِّ طرف يسأله، والأطراف التي تسأل الشاهدَ تطلب منه أن يأتيَ بالواقعة على أساليب مختلفة.

وما دامتْ الواقعةُ صادقةً تظل كما هي مهما تنوعتْ الأسئلةُ، وتغيَّرتْ الأساليب؛ لأن الشاهدَ الصادق يستوحي واقعاً لا يتغير، أما الشاهد الكاذب فيلف ويدور ويُغيِّر من أقواله، ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث في ذاكرة الشاهد عن أدقّ الخفايا.

وفي قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ نرى كيف أوقع الحقّ بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم في الرحلة إلى مصر، وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه، وكيف كان الصراعُ بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير.

فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ * وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢].

ونعرف أن إخوةَ يوسف كذبوا في المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف، لكنهم صدقوا في المرة الثانية التي احتُجز فيها شقيقُ

يوسف[١] ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم: إما أهل القرية التي كانوا بها، وإما رفاقهم في القافلة.

لقد أخبروا أن أخاهم قد استُخرج من وعائه بعضٌ من أدوات الملك، وهو الصُّواع الذي كان يُكال به، ولهذا جاءتْ شهادتهم هذه المرة مطابقةً للواقع، وهو ما أخبروا به.

إذن: فالشهادة هي الفيصل في التنازع؛ ولذلك يوصي النبيُّ ﷺ ألَّا يشهد الرجلُ على أمر إلا بعد أنْ يكونَ قد رآه رَأْيَ العين، كما يرى الشمس:

«على مثلها فاشهد أو دع»[٢].

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود؛ ولهذا تأتي الشهادةُ في لوازم متعددة، فهي مرة تعني الحضور، وهي مرة تأتي بمعنى الحكم، وثالثة بمعنى الإقرار، وكلها معان ملتقية.

والشهادة تتطلب أمرين: الأول هو حضور الشاهد لحظةَ وقوع المشهود به، والثاني: هو أمانةُ النقل. ولذلك جعل اللَّه في بعض الأحكام شهادةَ اثنتين من النساء تعدل شهادةَ رجل واحد.

وقد يقول قائل: كيف يساوي الإسلامُ بين شهادة رجل جاهل، أو أميٍّ وشهادة امرأتين قد تكون كلٌّ منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم؟

ونقول: إن المسألةَ في الشهادة ليست عملَ عقل، ولكنها أمانةُ نقل، وأمانةُ النقل لا شأنَ لها بالثقافة، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة، ثم إن المرأةَ يكون دائماً أمرُها مبنياً على الستر وعدم التهجُّم على الرجال، فقد تقع حادثةٌ وتوجد امرأةٌ بجانب هذه الحادثة.

وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كلِّ التفاصيل، على العكس من الرجل الذي يرى الحادثة، فيحاول أن يعرف كل ما جرى، وحين

---

(١) شقيق يوسف هو بنيامين، وهو أخوه لأبيه يعقوب وأمه راحيل، أما باقي إخوته والذين فعلوا فيه ما فعلوا فكانوا إخوته لأبيه فقط، فأمهم أخت راحيل الكبرى.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٩٣)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٩٨) بلفظ: (يا بن عباس لا تشهد إلا على ما يضيء لك كضياء هذا الشمس) وأومأ رسول اللَّه بيده إلى الشمس. وصححه الحاكم ولكن وهَّاه الذهبي.

أراد الحقُّ الشهادةَ من امرأتين، لم يطلب ذلك لضعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة في الرجل، ولكن لأن الشهادةَ ليست ابتكارَ عقل، ولكنها حضورُ مشهد وأمانةُ نقل.

فعباد اللَّه يخافون اللَّه ويخشونه، أنْ يقولوا أو يشهدوا زوراً، بل إن ألسنتهم لا تنطقُ إلا حقاً، فيتهيَّبون أنْ يقفوا موقفاً يكونون فيه سبباً لظلم أحد بشهادة زور أو قوْل باطل.

وسيرة نبي اللَّه ﷺ مع زوجاته تعطينا مثالاً حياً على الورع والتقوى، ففي موقف من أصعب المواقف التي مرَّت على الرسول ﷺ، وهو تلك الفرْية التي افتراها المنافقون على زوج نبي اللَّه (عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، ورميها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل الذي قال عنه النبي ﷺ: لقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

وقد سأل نبي اللَّه ﷺ زوجته زينبَ شهادتها فقال: ما علمت؟ وما رأيت؟ فقالت زينب رضي اللَّه عنها: يا رسول اللَّه، أحمي سمعي وبصري، واللَّه ما علمتُ إلا خيراً.

أي: أصون سمعي وبصري من أن أقولَ سمعتُ ولم أسمع، وأبصرتُ ولم أبصر. ولم تدفعها الغيرة وما كان يقع بينها وبين عائشة إلى الافتراء عليها، بل قالت: واللَّه ما علمتُ إلا خيراً.

لذلك قالت عائشة رضي اللَّه عنها: عصمها اللَّهُ بالورع، وهي التي كانت تفاخرني وتُضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي.

وهذا هو حال عباد اللَّه أنْ يحموا أسماعهم وأبصارهم أنْ يقولوا: سمعنا وهم لم يسمعوا، وأبصرنا وهم لم يبصروا.

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فاللَّه عزَّ وجلَّ يتحدث هنا عن المسؤولية مسؤولية كلِّ إنسان عن سمعه وبصره، والمسؤولية أمام اللَّه فردية لا يُسأل أحدٌ عن أحد، بل يُسأل عن نفسه

فحسبْ، فناسب ذلك أنْ يقولَ: السمع والبصر. لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره.

فالإنسان ـ إذن ـ مسؤولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي، تلقِّي القضايا العلمية التي سنسيرُ عليها في حركة حياتنا، وكذلك من حيث الإعطاء، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن: لا تسمعي إلا خيراً، ولا تتلقي إلا طيباً، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة، ولا تُعط لأذنه إلا ما يُصلح حياته ويُثريها.

ويقول للعين: لا ترَيْ إلا الحلال الذي لا يهيج غرائزك إلى الشهوات، ويا مُربِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائزَ ويفسد الحياةَ، وبذلك نُربِّي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركةُ حياته.

وما دُمتَ مسؤولاً عن أعضائك هذه المسؤوليةَ ومُحاسباً عنها، فإياك أنْ تقولَ: سمعت وأنت لم تسمع. وإياك أنْ تقول: رأيت وأنت لم ترَ. إياك أن تتعرض لشهادة تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن، أو تتبنى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك، لأن المبنيّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة، وما بُنيَ على مقدمات صحيحة أنتج النتيجةَ الصحيحة.

وتتأكد هذه المسؤولية عندما يستمع الإنسانُ لقول اللَّه عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

إنه قولٌ ومشهدٌ يضع العبدَ في مواجهة أعضائه التي كانت طيِّعةً له في الدنيا لا تخالف أمره، فإذا بها هي التي تنطقُ وتتكلمُ شاهدةً عليه.

فالجوارح التي كانت مُطيعةً له في الدنيا وجعل لها سيطرةً على جوارحه وجعلها خاضعةً لإرادته، لا تعصيه في خير أو شرٍّ، فبيده يضربُ ويعتدي، وبيده يُنفق ويقيل عثرةَ المحتاج، وبرجله يسعى إلى بيت اللَّه أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد.

وجوارحه في كلِّ هذا مُسخَّرة طائعةٌ لا تتأبَّى عليه، حتى وإن كانت كارهةً للفعل، لأنها منقادةٌ لمراداتك ففعلها لك ليس دليلاً على الرضا عنك، لأنه قد يكون رضى انقياد.

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية، فأمره نافذٌ على جنوده حتى وإن كان خطأً، فإذا ما فقد هذا القائدُ السيطرةَ وأصبح الجنودُ أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء.

كذلك في الدنيا جعل اللَّهُ للإنسان إرادةً على جوارحه فلا تتخلف عنه أبداً، لكنها قد تفعل وهي كارهةٌ وهي لاعنةٌ له، وهي مبغضةٌ له ولفعله، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّتْ من إرادته وخرجتْ من سجن سيطرته شهدتْ عليه بما كان منه.

ويُحدِّثنا الحقُّ سبحانه عن الذين خرجوا عن منهج اللَّه وسخَّروا أعضاءهم في معصية اللَّه، فيقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ۝ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

فكأن جوارحَ الإنسان تقول له يوم القيامة: لقد أتعبتني في الدنيا، وأكرهتني على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأنني عابدةٌ مُسبِّحةٌ للَّه، وإن ما أمرتني به يخرج عن طاعة اللَّه عز وجل.

فأبعاضُ الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة، فإن كنتَ عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك، وإن كنتَ غير ذلك كانت جوارحك ضدك.

فالجوارح تنطق لتقيمَ الحجةَ على المذنبين، وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزومَ له، لأن الجوارحَ كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم، فاليد هي التي امتدتْ لتسرق، واللسان هو الذي نطق قَوْلَ الزور، والقلب هو الذي حقد، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية.

فالجوارحُ تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا، فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

والحق سبحانه يشدِّد على أهمية الصدق، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فالصدق هو الخُلَّة التي تجمع كل الإيمان، فحين سُئل رسول اللَّه ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمنُ بخيلاً؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمنُ كذاباً؟ فقال: لا.

والحديث يوضح لنا فظاعةَ الكذب وشناعته، وكيف أنه أعظمُ من كلِّ هذه المنكرات، فقد جعل اللَّهُ لكل منها عقوبةً معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدلَّ على أنها جريمةٌ أعلى من العقوبة وأعظم.

إذن: الكذب صفةٌ لا تليق بالمؤمن ولا تُتصوَّر في حقه.

والحق سبحانه يضع الشهادةَ مكانةً عاليةً في منهج اللَّه لتسيير حياة البشر، لذلك وضع لها مبادئ في آية الدَّيْن، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهو زيادة في التوثيق، يريد به سبحانه أن يُؤمِّنَ الحياة الاقتصادية عند غير الواجد، لأن الحاجة عندما تكون مُؤمَّنةً عند غير الواجد فالدولاب يمشي وتسير حركةُ الحياة الاقتصادية.

ولماذا قال الحق: (شهيدين) ولم يقل: شاهدين؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة، كأنه شاهدٌ عرفه الناسُ بعدالة الشهادة حتى صار شهيداً، إنه إنسانٌ تكررتْ منه الشهادةُ العادلة، واستأمنه الناسُ على ذلك، وهذا دليلٌ على أنه شهيد.

فالعدالة أساسٌ في عملية الشهادة، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وثاني مبادئ الشهادة في منهج اللَّه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي الشهادة مرحلتان: مرحلة التحمُّل، ومرحلة أدائها. فعندما نطلب من أحد الناس قائلين: تعالَ اشهد على هذا الدَّيْن مثلاً فليس له أن يمتنع، وهذا هو التحمُّل، وكذلك عند طلبه لأداء الشهادة أمام القاضي، فليس للشهداء أنْ يأبوا إذا ما دُعُوا تحمُّلاً أو أداءً.

ولكن لا ينبغي أن تتعطل مصالحه لأجل أنه عادلٌ ولأنه شهيدٌ، وهنا يأتي المبدأ الثالث فيقول تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالشهادة هنا تتطلب أن نحترمَ ظروف الشهادة، فإنْ كان عند الشاهد عملٌ أو امتحانٌ أو صفقةٌ أو غير ذلك، فَلنَا أن نقول للشاهد: لك أنْ تتعيَّنَ في التحمُّل حيث لا يوجد مَنْ يُوثَق به ويُطمأنُ إليه، أما في الأداء فأنت مضطرٌ.

لذلك علينا أن نبحثَ عن شاهد له قدرةُ السيطرة على عمله بدرجة ما. وإن لم نجد غيره فماذا يكون الموقف؟

لقد قال الحق: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إذن: علينا أن نبحثَ له عن جُعْل يُعوِّض عليه ما فاته، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وبالاً عليه، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه، واللَّه لا يحمي الدائن والمدين ليضرَّ الكاتب أو الشهيد.

فالحق سبحانه يريد أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يُبقي على مصلحته، ومن هذا المبدأ القرآني أخذت القوانين الوضعية عند استدعاء شاهد من مكان ليشهدَ في قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهاباً وبالنفقة إياباً، وإن اقتضى الأمر أن يبيتَ فله حقُّ المبيت وذلك حتى لا يُضار، وهو يؤدي الشهادة، وحتى لا يتعطل الشاهدُ عن عمله أو أن يصرفَ من جيبه.

ويريد الحق سبحانه أيضاً أن يضمنَ مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة، لذلك اعتبر الإضرار بالشاهد فُسوقاً، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد، ففعل الضرر فسوق، أي: خروج عن الطاعة.

ويُحذِّرنا الحق سبحانه من كتم الشهادة، فيقول: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فكلمة الشهادة هي عن أمر مشهود واقع، ومادام الأمرُ مشهوداً وواقعاً فإنه

يُلحُّ على نفس مَنْ يراه أن يخرج، فإياك أن تكتبه بالكتم، وكأن الطبيعةَ الإيمانية الفطرية تُلح على صاحبها لتُنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع.

والواقع لا يتغيَّر أبداً، لذلك فالإنسانُ الذي يحكي لك حكاية صدق لا يختلف قوله في هذه الحكاية، حتى وإنْ رواها ألفَ مرة، لأنه يستوحي واقعاً، أما الكاذب في شهادته صاحب شهادة الزُّور فيستوحي غيرَ واقع، فتجده يقول كلمة ثم ينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبةً أخرى، فينكشف أمره ويسقط في نظر الناس ونظر مَنْ شهد له.

المرور باللغو مرور الكرام

مما ذكره رسول اللَّه في حديثه النبوي:

«إذا سألتم اللَّهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة»(١)

وما يستحق هذه الدرجة في الجنة إلا الذين تخلقوا بخلق ترك اللغو، والمرور عليه مرور الكرام.

يقول الحق سبحانه واصفاً عباده بصفة تنُمُّ عن مدى حكمتهم وعلمهم بعواقب الأشياء، مما يجعلهم لا يدخلون في جدال أو مراء أو مخاصمة، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٢].

واللغو هو الكلام الذي يجب في عُرْف العاقل أنْ يُلغى ويُترك، فهو الهراء الذي لا فائدة منه، فلا ينفعك إنْ سمعته، ولا يضرك عدم سماعه، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه.

لذلك جعل الحق سبحانه المَارِّينَ على اللغو مرورَ الكرام أصحاب نفوس سَويَّة مُتعالين على سفاسف الأمور، مُترفِّعين عن سفاهات الناس، وهم لا يمرون أيَّ مرور، بل (مروا كراماً).

والكرام يقابلها اللئام، فكأن المعنى: أنهم لا يدخلون مع اللئام مجال اللغو والكلام الباطل الذي يصادم الحق ليصرف الناس عنه، فلا ينشغلون به ولا يأبهون له.

بل إن الحق سبحانه قضى وحكم بفلاح المؤمنين، وجعل منهم هؤلاء الذين يعرضون عن الكلام الذي لا فائدةَ منه، فيعرضون عن اللغو، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٣/ ٧٤).

ثم قال عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

والإعراض في الأصل تجنُّب الشيء، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما، وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً، فيقولون: كل عمل لا تنال عليه ثواباً من اللَّه فهو لغو.

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها للَّه حتى تُثاب عليها، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر، لكن أراد أن يستغل فرصة الخير هذه، وأن يكون له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه. فرفع يده: اللَّهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً، فاجعل تصويب خطئه في قصدي تصويباً لقصدك. يعني: أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على اللَّه من هذه الناحية.

وقد قال الحق سبحانه في سورة القصص: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وسبب نزول هذه الآية أنه لما استقبل رسول اللَّه ﷺ رسلَ النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة، فلما جلسوا أسمعهم سورة يس، فتأثروا بها حتى بَكوْا جميعاً، ثم آمنوا برسول اللَّه، ولمَّا انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم. وقال: خيَّبكم اللَّهُ من رَكْب ـ وهم الجماعة يأتون في مهمة ـ أرسلكم من خلفي. يعني: النجاشي لتعلموا له أخبارَ الرجل، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتم، واللَّه ما رأينا رَكباً أحمقَ منكم، فما كان منهم إلا أن أعرضوا عنه[1].

فهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام وأعرضوا عنه فلم يلتفتوا إليه، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو، إنما قالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٩٣). وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٨٣)، وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق في السيرة.

أي: لنا أعمالنا الخيِّرة التي يجب أن نقبل عليها، ولكم أعمالكم الباطلة التي ينبغي أن تترك، فكلٌّ منا له شأنٌ يشغله.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، والسلام إما سلامُ تحية كما هو شائعٌ بيننا، وإما سلامٌ للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل، فلما رأيت أنه سيطول وربما تعدَّيت عليه فتقول له تاركاً، سلام عليكم. تعنى: إنني ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة.

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم عليه السلام وبين عمه، فبعد أن ناقشه في أمر عبادته آلهةً من دون اللَّه، قائلاً له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

فهذه المحاورة التي احتوتْ أربعةَ نداءات حانية، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعو ولده ويقدم له النُّصح ورتبتْ الأمورَ ترتيباً طبيعياً، وسلسلتها تسلسلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه.

وقد راعى الحق تبارك وتعالى جوانبَ النفس البشرية، فأمر أن تكون الدعوةُ إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى لا تجمع على المدعوّ قسوة الدعوة، وقسوة أن يترك ما ألف ويخرج منه إلى ما لم يألف.

فأنت حين تدعو شخصاً إلى اللَّه، فإنما تُخرجه عن الفساد الذي ألفه، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه، فما أحوجه لأسلوب ليِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك.

وما أشبه الداعية في هذا الموقف بالذي يحتال ليخلِّص الثوبَ الحرير من الأشواك، أما إنْ نهرته وقسوتَ عليه فسوف يُعرض عنك وينصرف عن دعوتك، ويظل على ما هو عليه من الفساد.

لذلك قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقولون: النصح ثقيلٌ فلا تُرسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، وقالوا: الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفةَ البيان.

ورغم نداءات إبراهيم عليه السلام الحانية لأبيه، إلا أن ردَّ أبيه كان صادماً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

تهديد ووعيد وطَرد لإبراهيم، فماذا قال نبيُّ اللَّه إبراهيم لأبيه بعد هذه القسوة؟ لم يخرج إبراهيمُ عن سَمْته العادل، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

أي: سلامٌ أقابل به ما بدر منك، فأمري معك سلام، فلن أقابلك بمثل ما قلت، ولن أغلظ لك، ولن ينالك مني أذىً، ولن أقول لك: أف.

لكن السلام مني أنا لا يكفي، فلا بدَّ أن يكون لك سلامٌ أيضاً من اللَّه تعالى لأنك وقعتَ في أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب، وأخشى ألَّا يكون لك سلامٌ من اللَّه.

ظلَّ إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه كما وعده، إلى أن تبينَ له أنه عدو للَّه فانصرف عند ذلك وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

فما كان من إبراهيم إلا أنه أعرض عن الحديث معه بعدما بذل معه كل ما يمكن، وبعد أنْ تبين أن دعوته لن تُجدي نفعاً، لأن أباه أُشرب قلبه حبَّ آلهته التي يصنعها بيديه، فقال إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

ويعطينا الحقُّ سبحانه صورة أخرى للإعراض عن اللغو والاستهزاء بآيات اللَّه، فيقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات اللَّه أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم، إلا أنْ يتحولوا إلى حديث آخر، وذلك حتى لا

يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم، وبذلك يحمي اللَّهُ وحدة أهل الإيمان ويصونهم من أيِّ تهجُّم عليهم.

فالذين يَغارون على الإيمان هم الذين آمنوا، فما دُمتَ قد آمنتَ وارتضيتَ لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين، لأنك إنْ هادنته كان أعزَّ في نفسك من الإيمان.

وما دُمْتَ أيها المؤمن قد ارتضيتَ الإيمان طريقاً لك وعقيدة، فَلتحم هذا الإيمان من أن يتهجَّم عليه أحدٌ، فإن اجترأ أحدٌ على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل، فالغيرة الإيمانية للمسلم تُحتِّم عليه أن يرفضَ هذا المجلس.

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين، فساعةَ يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات اللَّه، فسيعلم الكافرون والمنافقون بذلك السلوك أن عرْضَ الإيمان أعزُّ على المسلمين من مجالسة هؤلاء.

أما إذا جالسهم مسلمٌ وهم يخوضون في الإيمان، فهذا يعني أنهم أعزُّ من الإيمان، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لزعزعة الإيمان في قلوب المسلمين، أما حين يرى الكافرُ مؤمناً يهبُّ وينفر من أيِّ حديث فيه سخرية من الإسلام، هنا يعرف الكافرُ أن إيمانَ المسلم عزيزٌ عليه.

فإن رأيتَ أيها المسلم فعلاً يُشجِّع منهجَ الفساد في الأرض فاعلم أن ذلك خوضٌ في دين اللَّه بالباطل، وقول الحق سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ . . .﴾ [النساء: ١٤٠]، هو إيذانٌ بالمقاطعة، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يذهب إلى البقال ليشتريَ منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له، وكذلك الجزار، وكذلك أيّ إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج.

وبذلك تكون المقاطعةُ حتى يتأدبَ ويعلم كلُّ إنسان أن المجتمعَ غيورٌ على دينه الذي آمن به، وأن اللَّه أعزُّ من كل تكريم يرونه في مجتمعهم.

وما استشرى الباطل وتبجَّح أهلُ الفساد وأهلُ المنكر، إلا لأن الناس يحترمونهم ويعاملونهم على هذه الحال، بل ربما زاد احترام الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم.

وما خُلُق الإعراض عن اللغو والباطل والمرور عليه مرورَ الكرام الذي يتصف به عباد اللَّه إلا لأنهم قد تحققوا بمعنى قول الحق سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل قد يطفو ويعلو إلا أنه لا يدوم بل ينتهي، والمثل العامي يقول: «يفور ويغور»، ألم تَرَ إلى القدْر بها لحمٌ تفور؟ إننا نجد الرِّيم قد طفا على السطح، فإذا ما جاءتْ حرارةُ النار أخرجتْه على السطح، فإما أنْ يُخرجه الإنسانُ خارج القدر، وإما أنْ يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي.

ومهما اختلطتْ بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث ويُنحيها عنه، فإنْ عَلا الباطلُ يوماً على الحق فلنعلم أنه علوُّ الزَّبَد الذي يذهب جُفاء مَرْمياً به ومطروحاً وسيظل الحقُّ هو الحق.

فالحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمَّع على الجوانب ليذهبَ بغير فائدة، فالباطلُ إنما يطفو على السطح، لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذي يستقر وينفع الأرض والناس.

وقد كان كفارُ قريش يحاولون التشويشَ على الحق الذي أنزله اللَّه سبحانه على رسوله محمد ﷺ، يريدون صرفَ الناس عن الاستماع للقرآن، فكانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

يعني: شوِّشوا عليه حتى لا يتمكَّن الناسُ من سماعه، وهذه شهادةٌ منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعتْ القرآن فلا بدَّ أنْ ينفعلوا به وأنْ يؤمنوا به، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر في النفوس ما قالوا هذه المقولة.

فالقرآنُ يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها اللَّه سبحانه خالق الإنسان وهو أعلمُ به، هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الإيمانُ إليها.

لذلك كان أئمةُ الكفر يخافون أكثرَ ما يخافون من سماع الكفار للقرآن، ويحاولون منعَ ذلك بأيِّ وسيلة، ويعتدون على مَنْ يتلو القرآن، ولو أن هذا

القرآن لم يكُنْ كلامَ اللَّه الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية ما اهتمَّ أئمةُ الكفر أن يستمع أحدٌ للقرآن أو لا يستمع، ولكن شعورهم بما يفعله كلامُ اللَّه جعلهم لا يمنعون سماعَ القرآن فقط، بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فلم يكونوا يمنعونهم من سماع القرآن فقط، بل يطلبون من أنصارهم أنْ يلغوا فيه أي يُشوشون عليه، أي: اصنعوا ضجة تَحُول بين السامع للقرآن وتدبّره، ولا تعطوا للناس فرصةً لسماعه، حتى لا ينفذ إلى قلوبهم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٢].

فهؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون في وجه الدعوة إلى الإيمان مستفيدون من الباطل والضلال، ويسوؤهم أنْ يأتمَّ الناسُ بأهل الحقِّ والخير لذلك يبذلون قصارى جهدهم في نَشْر الضلال حتى أنهم يشترونه، فيبذلون مالهم لشغل الناس وصرفهم عن الحق باللهو واللعب واللغو.

فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك، لكن ما اللهو الذي اشتروْه ليصرفوا الناسَ به عن الحق وعن دعوة الإسلام؟ إنهم لمَّا سمعوا القرآنَ سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود وعن مَدْين وفرعون.. الخ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناسَ بمثل هذه القصص.

وقد ذهب واحدٌ منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمير، اشتراها وجاء بها، وجعل له مجلساً يجتمع الناسُ فيه ليقصَّها عليهم، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول اللَّه.

وآخر يقول: بل جاء أحدُهم بمغنية تُغنِّيهم أغاني ماجنة مُتكسِّرة.

فالغناءُ أحد وسائلهم، وهو من التصرفات التي تُعدُّ لهواً وإنْ لم يشغلك عن شيء، وللعلماء فيه كلامٌ كثير، خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلاتُ الطرب والحركات الخليعة الماجنة.

فقد أباح علماؤنا الأُنْسَ بالغناء في الأفراح وفي الأعياد اعتماداً على قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق الذي رأى جاريتين تُغنِّيان في بيت رسول اللَّه فنهرهما، وقال: أمزمار الشيطان في بيت رسول اللَّه. فقال: دَعُهما فإننا في يوم عيد.

وكذلك أباحوا الأناشيدَ التي تُقال لتلهبَ حماسَ الجنود في الحروب، أو التي ينشدها العمالُ ليطربوا أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل أو المرأة التي تهدهد ولدها لينام.

ومن ذلك حداء الإبل (أي: تسوق الإبل والغناء لها) لتسرعَ في سيرها وقد قال النبي ﷺ لأنجشة: «رفقاً بالقوارير»، فشبَّه النساء في لُطفهن ورقتهنَّ بالقوارير، فإذا ما أسرعتْ بهنَّ الإبل هزّت بهنَّ الهوادج، وهذا يشقّ على النساء.

إذن: لا مانعَ من كل نَصٍّ له غرضٌ نبيلٌ، أما إنْ أهاج الغرائزَ فهو حرام ـ والكلام هنا عن مجرد النص ـ لأن الخالقَ سبحانه يعلم طبيعةَ الغرائز في البشر، لذلك نُسمِّيها غريزة، لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بدون أيّ مؤثرات خارجية، ولها طاقة لا بدَّ أنْ تتحرك، فإنْ أثرتها أنت ثارت ونزعتْ إلى ما لا تُحمد عُقْباه.

إذن: لا تقُلْ الغناء لكن قُل النصَّ نفسه، إنْ حَثَّ على فضيلة فهو حلالٌ، وإنْ أهاجَ الغرائزَ فهو حرامٌ وباطلٌ، كالذي يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها، فهذا حرامٌ حتى في غير الغناء، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسُّر والميوعة ازدادت حُرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه يُسمونه غناء، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة فلا شكَّ في حرمته.

فكلُّ ما يُخرج الإنسانَ عن وقاره ورزانته، وكلُّ ما يجرح المشاعر المُهذَّبة فهو حرام، ثم إن الغناءَ صوتٌ فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيج تستعمل فيه الأيدي والأرجل والعينان والوسط.. الخ، فهذا كله باطلٌ ومُحرَّم.

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك زمامَ نفسه أنْ يقولَ: إنهم يفرضون علينا ذلك، فالمؤمنُ له بصيرةٌ يهتدي بها، ويُميِّز بين الغَثِّ والسمين والحق والباطل، فكُنْ أنت حَكَماً على ما ترى وما تسمع، بل ما يرى وما يسمع أهلُك وأولادك، وبيدك أنت الزمامُ إنْ شئتَ سمعت، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز، فلا حُجةَ لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يُجبرك على سماع أو رؤية ما تكره.

ففي رمضان مثلاً، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ونقوم ليله، وينبغي أنْ نُكرمه، ونحتفظ فيه بالوقار والرُّوحانية، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو واللغو الذي يتنافى والصيام.

فإنْ سألتَهم قالوا: الناسُ مختلفو الأمزجة، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم، لكن للمؤمن ولايةٌ على نفسه وهو يملك زمامها، فلا داعيَ أن تتهم أحداً ما دام الأمرُ في يدك، وعليك أنْ تنفذ الولايةَ التي ولَّاك اللَّهُ، فإنْ فعلتَ ففي يدك خمسةٌ وتسعون بالمائة من حركة الحياة، ولغيرك الخمسةُ الباقية.

إذن: القضيةُ واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى، فكلُّ ما يثير الغرائزَ ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطلٌ وحرامٌ، سواء أكان نصاً بلا لحن، أو لحناً بدون أداء، أو أداءً مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء.

هؤلاء المُعرضون عن اللغو والكلام الباطل جعلهم الحقُّ سبحانه من الوارثين الذين يرثون الفردوسَ الذين قال الحق سبحانه فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

فحين يدخل أهلُ الجنة الجنةَ يتركون أماكنهم في النار، وحين يدخل أهلُ النار النارَ يتركون أماكنهم في الجنة، فيرث أهلُ النار الأماكنَ الشاغرة فيها، ويرث أهلُ الجنة الأماكنَ الشاغرةَ فيها.

والفردوسُ أعلى مكان في الجنة، لذلك كان النبي ﷺ يقول: «إذا سألتم اللَّهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة»، ذلك لأن الفردوسَ جنةٌ على أعلى ربوة في الجنة. يعني: في مكان مُميّز منها، والعلو في مسألة

المسكن والجنان أمرٌ محبوبٌ في الدنيا، والناس يُحبون السكنى في الأماكن العالية، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء.

وفي الفردوس ميزةٌ أخرى، هي أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي غرس شجرها بيده، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تبارك وتعالى، فقال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

ويُرْوى أن الحقَّ تبارك وتعالى لمَّا خلق الفردوسَ وغرس أشجارها بيده قال للفردوس: تكلمي. فلما تكلمتْ الفردوسُ قالت: قد أفلح المؤمنون.

وقد وصف الحق سبحانه الفردوس وصفاً يؤكد محبوبية اللَّه ووده لعباده، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ٤٧].

والنُّزُل: ما يُعدّه الإنسانُ لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوِّمات الحياة وترفها، والإنسانُ حينما يُعدُّ النُّزُلَ لضيفه يُعدّه على حَسْب قدراته وإمكاناته وعلمه بالأشياء، فما بالك إنْ كان المُعد للنُّزُل هو اللَّه تبارك وتعالى؟ ﴿نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٢]، فالذي أعدَّ هذا النُّزُل، وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم، والذي يُعد نُزلاً لضيفه يُعده على قدر غناه وبسطة كرمه، فما بالك بنُزُل أعدَّهُ اللَّهُ لأحبابه وأوليائه؟

وقد جعل الحقُّ سبحانه من نعيم هذا الفردوس أن عبادَ اللَّه الذين أعرضوا عن اللغو في الدنيا ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

فمن معايب الدنيا ومصائبها أن نسمعَ فيها لغواً كثيراً لا فائدةَ منه، فهم لا يسمعون في جنة الفردوس لَغْواً ولا تأثيماً إلا كلمة سلاماً سلاماً، فهم يُسلِّمون على بعضهم، والملائكةُ تُسلِّم عليهم، وأشرف السلام في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

فهذا السلام ليس من البشر، لأن من البشر مَنْ يعطيك السلام وهو يُكنّ لك غير السلام، وقد يريد بك السلام ولكنه من الأغيار فيتغير، فلا يقدر أنْ يعطيك هذا السلام.

لكن إذا ما جاء السلامُ من اللَّه تعالى فهو سلامٌ من ربٍّ لا يعجزه شيء،

ولا يُعوزه شيء ولا تلحقه أغيار، لذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام اللَّه تعالى، وحتى أصحاب الأعراف الذين لم يدخلوا الجنةَ ويروْن أهلَ الجنة وأهلَ النار، هؤلاء يُلقون السلامَ على أهل الجنة، وهكذا يحيا أهلُ الجنة في سلام شامل ومحيط ومُطمئن، لأن الداعيَ هو اللَّهُ سبحانه، ولا أحدَ يُجبره على أن ينقض سلامه، فعباد اللَّه يُلقون في الجنة سلاماً من اللَّه، وسلاماً من الملائكة، وسلاماً من أهل الأعراف.

والحق سبحانه يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقلَ، ولا تجعل صاحبها يهذي بلغو الكلام: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

واللغو هو العمل الساقط الذي لا فائدةَ فيه، مثلما يقول أهلُ الخمر بعضهم لبعض: يا نصاب، يا نجس، يا حرامي.. الخ. (فهزارهم) كله إثمٌ ولَغْوٌ، فالجنةُ ليس في شرابها لغوٌ ولا إثمٌ، فالجنة مبرأة عنهما، وشرابها لا يُذهب بالعقول.

وذلك مصداقٌ لقول الحق سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، فهُمْ إنْ كانوا قد سمعوا لغواً كثيراً في الدنيا فلا مجالَ للغو في الآخرة، ثم يستثني من عدم السماع ﴿إِلَّا سَلَٰمًا...﴾.

والسلام ليس من اللغو، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة، قال الحق سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ..﴾.

فالذي يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طَعماً، ويجعل لها استقراراً أن يكونَ الإنسانُ في سلام، ومعنى السلام: الاطمئنان والرضا، فلا مُهيِّجات، ولا مُعكِّرات، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في مَلكات النفس، فيتحقق سلامُ الإنسان مع نفسه، وسلامُ الإنسان مع أهله، وهذا هو المحيط الثاني، وسلام الإنسان مع قومه، وسلام الإنسان مع العالم كله.

كلُّ ذلك اسمه سلام، أي: لا مُنغِّصَ، لا من نفسه، ولا من أهله، ولا من قومه، ولا من العالم، وكلما اتسعتْ رقعةُ السلام زاد إحساسُ الإنسان بالاطمئنان.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . .﴾، فالسلام وارد في أشياء متعددة، والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٦ ـ ٥٨].

وهذا هو السلام الذي له معنى، فهو سلامٌ من اللَّه. ولم يقُلْ سبحانه وتعالى: «سلامٌ يُورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط، بل هو سلامٌ بالقول من اللَّه، وانظر أيَّ سعادة حين يخاطبك الحقُّ سبحانه وتعالى مباشرة.

وهناك فَرْق بين أنْ يُشيعَ اللَّهُ فيك السلامَ وبين أنْ يحييك كلامه بالسلام، وهذا هو السبب في قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

إذن: فقول الحق: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . . .﴾، نجد فيه كلمة السلام رمزَ الرضا والاستقرار في الجنة، فالسلامُ هو أولُ الأحاسيس التي تُحبها في نفسك، ولو كان الناسُ كلهم ضدك، لكنك ساعة تستقر، فأنت تُسائل نفسك: ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدي؟

وحين تجيب نفسك: إنني لم أفعل إلا الخير. فأنت تُحسّ السلام في نفسك، وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل، فالحياة تسير، بلا ضد ولا حقد.

وقد يُراد بالسلام السلامةَ من الآفات التي عاينوها في الدنيا، وهم في الآخرة سالمون منها، فلا عاهةَ ولا مرض ولا كدّ ولا نَصَب، ولكن نرجح هنا في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا . . .﴾ المعنى الأول، أي: التحية، لأن السلام في الآية مما يُسمع.

فإن قلتَ: فكيف يُستثنى السلامُ من اللغو؟ نقول: من أساليب اللغة تأكيدُ المدح بما يشبه الذمَّ، كأنْ نقول: لا عيبَ في فلان إلا أنه شجاعٌ، وكنت تنتظر أن نستثني من العيب عيباً، لكن المعنى هنا: إن عددتَ الشجاعة عَيباً، ففي هذا الشخص عيبٌ، فقد نظرنا في هذا الشخص فلم نجد به عيباً، إلا إذا ارتكبنا مُحالاً وعددنا الشجاعةَ عيباً، وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم.

مما ذكره الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) عن فضل مَنْ أعرض عن اللغو وتفاهات الأمور:

عن وهب بن منبه قال: بلغ عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما عن

مجلس كان في المسجد في ناحية بني سهم يجلس فيه ناس من قريش يختصمون فترتفع أصواتهم.

فقال لي ابن عباس رضي اللَّه عنهما: انطلق بنا إليهم.

قال: فانطلقنا حتى وقفنا عليهم.

فقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: أخبرهم عن الكلام الذي كلم به الفتى أيوب وهو في بلائه.

قال: قلتُ له: قال الفتى:

يا أيوب، أما كان في عظمة اللَّه وذكر الموت ما يكل لسانك، ويقطع قلبك ويكسر حجتك

يا أيوب، أما علمت أن للَّه عبادا أسكتتهم خشية اللَّه من غير عي ولا بَكم، وإنهم لهم النبلاء الطلقاء الفصحاء الألباء العالمون باللَّه وأيامه، ولكنهم إذا ذكروا عظمة اللَّه تعالى تقطعت قلوبهم، وكلَّتْ ألسنتهم، وطاشتْ عقولهم وأحلامهم؛ فَرَقاً من اللَّه عز وجل وهيبةً له، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى اللَّه عز وجل بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون للَّه الكثير، ولا يرضون له بالقليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وإنهم لأنزاه أبرار، ومع المضيعين والمفرطين وإنهم لأكياس أقوياء، ناحلون ذائبون، يراهم الجاهل فيقول: مرضى، وليسوا بمرضى، وقد خولطوا، وقد خالط القوم أمر عظيم.

قال أبو الحكم: وكتب إلي رجل أن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال لهم على إثر هذا الكلام: كفى بك ظالماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال مماريا، وكفى بك إثماً أن لا تزال مُحدِّثاً بغير ذكر اللَّه تعالى.

الاستجابة لآيات اللَّه وحُسْن استقبالها

عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه قال:

«قالَ اللَّهُ تعالى:

أنا اللَّهُ لا إلهَ إلا أنا

مَنْ أقرَّ لي بالتوحيد دخلَ حصني

ومَنْ دخلَ حصني أمنَ من عذابي»[1].

يقول الحق سبحانه عن صنف من عباده أنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، فهذه الصفة تتعلق باستقبال عباد اللَّه المؤمنين لآيات اللَّه وتوحيد اللَّه والذي به يستحقون الدخول في حصن اللَّه سبحانه، فهم حين يُذكّرون بها لا يخرُّون عليها صُماً وعُمياناً، إنما يخرون وهم مُبدون تمامَ السمع، ومُبصرون تمام البصيرة.

وقد أعطانا الحق سبحانه أمثلة حيَّة من موكب الأنبياء والمرسلين، وممَّنْ هداهم اللَّهُ واجتباهم للإيمان به سبحانه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا * وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٧].

ثم قال سبحانه مُشيراً إليهم: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩﴾ [مريم: ٥٨].

فهم إذا تُليتْ آياتُ الرحمن خرُّوا وسقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض، وهذا انفعالٌ قَسْري طبيعي، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا التفكير، فهو ليس مجردَ سجود، بل سقوطٌ سريعٌ عفويّ.

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١/ ١٢٧)، وأورده صاحب الإتحافات (٥٤) وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/ ٤٠٥١).

وقد وصف اللَّهُ هؤلاء في آية أخرى بأنهم (الذين أوتوا العلم) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فكلمة (يَخرّون) تُوحي بأنهم يسارعون إلى السجود، وكأنها عمليةٌ انفعاليةٌ غير إرادية، ليس لهم فيها تصرُّف، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين؛ لأنهم تفاعلوا معه، واختمرَ الإيمانُ في نفوسهم، ليس ذلك وفقط، بل ويخرُّون للأذقان سُجَّداً، ومعلومٌ أن السجودَ يكون على الجبهة، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله، وهذا دليلٌ على الخضوع والاستسلام للَّه تعالى. ﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ٤٨].

أي: يقولون حالَ سجودهم: سبحان ربِّنا الذي وفَّى بوعده في التوراة والإنجيل، وبعث الرسولَ الخاتم ومعه القرآن، سبحانه حقَّق لنا وَعْده وأدركناه وآمنَّا به، وكأن هذه نعمة يحمدون اللَّه عليها.

ثم يؤكد الحق سبحانه أمر الخرور للأذقان واصفاً بكاءهم وخشوعهم، فيقول تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

لقد خرُّوا ساجدين للَّه تعالى قبل ذلك؛ لأنهم أدركوا القرآنَ الذي نزل على محمد، وتحقَّق لهم وعدُ اللَّه فعاصروه وآمنوا به، أما هذه المرة فيخرُّون ساجدين لمَّا سمعوا القرآنَ تفصيلاً، وانفعلوا به، فيكون له انفعالٌ آخر؛ لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع، فيقول: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ..﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فكلما قرأوا آيةً ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً.

والحق سبحانه يعطينا وصفاً آخر غير الخرور والسجود، بل يصف قشعريرةَ الجلود وخفقان القلوب لآيات اللَّه سبحانه، فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلماذا يُؤثِّر الانفعالُ بالقرآن في كلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان؟ قالوا: لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعي، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك، لذلك تَخرُّ الأعضاء ساجدةً، وتدمع العيون، وتقشعر الجلود، وتلين القلوب، كيف لا، والمتكلم هو اللَّه؟

وهكذا نرى أن الجلودَ تقشعر خشيةً وخوفاً من وعيد اللَّه سبحانه، وإجلالاً لكلمات اللَّه سبحانه، ومن بعد ذلك تأتي الرحمةُ، وحينها لا تلين الجلودُ فقط، ولكن لا بدَّ أنْ تلينَ القلوبُ؛ لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد.

والحق سبحانه يُبيِّن أن المؤمنين هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ . . إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

والوَجَل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرةٌ واضطرابٌ في القلب، وقد يقول قائلٌ: إذا كان ذكرُ اللَّه عزَّ وجلَّ يدفع قلوبَ المؤمنين إلى الوجَل، ألَا يتنافى مع قوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؟

نقول: في الحقيقة لا يوجد تعارضٌ بين القولين؛ لأن ذكرَ اللَّه تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإنْ كان الإنسانُ مُسرفاً على نفسه، فهو يرجفُ حين يذكر اللَّه الذي خالفَ منهجه، وإنْ كان الإنسانُ يراعي حقَّ اللَّه في كل عمل قدرَ الاستطاعة، فلا بُدَّ أن يطمئنَ قلبه لحظةَ ذكر اللَّه؛ لأنه اتبع منهجَ اللَّه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال؛ ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هي قوْل الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالجلود تقشعر خوفاً ووَجَلاً ومهابةً من اللَّه عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان المنَّان سبحانه وتعالى؛ لأن ربنا قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

إذن: فلا يقولنَّ أحدٌ إن هناك تعارضاً بين الوَجَل والاطمئنان، فكلها من ذكر اللَّه بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجلَ الإنسانُ فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأنسه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد.

ونعلم أن الإنسانَ له حواس إدراكية يستقبل بها المُحسَّات، وله عقلٌ يأخذ هذه الأشياء ويهضمها بعد إدراكها ويفحصها جيداً، ويتلمَّس مدى صدقها أو كذبها، ويستخرج من كلِّ ذلك قضيةً واضحةً يُبقيها في قلبه لتصبحَ عقيدة؛ لأنها وصلتْ إلى مرحلة الوجدان المحبّ لاختيار المحبوب.

وهكذا تمرّ العقيدة بعدة مراحل، فهي أولاً إدراك حسي، ثم مرحلة التفكر العقلي، ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة، ثم الاستقرار في القلب لتصبح عقيدة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة، وقد يمر على القلب بعضٌ من الأغيار التي تزلزل الإيمان، ونقول لمَنْ تمر به تلك الهواجسُ من الأغيار: أنت لم تُعط الربوبيةَ حقها؛ لأنك أنت الملوم في أي شيء ينالك.

فالقلوب تطمئن بالقرآن، وما فيه من أخبار صادقة تمامَ الصدق، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربه، وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند اللَّه.

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدَّقوا ما جاء به، فها هي خديجة ـ رضي اللَّه عنه وأرضاها ـ لم تكُنْ قد سمعت القرآن، وما أن أخبرها رسول اللَّه ﷺ بمخاوفه من أن ما يأتيه قد يكون جناً، فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقْري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق، واللَّه ما يُخزيك اللَّهُ أبداً»[1].

وها هو أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه وأرضاه ـ يُصدق أن محمداً رسولٌ من اللَّه فَوْرَ أنْ يُخبره بذلك، وهكذا نجده ﷺ قد امتلكَ سماتاً، وقد صاغَ اللَّهُ

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣) وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها. ومعنى (تحمل الكل) أي: تعين المُثْقل ومنه الإنفاقُ على الضعيف واليتيم والعيال. و (تُكسب المعدوم) أي: تستفيد المالَ المعدوم، وقد كان النبيُّ ﷺ (محظوظاً في تجارته. و (تَقري الضيف) أي: تُطعمه طعامَ الأضياف. و (نوائب الحق): حادثات الأيام. انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ٥٦١)، وفتح الباري للعسقلاني (١/ ٢٤).

لرسوله أخلاقاً، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كلَّ ما يقول فَوْرَ أن ينطق.

والمؤمن يذكر اللَّه بالخيرات، ويعتبر من كل ما يمر به، وبكل ما جاء بكتاب اللَّه، وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئن بذكر اللَّه؛ لأنه قد آمن إيمان صدق.

فذكر اللَّه إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أن تخاف وتوجل وتضطرب هيبةً للَّه عزَّ وجلَّ، أما إنْ جاء ذكْر اللَّه بعد المصيبة أو الشدة، فإن النفس تطمئن به، وتأنس لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة، وتركن إليه عند الضيق والبلاء، فإنْ تعرَّضتَ لمصيبة، وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول: أنا لي ربٌّ فلتجأ إليه.

ويعطينا الحقُّ سبحانه مثلاً حياً لسرعة استجابة مَنْ آمنَ باللَّه لآيات اللَّه ودلائله، فيقصُّ علينا ما وقع من سحرة فرعون عندما ظهرتْ لهم الحقيقةُ جليةً أمام عيونهم، وعلموا وأيقنوا أنهم كانوا في ضلال وإضلال.

فقد جمع فرعونُ السحرةَ من المدائن ليغلبوا موسى عليه السلام بسحرهم وينتصروا عليه. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٧].

فقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لمَّا رأى حبالّ السحرة وعصيَّهم تتحول أمام النِّظارة إلى حيَّات وثعابين، وربما اكتفى المشاهدون بما رأوْه فهرجوا عليه وأنهوْا الموقف على هذا قبل أنْ يتمكَّن هو من عمل شيء.

لذلك ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

لا تخفْ يا موسى، فأنت المنصور الفائز فاطمئن، فما كان الحق تبارك وتعالى ليرسله ثم يتخلَّى عنه.

وقد قال له ربه قبل ذلك: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالحق سبحانه يعطي نبيه موسى الأوامر، ويعطيه الحجة لتنفيذها، ثم يتابعه بعنايته ورعايته.

هكذا كانت الصورة، فلما خاف موسى ثبَّته ربه، وأيَّده بالحقِّ وبالحجة

وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ليُوجِّهه ويُعدِّل سلوكه، ويشدّ على قلبه.

فلا تخفْ لأني أنا الذي أرسلتُكَ، وأنا الذي أتولى حمايتك وتأييدك، فأنت معذورٌ في الخوف إنْ كنت بعيداً عني، فكيف وأنت في جواري وأنا معك؟

وها أنذا أخاطبك. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

فالساحر يرى ما يفعله على حقيقته، وهم خيَّلوا لأعين الناس، لكنهم يرَوْنَ حبالهم على حقيقتها مجردَ حبال، وعصيَّهم مجرد عصيٍّ، أما عصا موسى فلم تكُنْ تخييلاً، بل وجدها السحرةُ حيَّة حقيقية، ولقفتْ بالفعل ما صنعوا، ولذلك خرُّوا ساجدين، وأعلنوا الإيمانَ بربِّ موسى وهارون.

هم إذن لم يعلنوا الإيمانَ بموسى وهارون، بل أعلنوا الإيمان ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً، بل هو من فعل خالق أعلى.

قال الزجاج[(١)] في هذا الموقف: عجيبٌ أمر هؤلاء، فقد ألقوا حبالهم وعصيَّهم للكفر والجحود، فإذا بهم يُلقون أنفسهم للشكر والسجود.

نعم، لقد دخلوا كافرين فجرةً، فخرجوا مؤمنين بررة[(٢)]؛ لأنهم جاءوا بكل ما لديهم من الكيد، وجمعوا صفوة السحرة وأساتذته ممن يعلمون السحر جيداً، ولا تنطلي عليهم حركاتُ السحرة وألاعيبهم، فلما رأوْا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شك في أنها معجزةٌ بعيدة عما يصنعونه من السحر؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون.

وهذا يدلنا على أن الفطرةَ الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواءُ، فإذا تيقظتْ الفطرة الإيمانية، وأزيلت عنها الغشاوةُ سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ بها.

---

(١) هو: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ٢٤١ هـ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو، أدَّب القاسمَ ولد عبيد اللَّه بن سليمان وزير المعتضد العباسي. (الأعلام للزركلي ١/ ٤٠).

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٨) قول ابن عباس وعبيد بن عمير عن سحرة فرعون: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

لقد سارع السحرةُ إلى الإيمان، وكان له هَوَىً في نفوسهم، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ . . .﴾ [طه: ٧٣]، فكانوا مُكرهين، كانوا أيضاً مُسخَّرين، بدليل قولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا . . .﴾، فَرْقٌ بين ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ . . .﴾ [الشعراء: ٤٤]، وهذا منهم عمل اختياري، وبين ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا . . .﴾ [طه: ٧٠]، يعني: على غير اختيارهم، وعلى غير إرادتهم، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا للَّه ساجدين، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم، ودون شعور، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى؛ لأنها ليست سحراً، فهم أعلمُ الناس بالسحر.

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءتْ بصيغة الجمع: ألقى السحرةُ، قالوا آمنَّا، لتدلّ على أنهم كانوا يداً واحدة، لم يشذّ منهم واحد، مما يدل على أنهم كانوا مُكْرهين مُسخَّرين.

والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة، وأن السجود تمَّ منهم دون تفكير؛ لأنه أمرٌ فوق إرادتهم، وكأن جلالَ الموقف وهيبته وروعة ما رأوْا ألقاهم على الأرض ساجدين للَّه، صاحب هذه الآية الباهرة، لذلك لم يقولوا عندها آمنا برب موسى وهارون، إنما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

وهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كلُّ شكٍّ، إيمان خطف ألبابهم، وألقاهم على الأرض ساجدين للَّه، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها.

ومن آيات اللَّه التي لا بُدَّ أن يقف عندها المؤمنون ويتأملوها ويتفكروا فيها، ويسجدوا للَّه عزَّ وجلَّ مُوجدها ومُنشئها في هذا الكون، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وهكذا يلفتنا اللَّهُ جلَّ جلاله إلى آياته التي في السماوات والأرض لنُعملَ فيها العقل والإدراك، لنستنبطَ منها ما يعطينا الحضارة، إن القرآنَ يطالبنا بأنْ نواصل العلم الذي علَّمه اللَّه لآدم، وإذا كان تاريخُ العلوم يحمل لنا أخباراً عن قوم لم يكونوا مؤمنين، ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأملَ آيات اللَّه تعالى في الأرض. ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

إن لهذا العالم خالقاً قادراً، إلهاً قوياً، آمنَّا به، ورأينا جميل صُنْعه في السماء والكواكب، وأُعجبنا بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

ونرى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلي أو الجزئي، ونُبهَر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى، ولن نجد زحامَ مرور بين الكواكب يُعطل القمر، أو يُعطل الأرض، ولن يتوقف كوكبٌ ما لنفاد وقوده، بل كما قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وحين تتأمل السماوات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة، وتمر عليها فتُدهش من دقَّة التكوين ودقَّة التماسك، وتجد في داخلها نفائسَ ومعادن بدرجات متفاوتة، وقد تجد أسطحَ الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هَشٍّ، فإذا ما نزل عليها المطر، فهو يصحبها معه إلى الأرض، لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد، وتتخلل الأرض التي شققتها حرارة الشمس.

ولو أن الجبالَ كلها كانت هَشَّة التكوين، لأزالها المطر مرة واحدة، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مُضَاف لسطح الأرض، ولاختفى الخصبُ من الأرض بعد سنوات، لكن شاء الحقُّ سبحانه أن يجعل الجبال متماسكةً، وجعل سطحها فقط هو الهشّ لينزل المطرُ في كل عام مرة، ليحمل الخصب إلى الأرض.

وما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد قال: (يعقلون) في مجال النظر في السماوات والأرض، فهذه دعوةٌ لتأمل عجائب السماوات والأرض. ومن تلك

العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمةٌ ولها قاعدة، مثلها مثل الهرم، وتجد الوديان على العكس من الجبال؛ لأن الواديَ يكون بين جبليْن، وتجد رأس الوادي في أسفله، ورأس الجبل في قمته.

وحين ينزل المطرُ فهو يمرُّ برأس الجبل الضيِّق، ليصلَ إلى أسفل قاع الوادي الضيق، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل، ليملأ مساحة الوادي المتسعة، وكلما ازداد الخَلْق، زاد اللَّه سبحانه رقعةَ الاقتيات.

ومثال ذلك تجده في الغرين الطمي القادم من منابع النيل، ليأتي إلى وادي النيل والدلتا، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة، وشاء لها الحقُّ سبحانه أنْ تتحوَّل إلى أرض خصبة.

وحين نتأمل ذلك نرى أن كلَّ شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب، والذي يفسد الكونَ هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر، بل ننتظر إلى أن تزدحمَ الأرضُ بمَنْ عليها، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة، وكان يجب أن نفعلَ ذلك من قبل.

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتُظهر ما فيها من معادن يكتشفها الإنسان، ويُعمل عقله في استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً، وكلما طبَّق المؤمنُ حكماً تكليفياً مأموراً به، يجد نورَ الإيمان وهو يشرق في قلبه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، والكون كله أمامهم، فلماذا لا ينظرون؟ إنهم يُبصرون ولا يستبصرون، مثل الذي يسمع ولا يسمع.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٤١].

إذن: فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.

فهرس المحتويات

قال إبليس لربه ٥
مَنْ هو الشيطان؟ ٥
بداية المعصية ٩
حقيقة إبليس ١٠
لا فضلَ لعنصر على آخر ١٢
ما بعد الغواية ١٣
معصية الشيطان ١٤
الكبرياء للّه وحده ١٥
الدنيا دار اختبار ١٨
على أبواب المساجد ٢٠
آدم والشيطان ٢٣
ليست جنة الخلد ٢٥
أول مناهج السماء ٢٧
بداية المعصية ٢٩
وظهرت عورة الإنسان ٣٠
خطيئة آدم . . ومعصية إبليس ٣٣
صراع في الدنيا ٣٧
مداخل الشيطان إلى الإنسان ٤٢
الفرق بين الوسوستين ٤٤
البحث عن الضعف ٤٥
الوسوسة في الصلاة ٤٦
تفوق عنصر الشيطان ٤٩

التكامل وليس التكرار ٥٠
الشيطان وجنوده ٥٢
الشيطان في غزوة بدر ٥٣
لا عقاب على القهر ٥٥
هذا هو الإضلال ٥٧
إني والجن و الإنْس في نبأ عظيم ٦٣
إياك نعبد ٧٤
الغاية من خلق الجن والإنس ٧٥
عباد أم عبيد؟ ٧٥
عباد الرحمن . . والشيطان ٧٧
فما هو الغرور؟ ٨٠
اللَّه رحمن الدنيا والآخرة ٨٥
العِزّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ٩٨
أيْنَ أهْلُ الفَضْلِ؟ ١٠٨
عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ ١٢٠
اللجوء إلى اللَّه ١٣٢
بينَ البُخْل والتَّبذير ١٤٤
العبادة والطاعة والنية لإله واحد ١٥٧
رَبِّ هذا قتلني ١٧٥
أنتَ عندي كبعض ملائكتي ١٨٧
أحضروا حُجَّتكم ٢١٠
كُنْ فَيَكُون ٢٢٩
الذينَ لا يشهدونَ الزُّور ٢٣٧
المرور باللغو مرور الكرام ٢٤٩
الاستجابة لآيات اللَّه وحُسْن استقبالها ٢٦٢